شكر و تقدير

إن الشكر الجزيل و الكبير إلى من خلق وصور ، إلى من علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ، إلى العليم الحكيـــم ، الجدير بالشكـــــر و أدعـــــوه أن يزيـــــدني علماً و حـــلماً

" **و قـــل ربي زدنـــــــــي علمـــــا** " .

إلى من كان لي نعم المراقب و المرشد و المصوب ، الذي أرشدني و صحح أخطائي بصدر رحب و لسان عذب ... يجدر بي أن أتقدم إلى أستاذي الدكتور " **عبد الجـــــليل مرتاض**" المشرف على مذكرتي بخالص الشكر و التقدير على مجهوداته و نصائحه التي أرشدتني إلى طريق النجاح و معلوماته القيمة العظيمة التي أضاءت لي الطريق .

ولا يفوتنـــــي أن أوجه شكري الخالص للدكتور " **بن جامعة الطيب** " الذي راجع البحث و صحح ما فيه من أخطاء ، و أفادني بمعلوماته القيمة نظرا لخبرته الواسعة التي لا يستهان بها ... فكثير الشكر قليل عليه و لكن " إذا قصرت يداي على المـــكافأة فليطل لســـاني بالشكر " . دون أن أغفل توجيه الشكر الجزيل لأساتذة معهد اللغة العربية و آدابـــها و إلى كل زملائي و زميلاتي ، والعمال والعاملات .

و إلى كل من ساعدني على طبع هذه الرسالة ، أستسمحهم على مجهوداتهم المضاعفة و أدعو الله أن يوفقهم و يثيبهم على إخلاصهم .

الإهـــــداء

إلى **أبي** و **أمي** ... حفظهما الله و أمد في عمرهما .

و إلى إخوتي و أخواتي ... محمد و أبو بكر ، عبد المجيد و بلقاسم أدام الله ودهم إلى سعاد ، صبرينة ، ثريا ... بارك الله فيهم و جعلهم من أهل العلم و المعرفـــــة .

و إلى الذين يؤمنون بالفكر العربي و عطائه الفياض في مختلف الحقب من التاريـــــــخ الإنساني ، و إلى الذين يؤمنون بقدسية الكلمة النظيفة الهادفة ، الذين يبحثون عن الحقيقة في مختلف صورها و أحلى معانيها ...

و إلى المكافحين من أجل الحياة الحرة الكريمة ...

و إلى وطني الحبيب الـــــــــجزائـــــــــر ...

أهـــــــــدي هذه الصـــــــفحات المتواضعة .

لزرق جـــــــازية

المختصرات

- مج : مجلد.
- ج : جزء.
- ط : طبعة .
- (د-ط) : دون طبعة.
- ص : صفحة.
- تر : ترجمة .
- تح : تحقيق.
- (د-ث-ن) : دون تاريخ نشر .
- مرا : مراجعة.
- تق : تقديم.
- تأ : تأليف.
- تع : تعليق.
- تعر : تعريب.
- ق : قسم.
- توضيح

مقدمة

الحمد لله صدق وعده ،ونصر عبده ،والصلاة السلام على من لا بني بعده ،عليه وعلى اله وصحبه واتباعه افضل صلاة ،وازكى سلام ،وبعد:

ان الحديث عن اللغة بدا في عصور ضاربة جذورها في اعماق التاريخ ،فمن الامور التي انشغل بها الانسان منذ القديم هي : النظر في اللغة ،والاهتمام بقضاياها ،والتفكير في مشلاتها ،وتجلى ذلك في محاولة وضع تعريف للغة ،والبحث في نشاتها ،والكشف عن طبيعتها ،والتعرف على كنهها ...ومع مرور الزمن اتسع تفكير الانسان اللغوي وتطور ،ودليل ذلك محاولاته تمثيل الكلمات الملفوظة برموز كتابية او ما يعرف باختراع الكتابة التي تعد الوسيلة الوحيدة في حفظ المعارف الوتراث الانساني من الفقدان والضياع .

ولا يخفي على احداث تاريخ الاهم السالفة حافل وغني بالدراسات اللغوية التي تبحث في الظاهرة اللغوية من الوجهة الصوتية ، والتركيبية ،والدلالية ،ثم علاقة هذه المكونات اللغوية بالعالم الذي يحيط بالانسان ،فقد التغت الانسان منذ قديم الازل الى الظاهرة اللغوية وقام بطرح الاسئلة حولها :لماذا لا يتحدث البشر في كل مكان نفس اللغة ؟ وكيف وضعت الكلمات الاول مرة ؟ ومن هو واضعها ؟ وماهي العلاقة بين الكلمة والشيئ الذي تقوم مقامه ؟ ولماذا نطلق على ذلك الشيئ هذا الاسم بالذات وليس اسما اخر ؟... وسواء اقاده حدسه الطبيعي الى الجواب الصحيح ،ام تجاربه العلمية المتوفرة له انذاك ،فان الانسان قد تواصل الى حقائق حول اللغة بشكل طبيعي ... ومما لا شك فيه ان الانسان بدا منذ وجوده على هذه الارض يفكر في سائر المظاهر الانسانية ،وقد ادى به تفكيره هذا الى ان يقرر الحقائق ويحللها ،ومن هنا نشا التفكير اللغوي ، غير انه كان في شكل تاملات فلسفية حول نشاة اللغة ، واسبقية اللغة او الفكر ،والعلاقة بين الدال والمدلول ،واقسام الكلام ... ذلك فقد كانت اغلب الموضوعات القديمة ذات صبغة دينية او ميتافيزقية بحتة ،فقد راى الهنود القدامي ان الاله اندار (Indra) هو الذي اعطى لكل شيئ وللحيوانات اسماءها ،وارجع المصريون القدامى اللغة والكتابة الى الاله تحوت (THOT) ،في حين اليونانيون وجود خالق للغة والكتابة ... وهذا دليل على ان الدراسة اللغوية في القديم كانت دراسة معيارية ،غير مستقلة ،خاضعة لمتطلبات الفروع الاخرى كالدين ،والفلسفة ،والمنطق ،والتاريخ ،والنقد الادبي ...

ولكن الدراسة العلمية للغة جد حديثة ،ولم تبدا الا في القرن التاسع عشر ،واساسا في القرن العشرين ،حيث اختلت اللغة اسمى الامكنة واصبحت جزءا من مر تكزات الفكر ،وانموذجا للقياس والتطبيق

،ومثالا للبحث في مستويات الظاهرة الفكرية ... فان الذي لا شك فيه– كما يقول رولان بارث –هو انه مايزال علينا ان نستكشف عالم اللغة ،على نحو مانستكشف الان عالم الفضاء ،وربما اصبح هذان الكشفان هما اهم سمة يتميز بها عصرنا ،وبالفعل فقد احتلت اللغة الانسانية مكانا بارزا في حياة الانسان الفكرية وفي مختلف مظاهر النشاطات الانسانية ،ذلك انه لا يمكن اتمام أي تواصل بين الافراد والمجتمعات مهما كان بدائيا من دون استعمالها ،ومما لا شك فيه ايضا انه لابد لكل من يحاول سبر اغوار الفكر الانساني من أي يحاول دراسة اللغة ومن ان يتعال مع هذا التنظيم من الرموز الذي بواسطته يعبر الفكر الانساني عن ذاته ... وهذا ماحاولت حقيقة اللسانيات المعاصرة القيام به ، عندما ركزت مجال بحثها على الاهتمام بطبيعة اللغة الانسانية ، ويقف السويسرى فردنيان دي سوسير على صدارة هذا التوجه اللغوي والنقدى ،وخاصة من خلال فصله بين اللغة والكلام وتعريف كل منهما بمعزل عن الاخر ،وكذلك تعريفه اللغة بانها نظام من الاشارات ،وهذه الاشارات هي اصوات تصدر من الانسان ولا تكون ذات قيمة الا اذا كان صدورها للتعبير عن فكرة او لتوصيلها وتعد البنيوية من اكبر المنهجيات الاساسية التي نهضت على الجهود اللغوية الحديثة ، حيث سعت الى توحيد جميع العلوم في نظام واحد ،اون تفسر علميا جميع الظواهر الانسانية ،فهي بحث شمولي ،ادماجي ، يعالج العالم باكله بما فيه الانسان .

ولهذا فقد استقطبت اهتمام المجالات المعرفية كافة ،وسعت الى استكشاف بتية الاشياء ، حيث اتخذت من البنية اسمها ومتكزها ،ولا بد ان تحمل نفس جوهرها وخصائصها ...

ولذلك تعتبر البنيوية حركة استمولوجية ،عرفت بحركة البنيوية ،و التي قيل عنها انها احدثت اكبر ثورة كوبرنيكية في مجال العلوم الانسانية من جهة ،وفي مجال الفلسفة بوصفها الوعي الاجتماعي لاي مجتمع من المجتمعات من جهة اخرى .

لقد شهدت الساحة الفكرية –بعد زوال الفلسفة الوجودية التي ركزت على قلق الاختيار الانساني والتاكيد على المسؤولية ولالتزام والحرية...– ميلاد مذهب فلسفي جديد يختلف اختلافا عن الفكر الوجودي هو البنيوية ،مع اختلاف في المنطلقات الفكرية وفي نسق المفاهيم الذي تسعتمله ، حيث حاولت البنيوية ان تجعل تصورها للمعرفة والتاريخ والانسان قاعدة اساسية للفكر المعاصر ، فاصبحت الشغل الشاغل المثقفي هذا العصر ،لما كان لها من اهمية بالغة في مجال الدراسات الانسانية والطبيعية ... فقد سحرت البنيوية اوروبا باعتبارها بابا من ابواب التفكير ،وبوصفها تحليلا عامام للعقل ،برغم اصحابه انهم يجدون تماثلات اوتقابلات وبالذات تعارضات ثنائية في معتقدات

الافراد والجماعات وفي سلوكهم ... فمزاعم البنيوية كانت عظيمة جدا ، اذ كانت تدعى انها تفسر جميع الحقائق البشرية ، او على الاصح انها على وشك تفسير كل شيئ ،وهذا هو سر جاذيبيتها ... امام كل هذا ارتايت ان يكون موضوع بحثي : البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي ،وقد دفعني الى اختيار هذا الموضوع جملة من الاسباب ،لعل من اهمها : ما اثارته قضية البنيوية من جدل بين اهل الدراية من العلماء في مجال النقد ،ويتعلق الامر باصول النظرية البنيوية ،فالبعض يرى بان البنيوية منهج في المعانية وطريقة في الرؤية وهي وليدة الدراسات اللسانية التي صعد نجمها في القرن العشرين على يد العالم اللغوي السويسرى دي سوسير ،وينفي عنها صفة المذهبية او كونها حركة فكرية او فلسفية ،اما البعض الاخر فيعتقد بان البنوية ذات جذور فلسفية ،قد تعود الى الفلسفة العقلية المثالية ،وتحديدا الى الفلسفة الكانطية .

فعند الحديث عن البنيوية ينبغي –بل انه من الضروري –ان تقوم بعملية تحديد اولية تتمثل في التمييز بين صفتها من حيث هي منهج ،وصفتها من حيث هي مذهب فلسفي عام ، كما لفت انتباهي نقطة هامة هي قلة الدراسات والبحوث في معهدنا حول البنيوية ، بل قلة الدراسات العربية التي تناولت قضية البنيوية ، اضافة الى انها دراسات لم تهتم بالمنهج البنيوي ولا باصوله الفلسفية ،على قدر اهتمامها بالبيوية بشكل عام ،فقد كانت دراسات اولية توضح المعالم الرئيسة للبنيوية وبعض المجالات التطبيقية ،من غير ان تبين الاساس المنهجي والعلمي والفلسفي الذي تقوم عليه البنيوية ،وبالاضافة الى ذلك فان المتتبع للحركة النقدية جيدا سواء في البيئة العربية والغربية المعاصرة ،سيجد نوعا من التخوف لدى اهل الدراية من العلماء حيال المشاريع التي تركز عملها على استكناه الجذور الفلسفية التي تقف وراء الاتجاهات النقدية ...

لقد كانت هذه الاسباب وغيرها مجتمعة ،هي ماقادني الى توضيح بعض المفاهيم بحسبها علامات طريق بارزة في مشروع البحث ،حيث حاولت في هذه الدراسة الوقوف .عند معالم هذه القضية (قضية البنوية) ، متخذة من النقد الحواري ومن المنهج الوصفي التحليلي ،منهجا ومعنيا في رحلة البحث عن اصول " النظرية البنيوية " ، لان من خصوصيات هذا المنهج النبش والحفر في الخلفيات المعرفية التي اهمت في ميلاد أي مشروع مهما كانت اصوله ،دون ان انسى البحث في المبادئ المنهجية للمنهج البنيوي طبعا .اذ لابد في محاولة للرد على سؤال البحث المركزي : ما هو المنهج البنيوي ؟ وماهي خطواته ومبادئه وقواعده ؟

ماهي اصوله المعرفية والفلسفية ،وما الذي حققته البنيوية في الفكر النقدي الحداثس المعاصر ؟

ويضم هذا البحث ثلاثة فصول ، الفصل الاول :جعلت له عنوانا هو : " الاصول اللسانية للبنيوية " ،وفيه تعرضت بالبحث والتحليل لقسمين او فرعين :الاول ،قدمت فيه عرضا تحليليا المفهوم " البنية و" البنيوية " ،في محاولة للتعريف بهما ،على الرغم من كونهما من اصعب المفاهيم التي يمكن اعطاء هما تعريفا شاملا او موحدا ،مع ابرازما يتمتع به المصطلح من خصائص ومميزات ،اضافة الى ذلك فقد قمت بتحديد بعض المفاهيم البنيوية كالنسق والتزامن والتعاقب ، لا نتقل الى توضيح نقطة جوهرية تمثلت في العلاقة بين البنيوية والتاريخ ،مع ابراز المظاهر التعارض بينهما ،ثم انتقلت الى الحديث عن اشهر مؤسسي البنيوية ،وهم اعلام متعددو التخصصات كانوا قد اسهموا في بلورة البنيوية وتحديد مبادئها ومرتكزاتها .

اما القسم الثاني فقد تناولت فيه نشاة اللسانيات البنيوية عند مؤسسها الفعلي فرديناند دي سوسير ،من خلال التعرف بداية على اهم الدراسات اللسانية في مرحلة ماقبل البنيوية ،بدءا من القرن الثامن عشر الى غاية القرن العشرين ،محاولة مني لتحديد معالم الخليفية المعرفية والمنطلقات التصورية والمنهجية التي قام عليها التفكير اللساني البنيوي ،ثم قمت بعدها بشرح مفايهم اللسانيات البنيوية بشيئ من التفصيل ،مثل المفايم الثنائية لدى سوسير ،و وفكرة النموذج اللساني ، والسيميائية ... نظرا لاهميتها بوصفها الاساس الذي قامت عليه جل مفاهيم الدرس اللساني الحديث .

الفصل الثاني عنوانه : " المدارس اللسانية الاوروبية والامريكية " ، وفيه استعرضت بشيئ من التفصيل – ابرز واشهر النظريات والمفاهيم اللسانية البنيوة نومن اجل الوصول الى حقيقة الدرس اللساني الحديث ، ومن اجل استعراض الابعاد التصورية والاوصل النظرية للمنهج اللساني البنيوي ،وقد استغرق ذلك قسمين :

الاول : تناولت فيه بالتفصيل اهم المدارس اللسانية التي ظهرت باوروبا – وليس كلها – في القرن العشرين ، كمدرسة جنيف التي ارسى قواعدها دي سوسير ،ومدرسة براغ التي اسسها فيلام ما تيسوس (Vilem Mathesius) ، ومدرسة كوبنها عن التي وضع اسسها لةيس هلمسيلف (Lovis Hjelmslev) وبروندال (H.Juldall) ،مع اشارة موجزة لبعض النظريات او المدارس اللسانية التي لم تنبثق من الاتجاه البنيوي بشكل مباشر مثل المدارس اللسانية الروسية ،كمدرسة قازان ،ومدرسة موسكر ،غير اني توقفت بشيئ من التحليل عند الحركة الشكلية الروسية ،نظرا لما احداثته هذه الحركة من تحول منهجي –في ميزان الدراسات الادبية واللغوية على السواء ،من حيث

الانتقال الى طابع العلمية والنسقية ، والاهتمام بالخصائص الشكلية للادب ... –كان احدى الاسباب المقضية لبروز المنهج البنيوي .

اما القسم الثاني من هذا الفصل ،فقد تناولت فيه اهم التيارات اللسانية الكبرى التي برزت في الولايات المتحدة الامريكية ،والمنتمية للسانيات البنيوية ،كالسانيات الانتروبولوجية ،اللسانيات السلوكية ،واللسانيات التوزيعية .

الفصل الثالث عنوانه : " الاصول الفلسفية للبنيوية " ،اردت لموضوع هذا الفصل ان يتجه في دراسة الاسس الفلسفية التي تمد المنهج البنيوي ، والتي كانت احد اهم الاسباب المفضية لبروزه ،ذلك انه وعلى الرغم من اعتبار البنيوية احد اهم المنجيات الاساسية التي تهضت على الجهود اللغوية الحديثة ،فان هذا الامتياز للسانيات الحديثة – ودورها في تزويد النيوية بالمصطلحات والاليات التي توسلت بها في مجال النقد الادبي – لاينسينا ابدا ،باي حال من الاحوال ،نكران المناخ الفكري والفلسفي ،الذي يكاد يكون المحضن الثقافي الذي نشات في كنفه البنيوية فكرة قبل ان يلفظها مولودا راسيا في القرن العشرين ،وقد ورد بيان هذا العمل وتفصيله عبر قسمين :

الاول : حاولت فيه وضع موازنه شبه نهائية بين البنيوية ن حيث هي منهج او مجموعة من المفاهيم والادوات الاجرائية التي يستعان بها لمعرفة خصائص قوانيين البناء المنوذجي الكامن وراء الطواهر الطبيعية ... –اومن حيث هي مذهب فكري او فلسفي عام – يتوخى مبدا الكلية والشمولية والنظر في ظواهر الوجود ... – فركزت بذلك على مبادئ المنهج البنيوي وقواعده وخطواته وعلاقته بمختلف العلوم الطبيعية والانسانية وتعرضت بالبحث لاصول البنيوية الفلسفية في محاولة للاجابة عن السؤال المركزي :هل البنيوية منهج ام مذهب ؟ كما قمت بالبحث عن البعد الفلسفي في مركز ليفي شراوس باعتباره احد اشهر مؤسسي البنيوية ،بل توصلت الى استعراض لنزعة الكانطية عنده وكان غرضي من هذا العمل النقدي هو الوقوف على المقدمات والممهدات الاساسية التي كانت تقف وراء ظهور البنيوية .

وفي القسم الثاني من هذا الفصل ، تم التعرض بالبحث والتحليل عن الاسباب الحقيقية والخلفيات الفلسفية العميقة التي دفعت البنيوية الى اصدار احكامها بحق الانسان والتاريخ والعلم والفلسفية ،وذلك بوضع المبادئ التي تركز عليها على محل النقد الموضوعي م دون اصدار احكام قطيعة تتعلق بالاصول الفلسفية للبنوية ،وانما بهدف اثارة النقاش وفتح باب التساؤلات التي اعتبرتها – في

الوقت نفسه – محطات بحث رئيسة ،والتي تتعلق كلها بالمسائل التي طرحتها البنيوية من الوجهة المعرفية والمنهجية ،باعتبارها احد اهم مشاريع الحداثة الغربية .

هذه هي الموضوعات التي حاولت دراستها والتعرف عليها بالتفصيل خلال فصل البحث المختلفة بعد فانا لا دادعي الابراع والابتكار ،فقد جمعت ما تفرق في الكتب ، وعلقت عليه بدوري ، في محاولتي التقرب من قضية البنيوية ، وذلك من خلال قراءتها وتقديمها بالوجه الذي ارتضيه لهذه القراءة ، دون ان يكون في ذلك ادعاء بامتلاك الاجابة الشافية القارة ... ولقد توصلت الى نتائج ربما ذكرت قبلي ، ولا انفي ان يكون فيها من النقص ماغفلت عنه او عجزت عن استدراكه ولكني اجتهدت وحاولت لاصل الى هذا العمل المتواضع ، الذي ابتغيت من وراء افادة زملائي الطلبة ، وازالة الضموض الذي سيطر على عقولنا حول المنهج البنيوي من جهة ومحاولة استكناه الجذور الفلسفية التي تقف وراء الاتجاهات النهدية من جهة اخرى ، كما لا يفوتني ان اعبر عن شكري وامتناني لكل من قدم لي يد العون والمساعدة من اجل انجاز هذا البحث ، واخراجه على هذه الصورة التي اود ان تنال اعجاب القارئين واهتمامهم .

والله وحده ولي التوفيق .

تيارت في 29 ديسمبر 2006

لزرق جازية

المنشـأ اللسانــي للبنيويــة

أصبح من التقليدي اعتبار فرديناند دي سوسير أب اللسانيات الحقيقي ، لأنه وضح اختصاصها ومناهجها وحدودها ، وبفضله اكتسبت الدراسة اللغوية مرتبة العلوم ، وصارت باعثا لنهضة علمية تولد عنها علوم ومناهج جديدة ، فالأفكار العلمية التي جاء بها دي سوسير في مجال البحث اللساني كانت محط اهتمام العديد من المفكرين والعلماء من مختلف القطاعات ، فعلماء اللغة وعلماء الأنتروبولوجيا وعلماء التحليل النفسي ... كلهم استفادوا من أفكار دي سوسير الثورية أيما استفادة ، وأخذوا منه الشيء الكثير ، بل وبذلوا جهودهم في مناقشة أفكاره لينحازوا إليها موافقين وليعدلوا ويصححوا ويرفضوا ... غير أن هذا ما يقودنا إلى البحث والتساؤل عن حالة أو وضعية الدراسات اللغوية قبل مجيء دي سوسير ، الذي كان له تأثير عظيم لا يدانيه تأثير في تكوين وبلورة وتطوير نظرية علم اللغة الحديث ، فأين يكمن هذا التأثير يا ترى ؟ أو بالأحرى ما هي أبعاده ؟ وفيما تكمن الثورة اللسانية التي حققها دي سوسير ؟

1- لمحة تاريخية عن الدراسات اللسانية في مرحلة ما قبل البنيوية :

لا جدال في أن بداية اللسانيات بوصفها علما حديثا ترجع إلى القرن التاسع عشر ، لأنه شهد ثلاثة منعطفات كبرى في مسيرة هذا العلم هي : اكتشاف اللغة السنسكريتية ،وظهور القواعد المقارنة ،ونشوء علم اللغة التاريخي [01] .

ولا يخفى على أحد أن الدرسات اللغوية بعامة قد اختلفت من حيث المنهج والموضوع في هذه المرحلة – أي مرحلة العصر الحديث – عما كانت عليه من قبل ، فلم يعد اهتمام نحاة هذه المرحلة متوقفا على كتابة قواعد اللغات الأوربية المتنامية ، بل تعداه إلى دراسة بعض اللغات الشرقية والإفريقية وابتكار لغات عالمية والاهتمام بالدراسات الصوتية ، وإصلاح أنظمة الكتابة ... كل هذه الاهتمامات ميزت هذه المرحلة أيما تميز ومهدت السبيل إلى ما يعرف بالدراسات المقارنة واللسانيات التاريخية في القرن التاسع عشر .

غير أن هذا لا ينسيني الذكر بأن القرن الثامن عشر يعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ

---

[01] أحمد محمد قدور ، " مبادئ اللسانيات " ، دار الفكر ، ط02 ، سوريا ، 1999 ، ص : 13.

الدراسات اللغوية ، لأنه وبعد اتساع نطاق هذه الدراسات في مرحلة النهضة (The Renaissanc[*])

نتيجة عدة عوامل منها : حركة الإحياء للتراث اليوناني والروماني ، والحركات الوطنية ، ورحلات الكشوف الجغرافية التي وصلت الأوروبيين بلغات كثيرة ، وحركة التبشير المسيحي التي صحبت الكشوف الجغرافية .... فكل هذه الحركات الكشفية والاستعمارية والإرساليات التبشيرية كانت قد وصلت أوربا بالأمم الأخرى أيما اتصال ، وصاحب ذلك اهتمام متزايد باللهجات العامية والمتكلمة في أوربا بعد أن قل الاهتمام باللغة اللاتينية وأخذت المطابع تخرج كتبا كثيرة مكتوبة باللغات الأوربية الحديثة كما ظهر الاهتمام بدراسة اللغات الشرقية والآرية نظرا لما تحمله من تراث عريق خلال هذا العصر ولما تتمتع به من مكانة مرموقة في نظر المستشرقين[01] .

وفي نهاية القرن الثامن عشر تم اكتشاف اللغة السنسكريتية – وهي اللغة الكلاسيكية للهند – واكتشاف علاقاتها المؤكدة باللغات الأساسية في أوروبا – ولاسيما اللغتين اللاتينية واليونانية - وقد تم هذا الاكتشاف على يد **سير وليم جونز** (S.W .JONES) عام 1786 – حيث كان يعمل قاضيا في كالكوتا بالهند – وكما يقول **جورج مونان** : « هو الذي أهدى السنسكريتية إلى أوروبا ، وطرح المسألة طرحا مباشرا في البحث الذي قدمه للجمعية الأسيوية التي أسسها في البنغال بقوله : إن للغة السنسكريتية مهما كان قدمها بنية رائعة أكمل من الإغريقية وأغنى من اللاتينية ،وهي تنم عن ثقافة أرقى من ثقافة هاتين اللغتين .

---

[*] مصطلح النهضة هو مفهوم أوربي محض ،يعني لغويا الانبعاث أو الولادة ، ويدل في الاصطلاح على تلك الفترة الانتقالية التي حدثت في أوروبا بين العصور الوسطى والعصر الحديث ، أي منذ القرن الرابع عشر إلى القرن السابع عشر (ينظر أحمد مومن ،" اللسانيات – النشأة والتطور - " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، (د-ط) ، الجزائر ، 2002 ، ص : 46).

ومن الملاحظ أن مصطلح النهضة – والذي يعني إعادة الحياة – يطلق على الفترة التاريخية الأوروبية التي خلفت العصور الوسطى ، أين تم إيقاظ روح جديدة استجابة للنداء العقلاني والفني السمة البارزة لهذه الظاهرة السياسية والدينية والفلسفية التي تجلت كمجرد إحياء لروح اليونان وروما بشكل رئيسي (ينظر تاريخ الأدب الغربي ، تأليف : نخبة من الأساتذة المختصين دار طلاس للدراسات و الترجمة والنشر ، ج1 ، (د –ط) ، سوريا ، (د- ت- ن) ، ص : 237).

[01] ينظر جورج مونان ،" تاريخ علم اللغة (منذ نشأتها حتى القرن العشرين) " ، تر : بدر الدين القاسم ، مطبعة جامعة دمشق للنشر ، (د – ط) ، سوريا ، 1972 ، ص : 118 وما بعدها . و محمود السعران ، " علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، (د – ط) ، بيروت – لبنان ، (د – ت- ن) ، ص : 328 وما بعدها .

لكنها مع ذلك تتصل بهما بصلة وثيقة من القرابة سواء من ناحية جذور الأفعال أم من ناحية الصيغ النحوية ، حتى لا يمكننا أن نعزو هذه القرابة إلى مجرد الصدفة . و لا يسع أي لغوي بعد تفحصه هذه اللغات الثلاث إلا أن يعترف بأنها تتفرع من أصل مشترك زال من الوجود ..... »[02].

وأعتقد أن أهم ما يميز القرن الثامن عشر هو ظهور الفيلولوجيا (Philologie) والتي «تعني تحقيق النصوص وفك رموز النقوش وإعدادها للنشر العلمي »[03]. بمعنى أنها كانت تتخذ من اللغة وسيلة وليس غاية في ذاتها ، باعتبارها تهدف إلى شرح النصوص القديمة وتفسير محتواها لمعرفة قضايا أخرى خارجة عن بنية اللغة المعينة « لذلك لم تتعد هذه الدراسة حدود العمل التمهيدي اللازم لدراسة اللغة . لكن الأمر لم يخل من خلط في المصطلحات ، إذ استعمل مصطلح الفيلولوجيا مرادفا لعلم اللغة أو اللسانيات »[04] .

ويعتبر العلامة الألماني **فردريك أوغست ولف** (F .A.Wolf) أول من استعمل مصطلح (Philologie) استعمالا علميا دقيقا . وابتكر سنة 1777 الدراسة النقدية المقارنة للنصوص القديمة [05]. وكانت غاية هذا الاتجاه إعادة بناء النصوص الأصلية وتفسيرها ، أي أن فردريك ولف لم يمارس الدراسات اللغوية لفائدة اللغة نفسها ، ولكن لفائدة النصوص . إضافة إلى أن هذه الدراسة كانت قائمة على النصوص المكتوبة أما اللغة الملفوظة فلم تكن تصب في اهتماماته .

و من جهة أخرى فقد ظهر نتيجة تطور الأسلوب المقارن في الدراسات اللغوية ، والذي اعتمد في طرقه العلمية على رصد التطور التاريخي ، أسلوب جديد لم يعد يهتم بإثبات القرابة بين اللغات بل يهتم بمعرفة جميع التطورات اللفظية في لغة ما من خلال مجموع تاريخها ، و هذا يعني أن بحوث الفيلولوجيا المقارنة أو اللسانيات المقارنة [*] التي استمرت حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر كانـــــــت قد « مهدت السبيل أمام بحوث علم اللغة التاريخي ، فانتقل العلماء من الموازنة بين اللغات الهند أوروبية إلى الموازنة بين مظاهر كل لغة في مراحلها المختلفة ، و من البحث في تفرع هذه اللغات بعضها عن بعـض و تفرعها من أصل واحد إلى البحث في الطريقة

---

(02) جورج مونان ،" تاريخ علم اللغة (منذ نشأتها حتى القرن العشرين) " ، ص :162 -163 .

(03) أحمد محمد قدور ، " مبادئ اللسانيات " ، ص : 05.

(04) المرجع نفسه ، ص: 05 .

(05) ينظر أحمد مختار عمر ، " محاضرات في علم اللغة الحديث " ، عالم الكتب ، ط (01) ، مصر ، 1995 ، ص: 14

ومحمود السعران ، " علـم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ، ص :331 .

(*) اللسانيات المقارنة (linguistique comparative) كان يطلـــــــق عليها أيضا اسم الفيلولوجـــيا المـــــقارنة (Philologie comparative)

التي تسلكها كل لغة منها على حدتها في التطور »[01]. فثمة تلازم بين علم اللغة التاريخي و علم اللغة المقارن ، و فوق هذا و ذاك فعلم اللغة التاريخي (linguistique historique) يهتم بدراسة اللغة الواحدة من خلال تطوراتها عبر الزمن لمعرفة تاريخها منذ العصور الأولى و أسباب تغيراتها الصوتية و النحوية و المعجـــمية و الدلالية .

و من أمثلة هذا المنحى دراسة أو تتبع تطور اللغة اللاتينية إلى اللغات الرومانية ، بمعنى تحول اللغة الرسمية (الفصحى) إلى لغات عالمية نتيجة لأغراض سياسية أو حربية توسعية ... أو تطور الأنجلوسكسونية إلى الإنجليزية الحديثة و هكذا ... و من الملاحظ أن من الباحثين « من يرفضون كلمة التطور في هذا الإطار باعتبارها تحمل دلالة الارتقاء ، أي تغير إلى الأفضل ، و هذا حكم تقويمي و هو غير ممكن في مجال التغير اللغوي . ليست هناك صيغة أفضل من صيغة ، و ليس هناك صوت أفضل من صوت . و لذا يفضل أكثر الباحثين المعاصرين وصف ما يحدث بأنه تغير. و ثمة فرق بين أن يقال بأن اللهجات نتيجة تغير لغوي أو أنها نتيجة تطور لغوي »[02].

أطلق دي سوسير على هذا النوع من الدراسة اسم اللسانيات التطورية (Linguistique Diachronique) مستلهما هذا المصطلح من اللغة اللاتينية (Diachronic Libguistic) (إذ السابقة Dia تعني عبر والجذر Crona يعني الزمن)[03].

وهكذا يكون المعنى الكامل هو : دراسة اللغة عبر الزمن ، أي دراسة اللغة عبر العصور المختلفة والأماكن المتعددة للوقوف على ما أصابها من تطور ومعرفة أسرار هذا التطور ، وقوانينه المختلفة . ومثال ذلك أن لغتنا العربية ذات تاريخ طويل متشعب ،وإذا أردنا دراستها من الناحية التاريخية فلا بد من دراسة عصورها المختلفة كل على حدى .

وهذا ما يعرف بالدراسة الوصفية أو الآنية – التي ركز عليها دي سوسير وأتباعه في أوائل القرن العشرين - « فالدراسة اللغوية التاريخية تمكننا من التغلب على حواجز الزمن من وجوه فهذه الدراسة هي اقتفاء أثر التطورات والتغيرات من النواحي الفونولوجية ، و النحوية ، والقاموسيـــة والدلالية الخ في لغة واحدة خلال التاريخ أي أنها دراسة تطور لغة من اللغات باعتبارها تطورا بين "

---

(01) أحمد مختار عمر ، " محاضرات في علم اللغة الحديث " ، ص : 14 .

(02) محمود فهمي حجازي ، " مدخل إلى علم اللغة " ، دار قباء للطباعة و النشر والتوزيع ، (د – ط) ، القاهرة مصر 1998 ، ص :23 .

(03) أحمد ممون ، " اللسانيات – النشأة و التطور -" ، ص :63 .

حالات لغوية" متتابعة ،ومن المسلم به أن هذه الحالات اللغوية قد درست قبلا دراسة وصفية ، والدراسة التاريخية تدرسها من الناحية الحركية التطورية » [01].

وعموما فإنه يمكنني القول بأن القرن التاسع عشر قد شهد تطورات علمية ضخمة ،كان لها أكبر الأثر على أنصار الدارسين في المجالات الأخرى و لاسيما علم اللغة (اللسانيات) ،هذا العلم الحديث الذي كثيرا ما استعان بغيره من العلوم ،بل وأثر في نشأة فروع علمية جديدة مثل : اللسانيات النفسية والاجتماعية والجغرافية وغيرها . وأهم ما يميز هذا القرن ما يلي :

1- ظهور المدرسة اللغوية الألمانية التي قامت باصطناع مناهج لدراسة اللغة أدق من المناهج السابقة وتم التفريق بذلك بين مصطلحين هامين في الدراسات اللغوية وهما :

* **مصطلح الفيلولوجيا (Philologie) :** وهو منوال إجرائي موضوعه النصوص القديمة ، والآثار التاريخية القديمة ،وتحقيق المخطوطات ،وبذلك فهو يعكف على دراسة الوثائق المكتوبة ويتخذ اللغة وسيلة وليس غاية في ذاتها .

* **مصطلح علم اللغة (linguistique) :** و هو الذي يتخذ اللغة موضوعا له [02] .

2- تميز لغويو القرن التاسع عشر بمعاملة اللغات على أنها نوع من الأعضاء الطبيعية تقف على قدم المساواة مع الحيوانات و النباتات . قال **بوت** (POTT) (سنة 1827) : « يجب أن نعامل اللغات كأجسام عضوية مشكلة أو مصوغة بقوانين محدثة نعمل في نفسها العنصر أو الأس الداخلي للحياة ، فإنها تتطور و تموت بالتدريج و بعد فترة قصيرة تدرك نفسها أو ترفض أن يصيبها ضرر ، ليس في مكوناتها أو صيغها التي تشكل مميزاتها الأصلية و هي التي أصحت بالتدريج روابط سطحية نسبية » [01]

و بمثل ذلك يقول **بوت** بعد عدة سنوات : « إن اللغة تكون في حالة تغير مطرد في حياتها ، مثل أي شيء عضوي ، إن لها مراحلها من التكوين و النضج ، أو زمنيتها أو مراحلها من النمـــــــو السريع و البطيء ، و مرحلة التطور التصوري والتحلل و الفناء التدريجي ... » [02] .

---

[01] محمود السعران ، " علـم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) ، ص: 244 ،245 .

[02] يقول فردينان دي سوسير : " موضـــوع علم اللغة الوحـــيد و الصحيح هو اللغة معتبرة في ذاتها و من أجل ذاتها " Ferdinand de Saussure "cours de linguistique général " , édition critique préparée par Tulio De Mauro , Payot ; Paris , P: 317

[01] جيفري سامبسون ، " المدارس اللغوية - التطور والصراع - " ، تر : أحمد نعيم الكراعين ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع ، ط(1 0) ، لبنان ، 1993 ، ص :17 .

[02] المرجع نفسه ، ص :18 .

و ما أمكنني فهمه أو ملاحظته من أقوال العلامة الألماني أوجست بوت (August pott) هو أنه بإمكان اللغات أن تنتظم في أسر لغوية ، كما تنظم الكائنات الحية في أسر و أصول واحدة ، و هذا تماشيا مع النظرية البيولوجيا للتطور - و التي شاعت في هذا القرن و تأثر بها العديد من اللغويين و على رأسهم الباحث الألماني **أوغست شلايشر** (August Schleicher) (1821-1868) أحد الأخصائيين البارزين في العلوم البيووجيا و اللسانية– ففي نفس الوقت الذي ظهر فيه كتاب "الأصل و الأنواع "

لداروين (Charles Darwin) (1809،1882) ظهرت نظرية شجرة العائلة للتطور اللغوي و ذلك سنة 1861على يد شلايشر ، الذي تأثر بأعمال داروين .

و حاول أن يضع نظرية تطورية جديدة في الدراسات اللغوية معتبرا اللغات كائنات حية طبيعية مثـــلها في ذلك مثل جميـــــــع النـــباتات و الحيوانات تنحدر من أصل واحد ثم تتفرع إلى فصائل متعددة كما لم يقتصر تأثير نظرية داروين في التطور على الدراسات اللغوية فحسب ، بل « أثرت في مناهج كثير من العلوم ، أو أثرت في مناهج العلوم و الفلسفة جميعا ، و كانت عند ظهورها بدعة العصر . تأثر بها علماء اللغة كما تأثر بها ســـواهم و رأوا فيها – كما رأى غيرهم – حلا لكثير من مشكلاتهم ، فظهرت حوالي سنة 1870 مناهج جديدة للبحث في اللغة على أساس فلسفة جديدة أو تصورات عامة جديدة ، هي أن طبيعة " التغيرات اللغوية "نفس طبيعة التغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي ، لا سيما عالم الحيوان والنباتات و هكذا قال بعض علماء اللغة ما يعرض للغات من تغير إنما هو بفعل " قوانين عمياء " » [(03)] .

3 - لقد تأثر الأسلوب المقارن في القرن التاسع عشر بعلم التشريح ، وعلم المستحاثات المقارن ، ولم يكن تأثير اللغويين عصرئذ بالأسلوب المقارن في العلوم الطبيعية أمرا عارضا ، إنما كان مقصودا منذ البداية فشليجل الذي دعا إلى ضرورة إيجاد القواعد المقارنة من خلال إلحاحه على القول بأن اللغة الهندية قد تكونت " تكوينا عضويا " .

و أنه يحق لنا أن نقارن تكوينها " بتكوين نسيج عضـوي " أو " نسيج حي "، فقد صرح بأن ذلك " سيتم بالوسيلة نفسها التي يتوسل بها علم التشريح في إلقائه ضوءا ساطعا على الحلقات الأولى من الكائنات " [(01)]

---

(03) محمود السعران ، " علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي " ، ص: 335 .

(01) جورج مونان ، " تاريخ علم اللغة – منذ نشأتها حتى القرن العشرين " ، ص :165 .

و ما يلاحظ هو تأثر أنصار المذهب المقارن بالألفاظ و المصطلحات الشائعة في البحوث الطبيعية مثل : (الرشيم)، و الجذور (العقيمة)، و الجذور(المثمرة) ، و (حياة) الألفاظ و(النسيـــج الحي) و غيرها . و قد استمر تأثر اللغويين بهذه الألفاظ و المفردات لأكثر من قرن من الزمن .

4- من ثمرة الجهود المثمرة التي تمت خلال هذا القرن هي دراسة الأصوات و تطورها ، و ذلك بما تحقق من دراسة الألماني **جاكوب جريم** و قوانينه الصوتية - كما سبق و أن ذكرت - و ظهور علم الأصوات التشريحي على يد موللر (Muller)، و قد تهيأ لهؤلاء العلماء أن ينتهوا إلى طريقة في الأصوات تغير الحروف اللاتينية ، كما تم استخدام الآلات و الأجهزة الميكانيكية في دراسة الأصوات « و أول من فعل ذلك الأستاذ روسلو (Rousselot) عام 1890 ، الذي أطلق على البحوث القائمة على هذه الطريقة اسم علم الأصوات التجريبي » [02] .

5- شهد القرن التاسع عشر – أيضا- تأسيس الجمعية اللغوية الباريسية عام 1866 ذات النشاط الملحوظ في الدراسات اللغوية .

6- ظهور علم اللغة العام ، و قد كتب فيه ماكس موللر " محاضرات في علم اللغة الحديث " ونشرها سنة 1861، كما كتب اللغوي الأمريكي وليام ويتني (william whitny) " اللغـــــة و دراستهـا " و " حياة اللغة و نموها " ، و إن كان قد جنح – في البداية - إلى إتباع مذهب داروين في التطور معتبرا اللغة من الكائنات الطبيعية التي يعرض لها التطور ، إلا أن **و يتني** قد قدم معلومات لسانية هامة تأثر بها العديد من اللغويين الأوربيين و الأمريكيين - و من بينهم **دي سوسيير** -

حيث يعتبر **ويتني** « أول من حاول تحديد موضوع علم اللسان بحصره هذا المضمون في المظهر اللغوي المحض و هو الوضع و البنية والصورة أما غير هذا المظهر فليس عنده من اختصاص اللغوي بل من اختصاص الفيزيائي " علم الصوت " ، والفيزيولوجي " علم وظائف الأعضاء " والنفساني " علم النفس اللغوي الآن " والفيلولوجي " دراسة النصوص القديمة " والاثنولوجي " دراسة خصائص الشعوب والجماعات "» [03] .

وبذلك فقد قدم ويتني إسهامات لسانية هامة تجاوز بها معاصرية ، و هيأ بها لمبادئ اللسانيات البنيوية الأمريكية والأوروبية على السواء . ومن هذه الإسهامات :

- قوله بالتواضع اللغوي و أن اللغة نتيجة لإجتماع و العمران :

---

(02) أحمد مختار عمر ، " محاضرات في علم اللغة الحديث " ، ص :16 .

(03) عبد الرحمن الحاج صالح ، " اللسانيات " ، المجلد الثاني ، رقم (01) ، ص : 28 .

●تفسيره للغة بأنها عمل آلي فهو يرى أن الألفاظ بالنسبة إلى ذهن الإنسان ، كالأدوات بالنسبة إلى يديه ولذلك فهي ليست قوة من قوى النفس و لا هي فعل الفكر المباشر بل أثر غير مباشر للفكر : إنها آلة .

● نظرته للغة على أنها نظام (Système) من الأصوات ذو مضمون عقلي ، وبأنها تشبه بذلك – أي بكونها نظاما – الأجسام المنتظمة الأجزاء ذوات البنية (Structure)المعنية .

●قوله – تناقضا مع مقولات شلايشر وماكس موللر – بأن اللغة ليست واقعة طبيعية وصفية بيولوجية إنسانية بل هي واقعة اجتماعية ، أو هي أشبه ما تكون بمؤسسة اجتماعية كأي مؤسسة أخرى و أن ما يشير إلى الطبيعة فيها وهو الصوت ليس له وظيفة لسانية محضة بدليل أن استخدامنا الجهاز الصوتي وسيلة للغة إنما يرجع ، إلى الصدفة و لأسباب تسهيلية فحسب .

7- محاولة تخليص اللغة من جميع الظواهر الفلسفية أو الميتافيزيقية ، وإخضاعها – بالتالي – لمنهج البحث العلمي ، وجعل غاياتها الأساسية الوصول إلى كشف القوانين التي تخضع لها الظواهر اللغوية . ومن أولى الخطوات في هذا المجال انصراف الباحثين عن مناقشة موضوع نشأة اللغة .

8- وقد ظهر في أمريكا – إلى جانب الدراسات اللغوية العامة – أبحاث متعلقة بالدراسات الأنتربولوجية وبخاصة تلك التي تتناول الهنود الأمريكيين [(01)] .

كانت هذه معظم أو أبرز مميزات القرن التاسع عشر من خلال ثمرة الجهود التي تمت من طرف لغوي أو علماء هذا العصر ، لكن هذا لا ينسيني الذكر بأن اللسانيات التاريخية Linguistique) (Historique التي بلغت أوجها خلال هذا القرن ، قد تم التخلي عنها – ولو تدريجيا- خلال القرن العشرين حيث بدأ اللسانيون يعزفون شيئا فشيئا عن هذا اللون من الدراسات اللغوية ورأوا أنه إذا كان هناك حقا منهج قويم لدراسة اللغة فلا يمكن أن يكون المنهج التاريخي ، كما بدأ العلماء في نهاية القرن التاسع عشر يتخلصون من طغيان نظرية التطور ، و أنكر بعضهم أن تكون التغيرات اللغوية مماثلة للتغيرات التي تحدث في العالم الطبيعي

و أخذ اللغويون ينظرون إلى اللغة على أنها (بنية) أو (النظام) ... وكان أول من أحدث القطيعة هو اللغوي السويسري فردينان دي سوسير الذي فرق في دراسة اللغة بين المسار الزمني التطوري والمسار التزامني الآني الذي يهدف إلى معرفة نظام اللغة الداخلي ونسق العلاقات بين عناصرها بما يجعلها بنية واحدة مهما اختلفت أساليب الكلام . ولم يكن وحده في هذا المجال بل سبقه إليه لغويون آخرين – و إن لم يتناولوا هذا المنهج بدراسة أشمل و وأوفى مما فعله دي سوسير –

---

(01) أحمد مختار عمر ،" محاضرات في علم اللغة الحديث " ، ص :16 .

ومنهم اللغوي السويسري **أنطوان مارتي** (Anton Marty) (1847- 1914) على حد قول جورج مونان : « ولم يرتفع ضد هذه النزعة التاريخية إلا صوت واحد للمطالبة بضرورة قيام علم لغوي وصفي و متواقت ، هو صوت السويسري أنطوان مارتي الذي لم يلقى أذان صاغية ، وقد تساءلوا أحيانا فيما لوا تناهى هذا الصوت إلى مسامع سوسير »[02] .

ولو عدنا أدراج التاريخ قليلا لوجدنا أن نحو الهنود القدامى للغتهم كان نحوا وصفيا من الطراز الأول ، فهو نحو لا يقوم على أسس من الفلسفة والمنطق كنحو اليونان لليونانية ،ونحو تلامذتهم المخلصين للغة الرومانية وبذلك يكون الهنود والعرب وغيرهم قد سبقوا دي سوسير – وبقرون طويلة – في استخدام المنهج الوصفي في دراستهم اللغوية .

ما أمكنني ملاحظته أيضا أن اللسانيات التاريخية لم تزول نهائيا خلال القرن العشرين بل مازال لها أنصار ومؤيدين في كل من أوروبا وأمريكا ، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : بلومفيد ، سابير باك (Back)، كانت (Kent) ... في أمريكا ، و ميي (Meillet) ، وبوكورني (Pokorney) بنفنيست (Benveniste) وروهلز (Rohlez) ، ومارتينه (Martinet)... في أوروبا ، حتى أن دي سوسير كان واحد من اللسانيين الذين قدموا خدمات جليلة للسانيات تاريخية قبل خدمته اللسانيات الوصفية (الآنية) في القرن العشرين : ومن أهم دراسته في هذا المجال ما كتبه من بحوث مقارنة في رسالتين عن أحرف العلة في اللغات الهندية الأوربية ،وعن حالة الجر المطلق في اللغة السنسكريتية وذلك في السنوات 1878 و 1881 على التوالي . « وترجع أهمية هذه الدراسة إلى أمرين أساسيين :

أ- اعتماد المنهج البنيوي في البحث / ب – إتباع مناهج البحث النظري المحض » [01] .

كما أنه قد شغل كرسي التاريخ المقارن للغات الهندوأوروبية في جامعة جنيف من 1890 إلى غاية 1896 .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن انطلاقة سوسير الحاسمة في ميدان الدرسات اللغوية لم تنشأ من العدم وإنما جاء نتيجة ما تولد عن أجواء القرون السابقة – و لاسيما القرن التاسع عشر – من تراكمات معرفية استطاع سوسير أن يحسن استغلالها عن طريق حسن قراءتها وفهم أبعادها ، وأضاف إليها من فكره وجهده الخاص ، وهذا ما مكنه من بناء صرح علم اللسانيات الحديث .

2- تعريف باللسانيات (مادتها ، مهمتها ، موضوعها)

---

(02) جورج مونان ، " تاريخ علم اللغة (منذ نشأتها حتى القرن العشرين) " ، ص:217.

(01) أحمد مومن ،" اللسانيات (النشأة والتطور) " ، ص: 92 .

تعتبر اللسانيات [*] . من العلوم الحديثة التي لا تزال في أوج تطورها ، وقد تخلصت ببطء من التعاليم النحوية ومن بحوث الفيلولوجيا ، والتفكير الفلسفي حول أسس المعرفة ، وحول العلاقات بين الفكر ووسائل التعبير عنه وهي من الناحية اللغوية مصطلح مركب من : لسان / يات فاللسان هو « العنصر المعروف داخل الفم ، بين الفكين ، وهو أداة رئيسية في آلة النطق وتأليف مخارج الحروف »[(02)] .

أما اللسن فيعني اللغة « يقال : كل قوم لسن ، أي لغة » [(01)] ، فإذا كان اللسان كذلك ، ويات لاحقة تعني علم فإن اللسانيات علم يعنى بدراسة الظواهر اللغوية .

وأما من الناحية الاصطلاحية ، فقد عرف أندريه مارتينه (André Martinet) اللسانيات بقـــــوله : « اللسانيات هي الدراسة العلمية للغة الإنسانية ، يقال لدراسة بأنها دراسة علمية عندما تقوم على مراقبة الوقائع وتمتنع عن اختيار من بين هذه الوقائع باسم بعض المبادئ الجمالية أو الأخلاقية »[(02)] . ويحدد فردينان دي سوسير مادة اللسانيات قائلا : « إن مادة اللسانيات تشمل كل مظاهر اللسان البشري سواء أتعلق الأمر بالشعوب البدائية أم الحضارية ، أو بالعصور القديمة أو بعصور الانحطاط »[(03)] .

ما لاحظته من خلال هذين التعريفين أنه أول ما يطلب من الدراسة اللغوية أن تكون موضوعية وليست انطباعية ذاتية ، ذلك أن اللغة التي يدرسها علم اللغة الحديث (اللسانيات) ليست لغة معينة من اللغات مثل : اللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية ... « و إنما هي اللغة التي تتحقق في أشكال لغات كثيرة ولهجات متعددة وصور مختلفة من صور الكلام الإنساني ... »[(04)].

وهذا يعني أن وجود اللغة يشترط وجود مجتمع . وهنا يتضح الطابع الاجتماعي للغة ،فليس هناك نظام لغوي يمكن أن يوجد منفصلا عن جماعة إنسانية تستخدمه وتتعامل به ، فاللغة ليست هدفا في ذاتها و إنما هي وسيلة للتواصل بين أفراد الجماعة الإنسانية ، ولذا يسعى الدرس اللغوي الحديث إلى دراسة

---

[*] ظهر هذا اللفظ أول ما ظهر في ألمانيا (linguistic) لكن لفظ Sprach wissensehaft. هو أقدم منه وأكثر استعمالا) ثم استعمل في فرنسا ابتداءا من 1826 وفي انجلترا ابتداءا من 1855 (ينظر عبد الرحمن الحاج صالح، " اللسانيات " ص : 29)

[(02)] إميل يعقوب وميشال العاصي ، " المعجم المفصل في اللغة و الأدب " ، دار العلم الملايين ، (د – ط) ،بيروت – لبـــنان (د- ت- ن) ، ص : 1068 .

[(01)] ابن فارس ، " معجم مقاييس اللغة " ، تح : عبد السلام هارون ، مادة لسن ، بيروت – لبنان ، (د- ت- ن) .

[(02)] André Martinet , " Elément de linguistique générale " , Armand Colin , Paris , 1970 , P: 06

[(03)] Ferdinand de Saussure , " Cours de linguistique générale " , P: 20

[(04)] محمود السعران ، " علم اللغة – مقدمة للقارئ العربي " ، ص :49.

اللغة دراسة علمية « ونعني بالدراسة العلمية البحث الذي يستخدم الأسلوب العلمي المعتمد على المقاييس التالية :

1. ملاحظة الظواهر اللغوية (التجريب والاستقراء المستمر).

2. بناء نظريات لسانية كلية من خلال وضع نماذج لسانية قابلة للتطوير .

3. ضبط النظريات اللسانية الكلية ثم ضبط الظواهر اللغوية التي تعمل عليها .

4. استعمال النماذج والعلائق الرياضية الحديثة (التحليل الرياضي الحديث للغة – الموضوعيـة المطلقة) » **(05)**.

5. وفيما يبدوا أنه – وحسب هذه المقاييس العلمية التي تقوم عليها الدراسة اللغوية الحديثة – يمكنني أن أفترض دون كبير جرأة بان اللسانيات بالنسبة للعلوم الإنسانية كلها تماما كالرياضيات بالنسبة للعلوم الطبيعية الدقيقة ، فاللغة بالنسبة لمناهجها وعلومها كالرياضيات بالنسبة للعلوم الطبيعية والتكنولوجية – على حد تعبير أستاذي الدكتور عبد الجليل مرتاض – لذا فقد أصبحت العلوم الإنسانية تستعين باللسانيات أيما استعانة لضبط نظرياتها ومناهجها .

وهكذا فإن اللسانيات الحديثة هي علم قائم برأسه ، ينبغي أن نتطلع إليه بجدية ووعي عميق . ولعل الموضوعية [*] (Objectivitéé) المنشودة في هذا العلم الرائد قد أدت إلى استقرار كثير من الحقائق وتكون كثير من المناهج مما أتاح اللغويين في مختلف أنحاء العالم و المتخصصين في مختلف اللغات درجة عالية من التعاون وتبادل الخبرة ومن ثم فعلم اللغة (أو اللسانيات) هو العلم الذي يدرس اللغة على منهج علمي ، وهو ينهض –بذلك على دعامتين : « نظرية لغوية (Linguistic Theory) ووصف لغوي (Linguistique Description) تقدم النظرية الإطار المعرفي العام عن اللغة وعن طبيعتها ، ويقدم الوصف المعالجة العلمية لظواهر اللغة على مستوى الأصوات والصرف والنحو والدلالة »**(01)**.

---

(05) مازن الوعر ، " دراسات لسانية تطبيقية"، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط(01) ، سوريا ، 1989 ص:22.

(*) الموضوعية (Objectivisme) : " مذهب فلسفي يرى أن المعرفة إنما ترجع إلى حقيقة غير الذات المدركة " (ينظر مراد وهبة ، " المعجم الفلسفي " ، ص :437) ، ويعرفها الدكتور أحمد حساني قائلا : " الموضوعية : نسبة إلى الموضوعي وهو مشتق من الموضوع ، أي كل ما يوجد في الأعيان والعالم الخارجي في مقابل العالم الداخلي أو الذات ، والموضوعي هو كل ما تتساوى حالاته عند جميع الدارسين على الرغم من اختلاف الزوايا التي يتناولون من خلالها الموضوع ، ومن ههنا وجب أن تكون الحقائق العلمية مستقلة عن قائليها ، بعيدة عن التأثر بأهوائهم وميولهم ، فتتحقق في البحث العلمي الموضوعية والنزاهة . الفالموضوعية حينئذ هي : طريقة العقل الذي يتعامل مع الأشياء على ما هي عليه فلا يشوهها بنضرة ضيقة ، أو تحـــيز ذاتي (ينظر أحمد حساني ، " مباحث في اللسانيات " ، ديوان المطبوعات الجماعية ، ط (01)، الجزائر ، 1999 ، ص :15) .

(01) عبده الراجحي ، " علم اللغة التطبيقي وتعليم العربية " ، دار المعرفة الجامعية ، (د-ط) ،مصر ، 1992، ص: 07 .

وتتنوع طرائق الوصف اللغوي بتنوع الاتجاهات والمدارس . وعلى هذا الأساس فقد حدد دي سوسير **مهمة** اللسانيات في النقاط التالية :

1- تقديم وصف كامل لجميع اللغات وتاريخها ، ومن ثم سرد تاريخ الأسر اللغوية ، وإعادة بناء اللغة الأم لكل منها .

2- البحث عن القوى الكامنة و المؤثرة بطريقة مستمرة وشاملة في كافة اللغات ، ومن ثم استخلاص القوانين العامة التي تتحكم في كل الظواهر التاريخية الخاصة .

3- تحديد نفسها ، والتعريف بنفسها **(02)**.

يبدوا أن البداية الصحيحة لعلم اللغة الحديث – باعتباره منهجا جديدا يدرس اللغة على أساس علمي – قد مكنته من النمو الطبيعي في فترة زمنية قصيرة ، حيث أصبح خلالها **نموذجا** للكثير من العلوم الإنسانية ، وأصبح علما مستقلا له مبادؤه ونظرياته الخاصة ، ودليل ذلك تفرعه إلى العديد من العلوم اللغوية الفرعية مثل : علم اللغة التطبيقي ، والرياضي ، و البيولوجي ... بالإضافة إلى تفرعه إلى ثلاثة مناهج متمايزة : علم اللغة البنيوي وعلم اللغة التوليدي التحويلي وعلم اللغة التداولي ، وقد تكون هذه هي إحدى الأسباب التي يمكن أن تفسر بها تسمية دي سوسير لهذا العلم باللسانيات العامة Linguistique Générale)، حيث تبعه في هذه التسمية العديد من اللسانيين أمثال : مارتينه وبنفنيست وغيرهما .

وقد يكون هذا هو مغزى الدراسة اللسانية البنيوية التي تسعى إلى دراسة اللغة من داخل البنية اللغوية وليس ضمن إطار خارجي . وهذا نفس ما أكده دي سوسير عندما قال **بموضوع** اللسانيات ذلك « أنه دراسة اللغة في ذاته ومن أجل ذاتها » **(01)**.

وهو يعني بذلك الدراسة البنيوية للغة ، تلك الدراسة التي تقوم على الاهتمام ببنية اللغة وبتصنيف عناصرها وباستنباط العلاقات القائمة بينها وهذا ما يعرف بالمنظار الداخلي (أو الضيق) لدراسة اللغة ، لأن ثمة من العلماء من اهتم بدراسة اللغة من منظار خارجي مثل المنظار الرياضي المنطقي الذي اعتمده تشومسكي (Chomsky). وما يهمني في هذه الدراسة حقيقة هو أن دي سوسير قد حدد موضوع الدراسة اللسانية في نطاق دراسة اللغة كواقع قائم بذاته .

3- خصـــــائص اللسانيـــــات:

لا جدال في أن اللسانيات من العلوم الحديثة ، وأن البحث في اللغة في أوربا و أمريكا قبل القرن التاسع عشر كان بحثا ذاتيا (Subjective) (أو غير موضوعي) ، كما كان بحثا يقوم على التخمين والتأمل

---

(02) Ferdinand de Saussure , " Cours de Linguistique générale", P20.

(01) Ferdinand de Saussure , " Cours de Linguistique générale " ، P 317 .

العقلي وغير منهجي . ومن ثم فعلم اللغة لم يصل إلى هذا التطور – الذي تشهده اليوم – إلا عبر معارضته الواعية لخصائص المناهج التقليدية في الدراسات اللغوية خلال القرون الماضية . وهذا – تحديدا – ما جعل اللسانيات تختلف عن علوم اللغة عند الغربيين قبل القرن التاسع عشر في الكثير من الخصائص – ويرى جون ليونز (J.Lyons) [02] أن أهم هذه الخصائص ما يلي :

1- يتمتع منهج علم اللغة عن بقية المناهج العلمية الأخرى بالاستقلال Autonomie . وهذه الميزة نتيجة مباشرة للميزة العلمية التي تتمتع بها اللسانيات عامة ، ذلك أن النحو التقليدي – كأي شيء آخر في الثقافة الغربية – يتصل في كثير من جوانبه ومنذ بدايته بالفلسفة والنقد الأدبي منذ بدء ظهوره في القرن الخامس قبل الميلاد ، بل كان خاضعا لهما في كثير من الأحيان . وقد ساهم هذان الحقلان في تكوين المواقف والأسس التي تبناها العلماء في دراسة اللغة طيلة قرون عديدة .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه المواقف والأسس لا تزال حتى الآن واسعة الانتشار وراسخة في ثقافتنا لدرجة أنها تعتبر من المسلمات ، وعندما يطالب الباحث اللساني باستقلال موضوعه فإنما يطلب السماح له بتبني نظرة جديدة موضوعية هي اللغة دون التزام مسبق بالأفكار التقليدية ودون أن يتبنى وجهات نظر الفلاسفة أو النقاد أو من يمثلون العلوم الأخرى ، ولكن هذا لا يعني أنه لا توجد – أ ينبغي ألا توجد – صلة بين علم اللغة والعلوم الأخرى التي تهتم باللغة ، إذ الحقيقة أنه حديث هذا التقارب نتيجة التطوير المستقل للسانيات .

2- الاهتمام بأسبقية اللغة المنطوقة على اللغة المكتوبة ، على حين أن العلوم اللغوية التقليدية فعلت بالعكس فاللسانيين المحدثون ينطلقون من مسلمة مفادها أن الكلام يأتي في المرتبة الأولى ثم تليه الكتابة أضف إلى ذلك أن اللغات المعروفة لم تكن سوى كلام منطوق ، بل أكثر من هذا نجد أن الأطفال يتقنون الكلام قبل تعلمهم الكتابة .

3- تهتم اللسانيات باللهجات (اللغات العامية غير المعيارية) ولا تفضل الفصحى (اللغة المعيارية) على غيرها على النحو الذي كان سائدا من قبل ، فقد انحصر اهتمام النحويين التقليديين في دراسة اللغة الأدبية الكلاسيكية وكانوا يحتقرون اللغة العامية لاعتقادهم أنها غير صحيحة ، سواء في الكلام أو الكتابة ، وغاب عن أذهانهم أن ما يسمونه لغة فصحي هو من وجهة النظر التاريخية ليس إلا لهجة محلية أو اجتماعية معنية اكتسبت مكانة مرموقة ثم ارتبطت بالسياسة والثقافة والأدب ، فالفرق بين اللغة واللهجة غالبا ما يبني على أسس سياسية ، وحتى اليوم يميل العديد من الناس إلى الاعتقاد بأن

---

[02] ينظر جون ليونز ، " نظرية تشومسكي اللغوية " ، تر وتع : حلمي ، دار المعرفة الجامعية ، ط (02) ،مصر، ص: 39 وما بعدها .

اللغة الأدبية التي تدرس في المدارس هي التي تشكل موضوع الوصف العلمي ، في حين أن اللهجات على اختلافها وتعددها لا تقل أهميتها عن سواها من مستويات الاستخدام اللغوي وهي أيضا جديرة بالبحث والدراسة .

4- تسعى اللسانيات إلى بناء نظرية لسانية لها صفة العموم ، إذا يمكن على أساسها دراسة جميع اللغات الإنسانية ووصفها ، ذلك أن النحو التقليدي قد قام وطور وفق الأسس اللاتينية واليونانية وسخر في وصف ودراسة عدد كبير من اللغات الأخرى . ولكن ثمة لغات عديدة تختلف اختلافا شاسعا في بعض عناصرها على الأقل عن بنية اللاتينية واليونانية و اللغات المألوفة الأخرى في أوربا وأسيا . ولهذا فإن من أهداف اللسانيات الحديثة بناء نظرية لسانية أكثر من التقليدية بحيث تلاءم وصف جميع اللغات الإنسانية دون انحياز إلى تلك اللغات التي تشبه في تركيبها النحوي اليونانية واللاتينية .

5- لا تقيم اللسانيات وزنا إلى كل من يعتقد بوجود فوارق جوهرية بين اللغات المتحضرة ، واللغات البدائية لأنها جميعا جديرة بالدرس دونما تمييز أو انحياز مسبق . ذلك أن مفردات كل لغة تعكس دون شك مرافق الحياة لدى المجتمع الذي ينطق بها وهكذا لا يمكن الحكم على أية لغة بأنها فقيرة أو غنية بالمقارنة مع أي لغة أخرى بالمعنى المطلق ... أما الفروق النحوية التي نجدها بين اللغات المنتشرة في أنحاء العالم فلا يمكن ربطها بالتطور الحضاري للشعوب التي تتكلم بها .

6- تهتم اللسانيات بدراسة اللغة كاملة وعلى صعيد واحد ، ضمن تسلسل متدرج من الأصوات إلى الدلالة مرورا بالجوانب الصرفية والنحوية .

4- اللسانيــات البنيويــة لفردينان دي سوسيــر:

يعتبر فردينان دي سوسير رائد المدرسة الوصفية البنيوية الحديثة في أوروبا وأمريكا والبلاد العربية على السواء ، ولقد كان ظهور هذه المدرسة بمثابة ثورة على عالم الدراسات اللغوية ، بما فعلته من تغيرات جذرية على ساحة هذه المدرسة . ولعل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى كتاب دي سوسير القيم (محاضرات في اللسانيات العامة) ، والذي يعتبر من الكتب القيمة والنادرة والتي أحدثت ثورة علمية كبيرة لا تضاهيها أي قيمة أخرى ، فقد ساعد على تحديد مجرى لسانيات القرن العشرين والابتعاد بها كليا عن مناهج اللسانيات التاريخية وأحدث تغييرا هاما في نظرة الناس إلى اللغة حيث « كانت الدراسات الفيلولوجية والمنطقية قبل سوسير تنظر إلى اللغة كأداة لتسمية الأشياء أو كوسيلة تعبيرية فردية . وقد كبلت هذه النظرة اللغة وأفقرتها إلى مدى بعيد لكن سوسير استطاع بفحص هذه " الوسيلة

" أن يكتشف أنها في الدرجة الأولى ليست وسيلة ، بل هي نظام شكلي لا شعوري يعتمد على الفروق ، وليس على القيم الإيجابية الثابتة ، ولهذا فقد دعا إلى دراسة اللغة في ذاتها ولذاتها »[01].

وعلى هذا الأساس يعتبر دي سوسير مؤسسا لعصر بأكمله من الدرس اللساني ، ومؤسسا للسانيات الحديثة ذات المنحى البنيوي ، وإليه يرجع الفضل في ظهور علم اللغة الحديث كعلم مستقل له كيانه المتميز عن بقية العلوم الأخرى ، فقد استطاع هذا العم الذي ثبت أركانه ودعم قواعده أن يلج القضايا اللغوية المختلفة محللا إياها وفق منهجية ثابتة ودقيقة ، لكن قبل أن أتناول أسس الفكر اللغوي عند دي سوسير باعتباره مؤسس المدرسة البنيوية الحديثة رأيت أنه لزاما علي أن أتعرف – ولو باقتضاب – على الحياة الخاصة والأكاديمية لفردينان دي سوسير .

1/4- تعريف دي سوسير :

ولد فردينان دي سوسير في خريف سنة 1857 بجنيف من أسرة عريقة ، اشتهر أفرادها في العلوم الطبيعة والدقيقة ، تابع دراسته الأولى بمسقط رأسه في الرياضيات ، وكان يميل في الوقت نفسه إلى الدراسات اللغوية التقي بمعمله الأول أ . بكتيه (A.Pictet) الذي ألف في فترة مبكرة جدا بحثا يتناول أصول اللغات الهندو أوروبية سنة 1859 ، فشجعه و أخذ بيده ، وساعده على الممارسة العلمية في مجال الدراسات اللغوية .

وبعدما تلقي تعليمه الأول في جنيف ، انتقل دي سوسير إلى برلين وليبزنغ (في ألمانيا) لمزاولة دراساته ومكث هناك من 1876 إلى 1878 يدرس اللسانيات التاريخية والمقارنة ، وعلى الرغم من أنه تتلمذ على يد بعض النحاة الجدد كأوستوف (Osthoff) ولسكين (Leskein) . فإنه خالفهم في تصور هم العام و رفض نظرتهم الضيقة للسانيات . ومن عام 1880 إلى عام 1891 ، أقام بباريس وتولى خلال هذه المرحلة منصب

مدير الدراسات بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا ، وفي الوقت نفسه كان يحاضر هناك لمجموع الطلبة في اللسانيات التاريخية والمقارنة . وفي سنة 1891 عاد إلى جنيف والتحق بجامعتها حيث أنشئ له منصب كرسي التاريخ المقارن للغات الهندوأوروبية ، وظل يشغل هذا الكرسي إلى غاية سنة 1896، حيث توارى عن الأنظار بعد ذلك ، ودخل في عزلة تامة وانقطع عن الإنتاج .

ويبرر بعض الذين أرخوا له [01] له هذا الانقطاع إلى أنه يعود إلى مشاكل عويصه ومؤلمة في حياته النفسية والاجتماعية ، فانعكس ذلك على قدراته الفكرية وبعد إلحاح شديد من تلاميذه، عاد إلى

---

[01] عبد الله إبراهيم ، سعيد الغانمي ، عواد علي ، " معرفة الآخر – مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة " ، المركز الثقافي العربي ، ط (02) ، الدار البيضاء وبيروت ، 1996 ، ص :43.

التدريس في سنة 1907 ، حيث ظل يدرس مبادئه الجديدة في اللسانيات العامة إلى أن وافته المنية سنة 1913 دون أن ينجز مشروعه الذي ينوي القيام به ، وهو تسجيل أفكاره وملاحظاته التجريدية الثائرة في اللسانيات . وانتهى أجله سنة 1913 ، ومن دون أن يحقق رغبته . غير أن القدر كتب للسانيات التجريدية الشهرة بفضل اثنين من تلاميذه وهما : شارل بالي (Charles Bally) وألبار سيشهاي (Albert Sechehaye) ، حيث عمدا إلى جمع محاضراته في كتاب سموه : " محاضرات في اللسانيات العامة " ، وطبع الكتاب لأول مرة سنة 1916 ، وبدون منازع يعد فردينان دي سوسير الأب الروحي للسانيات الحديثة ، ومؤسس المنهج الآني (الوصفي) و أول منظر في كل من البنيوية (Structuralisme) ، والسيمائية (Sémiologie) .

2/4- أسس الفكر اللغوي عند دي سوسير :

لقد شهد القرن التاسع عشر – كما أوضحت سالفا – البداية الحقيقية لعلم اللغة التاريخي المقارن هذا العلم الذي ازدهر – و بخاصة - في الفترة الممتدة من المنتصف القرن التاسع عشر إلى منتصف الربع الأول من القرن العشرين و الذي تميز بالتناول العلمي للغة ، من حيث طبيعتها ووظيفتها و دراستها في التغير و قد أحدث ذلك تغير جهودا متلاحقة بذلها علماء الغرب لدراسة معظم لغات العالم وصفا و تاريخا و مقارنة ، للوصول إلى تحديد منهج الدراسة اللغوية ووسائلها و يأتي دي سوسير على رأس هؤلاء الباحثين ذلك أن منهجـــــه الدراسي يتفق مع منهج الدراسة التاريخية و المقارنة في مسألة الالتزام بمبدأ العلميـــــــة و الموضوعية ، غير أنه لم يقنع اقتناع من سبقوه بلم أو جمع المعطيات اللغوية ن لأنه يختلف معهم و بشكل جوهري في المبادئ و المفاهيم .

يقول الدكتور أحمد حساني : «إن القارئ المتأمل و المتفحص لذلك التراكم العلمي و المعرفي الذي يزخر به كتاب دي سوسير ، يدرك أن سوسير و إن كان في الظاهر قد أحدث قطيعة مع الفكر اللغوي السابق فإن قطيعته تلك ستظل في جوهرها المعرفي و الابستمولوجي استمرارية للفكر اللساني القديم ، إذ إن التحول المنهجي الذي كان يتوخاه دي سوسير يقتضي – حسب الضرورة المنهجية –عودة تقويمية للفكر اللغوي السابق قاصدا من وراء ذلك إلى تحديد الإطار الفكري و المعرفي للدراسة اللغوية

---

(01) حاول بعض اللسانيين تفسير هذا الانقطاع أذكر منهم : أنطون ميي الذي يرى أن دي سوسير كان يعاني من عقدة نقص شبه مرضية هيمنت على أعماله في جنيف خلال فترة انقطاعه وقد فسر هذه العقدة بوسواس الكمال الذي سيطر على باحث كان همه تقديم القضايا بشكل كامل ونهائي . وكذا بنفنيست ودومورو الذي يعتقدان أن دي سوسير قد انهار أمام إحساسه بعدم فهم الناس لأفكار الثورية التي ظهرت في كتابه محاضرات في اللسانيات العامة ، والتي حاول شرحها لأعز رفاقه بـــــين عامي 1906 و 1911 وهناك عدة تفسيرات أخرى أيضا (ينظر الطيب دبه :" مبادئ اللسانيات البنيوية " ، ص :54).

عبر الحقب الزمنية المختلفة» **(01).** و بذلك ، فقد عمد دي سوسير إلى تقسيم الدراسة اللغوية في الحضارة الإنسانية إلى ثلاث مراحل أساسية هي :

المرحلة الأولى : و تبدأ – في نظره –بما يسمى بالقواعد أو النحو (grammaire) ، و قد نشأت تلك الدراسة مع اليونان ، و سيطر عليها التفكير المنطقي ، الذي يخلو من أي نظرة علمية تتصل باللغة ذاتها لأنها كانت تهدف إلى وضع القواعد التي تميز بين الصواب و الخطأ حين استعمال الصيغ الإعرابية (ذلك سميت بالدراسة المعيارية(normative) ذلك لأنها لم تهتم بالملاحظة الفعلية للواقع اللغوي.

المرحلة الثانية :تتميز هذه المرحلة بظهور الفيلولوجيا (philologie) ، التي تهتم بالدراسة اللغوية للنصوص –عن طريق ضبط هذه النصوص و تأويلها و التعليق عليها –في ضوء بعض الأصول و التقاليد الحقيقية التي تعود إلى مدرسة الإسكندرية القديمة ، و لكنها ارتبطت بالحركة العلمية التي أسسها فرديك أوغست وولف (F.A wolf)و استمرت حتى عصر دي سوسير نفسه ، و لكن اللغة لم تكن الموضوع الأساسي للدراسة، بل اعتبرت مجرد وسيلة للقيام بالدراسات التاريخية و النقدية لبعض النصوص.

المرحـــلة الثالثة: تتميز هذه المرحلة بظهور ما يعرف بفقه اللغة المقارن (أو الفيلولوجيا المقارنة) (philologie comparative) ، ويعود الفضل في هذه الدراسة إلى السير وليم جونز (s.w jones) الذي اكتشف اللغة السنسكريتية، و من ثم اكتشاف علاقاتها المؤكدة باللغات الأساسية في أوروبا- كما سبق و أوضحت- و قد أخرج اللغوي الألماني فرانزبوب (f.bopp)أول كتاب في هذا الشأن عنوانه:"نظام التصريف في اللغة السنسكريتية " و أوضح فيه العلاقة التي تربط تلك اللغة باللغات الأوروبية المختلفة.**(02)**

و أعود للقول انه في خضم هذه الأحداث و التراكمات المعرفية التي اشتهر بها القرن التاسع عشر الذي احتضن البدايات الأولى لعلم اللغة الحديث ، نتيجة إخضاع الظواهر اللغوية لمناهج البحث العلمي خلافا لما كان عليه الحال من قبل ، إذ كانت علوم اللغة عند الغربيين تتصف بالذاتية و التخمين و التأمل العقلي البعيد عن الموضوعية . و بذلك فإنه وسط كل هذه الأجواء العلمية و الابستيمولوجية التي انبثق منها الدرس اللساني البنيوي عاش دي سوسير ، و تتلمذ على يد فلاسفة و لغوي الدراسات التاريخية و المقارنة «و أخذ مبادئه اللغوية الأولى و تشبع بالكثير من نظرياتها ، بل كان له دور مهم في إثرائها،

---

(01) أحمد حساني ، "مباحث في اللسانيات ، ص: 34 .

(02) ينظر فردينان دي سوسير ، "دروس في الألسنية العامة " ، ص: 17 ،18.

لكنه و بعدما تمكن من استيعاب توجهاتها ، لم يرضيه ما كانت تنتهي إليه من نتائج و ما كانت تعمل به من مبادئ منهجية ، و رأى أن يقدم منهجا لسانيا بديلا فتفتقت نظراته في درس اللغة بفضل ما تميز به من بعد في النظر و دقة في منهجية الطرح

و التناول و بما اجتمع لديه من تراكمات معرفية في ميدان علم اللسان عن مجموعة من المفاهيم و المبادئ الهامة التي أصبح ينظر إليها مجموع اللسانيين بعد وفاته بوصفها الأساس الذي أقام عليه علم اللســـــان الحديث »**(01).**

فاللسانيات التاريخية كانت قد وضعت الدراسة اللغوية في أزمة منهجية ، و ذلك في أواخر القرن التاسع عشر، حيث اعتبرت اللغات كائنات حية شأنها في ذلك شأن الأجناس البيولوجية، و هذا ما أدى بالعديد من اللغويين إلى نبذ هذه النظرية ، و البحث- بالتالي- عن نظرية بديلة لها ، فكان دي سوسير أول من أحدث القطيعة مع هذا اللون من اللسانيات و دعا إلى تبني فرع جديد من اللسانيات يعنى بالدراسة الوصفية ، و منذ تلك اللحظة أخذ ميزان القوى يختل متحولا من البحث المقارن في تاريخ اللغات إلى وصف اللغات مستقلة.

لذلك يعتبر دي سوسير مؤسس النظرية اللسانية المعاصرة ، هذه النظرية التي أخذت خصوصيتها المميزة منذ أن ظهرت إلى الوجود الأفكار العلمية التي جاء بها دي وسوسير في مجال البحث اللساني ،و من أهم هذه الأفكار ما يلي:

1- أهمية الفصل بين اللغة من حيث هي نظام مستقر و بين اللغة من حيث هي تغير لغوي ، و الدعوة – بالتالي – إلى تبني كل دراسة من هاتين الدراستين منهجها الخاص بها . و هذا يعني التمييز القاطع بين المنهج الوصفي للتحليل اللغوي و المنهج التاريخي.

2- التفريق بين اللغة (la langue) و الكلام (la parole) ، أي بين النظام اللغوي الذي تشرك فيه جماعة من الجماعات و بين الاستعمال الفعلي الذي يقوم به المتكلم .

و يبدوا أن ما جاء به دي سوسير لم يأتي من العدم ، بل كان نتيجة ما تولد عن تلك الأجـــــــــواء و المؤثرات من تراكمات معرفية استطاع سوسير أن يحسن استغلالها عن طريق حسن قراءتها و فهم أبعادها إضافة إلى تقويضه الفكر اللغوي السابق ، و لا سيما القرن التاسع عشر الذي تعلق فيه البحث اللساني بالمعطيات اللسانية الملموسة - كما أوضحت سابقا - و تنوعت فيه الدراسات اللسانية من لسانيات تاريخية محضة إلى أبحاث لغوية مقارنة مكثفة في العقود الأولى من ذلك القرن ثم تغيرت الأبحاث اللسانية في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر و على

---

(01) الطيب دبه ، "مبادئ اللسانيات البنيوية "، ص :55 .

يد النـــــحاة المحدثين و (néo-grammairiens) و اكتسبت طابعها المنهجي الصارم « و قد تلقى دي سوسيير تدريبه الأول على يد هؤلاء العلماء مثل لاسكن (laskein) وأوستوف (Osthoff) ، إلا أنه خالفهم في تصورهم العام و رفض نظرتهم الضيقة إلى اللسانيات»[02] .

بيد أن أهم المؤثرات المعرفية و العلمية التي تأثر بها دي سوسير في هذا القرن و شيد على أساسها ما يعرف بالنموذج اللساني البنيوي هي : « التيار الفكري الفلسفي القائم على مبدأ السببية الاجتماعية عن إميل دور كايم (1858 – 1917) ، ذلك الفيلسوف الذي يبدو تأثر دي سوسير به بشكل واضح و إن لم يشر إلى ذلك في محاضراته و إذا كان دور كايم قد آل على نفسه أن يجعل من البحث الاجتماعي علما قائما بنفسه موضوعا و منهجا و كان مستنده النظري في ذلك إيمانه بخصوصية الوقائع الاجتماعية و تفردها بنوعية تفصلها عن الظواهر العضوية و النفسية»[01] .

هذا يعني أن إميل دور كايم [*] كان يهدف إلى وضع علم اجتماع قائم بنفسه ، ذلك أن الوقائع الاجتماعية (faits social) تختلف في نوعيتها عن بقية الظواهر التي تدرسها العلوم الطبيعية و علم النفس فثمة مجموعة من الصفات الاجتماعية التي يشترك فيها جميع الناس بسبب عاملي الاجتماع و التعايش و تندرج ضمن ما سماه بالوعي الجماعي (conscience collective) ، فالضغط الذي يمارسه المجتمع على حرية الأفراد في اللبـــــاس و المعيش –مثلا – ليس من صنع فرد بعينه ، و لكنه من صنع نظام خاص من القيم التي يمليها الضمير الجمعي و يتجلى تأثر دي سوسير بالمبادئ الدوركيمية (أو بالفلسفة الدوركيمية) حين ينظر إلى اللغة باعتبارها متميزة عن الكلام ، و كذلك قوله بأن اللغة عبارة عن مؤسسة اجتماعية أو نتاجا لقوى اجتماعية.

و تجدر بي الإشارة في هذا المقام إلى أن القرن التاسع عشر قد تميز بظهور بعض الدراسات اللغوية ذات المنحى الفلسفي و النفسي ، و قد تم ذلك على يد بعض النحاة الألمان المهتمين بالقضايا اللغوية مثل: فون همبولت(ت 1835) (Wihlem von humboldt) القائل " بأن اللغة هي المظهر الحسي للناحية الروحية للـــناس و أنها القوة التي تؤثر في أنماط تفكيرهم و سلوكهم " [02] .

---

(02) أحمد مومن ، " اللسانيات – النشأة والتطور –" ، ص : 118 .

(01) الطيب دبة ، " مبادئ السانيات البنيوية " ، ص: 56 .

(*) لقد كان إميل دور كايم صديقا لدي سوسير ، كما كان صديقا ومراسلا منتظما للعالم اللغوي بودوان دي كورتوناي ، وقد تأثر بمنهجه العديد من العلماء الفرنسين والبراغيين . وكان دور كايم أميل إلى أن يكون وضعيا (Positivist) فكان " ضد النزعة الفردية " وكان من أوائل من نادوا بأن الظواهر الاجتماعية ظواهر من نوع خاص . ومن أشهر مؤلفاته : " تقسيم العمل الاجتماعي " . وكان دور كايم نفسه متأثرا بكارل ماكس (ينظر مـحمود السعران ، " علم اللغة – مقدمة للقارئ العـربي " ص : 343).

(02) كريم زكي حسام الدين ، " أصول تراثية في علم اللغة " ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط (02) ، مصر ، 1985 ، ص :05.

و لم يقتصر الأمر على الدرس اللغوي الألماني بل تعداه إلى أوروبا و أمريكا أيضا ، فتم دخول المعايير النفسية إلى النظرية اللسانية في هذا القرن، و بعد مضيعة سنوات قام اللغوي الألماني كارل فوسلير (karl vossler) (1872-1945) ببسط فكرة همبولدت و القول « بأن اللغة انعكاس لخصائص الشعب الناطق بها و بالتالي فليست ظاهرة طبيعية تؤثر فيها الأحداث المادية » [03]

و هذا يعني أن اللغة الخاصة بكل مجتمع متكلم هي التعبير الخاص بنفسية الجماعة ، و ظهر في نهاية القرن التاسع عشر اتجاه نفسي في الحلقات اللسانية الفرنسية بلغ ذروته في القرن العشرين ، أين غلبت على اتجاهاتهم التصورات الفلسفية و النفسية ، لكن دي سوسيير أبى إلا أن يدحض هذه المعايير النفسية والفلسفية ، و يقول بأن اللغة عبـــارة عن مؤسسة اجتماعية تتميز عما سواها من المؤسسات القانونيــة و السياسية الأخرى بما فيه من ضمان لاستقلالية علم اللغة من العلوم الأخرى .

يقول دي سوسيير في تحديده لخصائص اللغة « ... هي الجانب الاجتماعي من الكلام الخارج عن نطاق الفرد لأن الفرد الواحد غير قادر على أن يحورها . و هي لا توجد إلا بمقـتضى نوع من التعاقد يتم بين أعضاء المجموعة البشرية الواحدة » [01].

و هذا يعني أن اللغة ليست وظيفة من وظائف المتكلم لأنها مؤسسة قائمة بذاتها وجدت قبل الأفراد و هي موضوعية و لها قوانينها الخاصة التي تقوم عليها ، ثم إنها مكتسبة و ليست وراثية – كما قد يعتقد البعـــض – و هي مكونة من مجموعة من العلامات اللغوية ذات الطبيعة الملموسة « و إن كانت في جوهرها نفسية فإنها ليست من المجردات . فعمليات الترابط بين الدال و المدلول التي يقرها الجمهور و يرتضيها و التي يكون مجموعها اللغة حقائق مقرها الدماغ » [02].

فدي سوسير قد نظر – بهذا التحديد – إلى اللغة كواقع قائم بذاته ، فدرسها بصورة مستقلة عن فكر الإنسان و نشاطه، و هذا ما دفعه إلى تخليص الدراسة اللغوية من الفرضيات الفلسفية و الميتافيزيقية و القول بأن اللغة بنية و تنظيم . و كانت الأفكار اللغوية الجديدة التي جاء بها دي سوسير في الفكر اللساني المعاصر كانت بمثابة هزة(أو ثورة عنيفة) زعزعت أركان التيارات اللغوية السائدة في أواخر القرن التاسع عشـــــر و مطلع القرن العشرين . و شكلت اللغة – بحد ذاتها – أساس الثورة السوسرية الحديثة .

---

(03) عبد الرحمان الحاج صالح ، " اللسانيات " ، المجلد الثاني ، ع(01) ، ص :33.
(01) فردينان دي سوسير ، " دروس في الألسنية العامة " ، ص: 35 .
(02) المرجع نفسه ، ص: 36.

غير أن هذا لا ينكر (أو ينفي)تأثر دي سوسير ببعض المخلفات الفلسفية التي تميز بها القرن التاسع عشر و منها تلك النزعة المتمثلة في علم النفس الذهني التي سادت في أواخر هذا القرن « و يتجلى ذلك في كثير من أفكاره الجوهرية التي نظر فيها إلى اللغة من حيث هي كيان نفسي داخلي، بل إنه جعل هذا الكيان الموضوعي الجوهري للسانياته التي سميت فيما بعد ، نظرا لتوجهه هذا باللسانيات الداخلية Linguistique Interne» [03].

و من المؤثرات الفلسفية التي كان قد تأثر بها دي سوسير في القرن التاسع عشر أيضا هي الفلسفة الوضعية لأوغست كونت (1798 – 1857) هذا المذهب الذي ينادي بضرورة نبذ الافتراضات و الأحكام المـــــسبقة و السعي إلى وصف الظاهرة المدروسة من حيث هي ظاهرة طبيعية [01]. يقول الفيلسوف أوغست كونت : « إن الروح العلمية أكثر قابلية لتنظيم الانسجام الذهني مما هي عليه الروح الميتافيزيقية أو اللاهوتية » [02]

يمكنني أن ألاحظ من خلال هذا التعريف أن فكرة الوضعية عند كونت هي اتجاه نظري يحاول تحرير المعرفة العلمية من تأثيرات الميتافيزيقا (الأفكار الماورائية)، أي تخليص العلم من تلك التفسيرات الغيبية التي كانت تحجب واقع نظام الظواهر و بالتالي استحداث المنهج الذي يبحث في نظام الظواهر و استحداث وسائله و أساليبه .

غير أن هذه الفكرة أو المبادرة ليست جديدة ، إذ إنها بدأت مع فرنسيس بيكون حيث دعا إلى تحرير عقولنا من الأصنام القائمة فيها ، و يعني بذلك المعتقدات السائدة في تفسير الظواهر و التي هي معتقدات غير صحيحة ، و ظهرت هذه الفكرة أيضا مع الفيلسوف الفرنسي ديكارت عندما نادى بنبذ تلك المعارف الســـابقة و مع كانط عندما قال بتعقل المعرفة الميتافيزيقية [*]. و التفسير الوضعي للظواهر لا يقتضي معرفة الظواهر معرفة شاملة لجميع جوانبها كمعرفة طبيعة الظاهرة و أصلها و حقيقتها ، فالعلم لا ينفذ إلى هذه الأبعاد التي تفلت من الملاحظة الوضعية ، فالوضعية محدودة بحدود الملاحظة. « و إذا فهي وصف خارجي للعلاقات الموجودة بين الظواهر لفهم قوانينها الخاصة، تلك القوانين التي تسمح بالتنبؤ بما تجري عليه هذه الظواهر» [03].

---

(03)) الطيب دبة ، " مبادئ اللسانيات البنيوية " ، ص: 59 .

(01) الطيب دبة ، " مبادئ اللسانيات البنيوية " ، ص : 35 و 57 .

(02)) محمود يعقوبي ، " الوجيز في الفلسفة " ، المعهد التربوي الوطني ، ط (03) ، الجزائر ، 1984 ،ص : 251 ، 252 .

(*) سأتطرق إلى هذا الموضوع بتفصيل أكثر في الفصلين الثالث و الرابع من هذا البحث .

(03) المرجع نفسه ، ص : 251 ، 252 .

يعني هذا التعريف أن المعرفة الوضعية مشروطة بالوسائل و الإمكانيات من جهة ، و من جهة أخرى لا يمكنني القول أن الاتجاه الوضعي يطمح إلى معرفة طبيعة الظواهر معرفة مطلقة ، بل المعرفة المطلقة من مميزات التفكير الميتافيزيقي . و لذلك فإن المعرفة العلمية تقتضي النسبية ، أي أن النتائج التي يصل إليها العالم تكون صادقة صدقا يتناسب و إمكانيتها في البحث و لا يمكن أن تكون صادقة صدقا مطلقا أبدا .

و على هذا الأساس عمد دي سوسير إلى تحديد موضوع اللسانيات في بنية اللغة من حيث هي مظهر محسوس يمكن ملاحظته و غرض جوهري للدراسة مطلوب لذاته و من أجل ذاته .

و يبدو أيضا أن فكرة الجملة أو الكلية (Totalité) و أهميتها في الدراسات اللغوية لم تكن حكرا على دي سوسير ، بل سبقه إليها عدة علماء آخرين و من مختلف التخصصات المعرفية ، أذكر منهم : فون همبولدت بودوان دي كورتوناي ، أنطوان ميي ، وليام و يثني ، وليام ماير ، أدولف نورين ... و جماعة النحات المحدثين و لا سيما أنصار النظرية النفسية الجشطالية ، التي كانت قد أخذت بهذا المبدأ في تحليلاتها و عملياتها النفسية **(01)**.

و عموما ، فقد حاولت في هذا المبحث اكتشاف جذور الفكر السوسري الذي و إن كان يتميز بالخصب و الجدية و السبق إلى اكتشاف العديد من المفاهيم النظرية و الطرق المنهجية التي جعلت منه رائد علم اللسانيات الحديثة و مزعزع أركان التيارات اللغوية السائدة في أواخر القرن التاسع عشر و مطلع القرن العشرين ، فإنه مدين ، في بعض الجوانب إلى لسانيين و مفكرين سبقوه في الاهتداء إلى بعض المفاهيم التي أقام عليها نظريته

و مثال ذلك – إضافة إلى الأمثلة السابقة – أنه في تعريف النظام Système – حسب المفهوم السوسري – رأيت أنه يحدد الوحدات اللسانية داخل هذا النظام بالاعتماد على السمات التي تختلف فيها عن غيرها من الوحدات أي ما يميزها عنها في نطاق النظام ، و ليس تحديدها انطلاقا من الخصائص و السمات الايجابية التي تميزها هذه الوحدات ، و من ثم فإنه عن طريق عنصري التقابل و الاختلاف قد تمكن دي سوسير من تحديد الوحدة اللغوية في داخل النظام اللساني و لعله نزع في هذا الأمر نزعة فلسفية تشبه نزعة الفيلسوف **فختة** الذي قال : « بأن الموضوع و ضده و توحيدهما معا يشكل سر التطور و كل الحقيقة » **(02)** . فمثلا الرأسمالية نـظام و الشيوعية نظام آخر مضاد للرأسمالية و التوحيد

---

(01) ينظر عبد الرحمن الحاج صالح ، " اللسانيات " ، المجلد الثاني ، ع(01) ، ص: 37 والطيب دبة ، " مبادئ اللسانيات البنيوية " ، ص: 57-58 .

(02) ول ديورانث ، " قصة الفلسفة – من أفلاطون إلى جون ديوي –" ، تر : فتح الله محمد المشعشع ، ط(01) ، منشورات مكتبة المعارف ، بيروت – لبنان ، 1979 ، ص : 378 .

بين هذين النظامين أو الفلسفتين يؤدي على التطور بهـــما و من هذا التطور ينبثق نظام ثالث أرقى منهما .

أو ربما يميل دي سوسر ميلة فلسفية و ربما قد تأثر بالفيلسوف الألماني **فردريك هيجل** (1770 – 1831) « الذي يرى أن أكثر الصلات والعلاقات شمولا في الكون هي صلة التعارض أو التناقض فهو يقول أن كل حالة لفكرة أو لشيئ ، وكل رأي وكل موقف في العالم يؤدي إلى موقف معارض له وبعدئذ يتحد هذا المعارض أو المضاد معه لتشكيل كل أعلى » **(03)**.

ويرى **هيجل** أن عملية التناقص والاختلاف لا تخضع له الأفكار فحسب ، وإنما كل شيء في هذا الكون خاضـــع لذلك « فكل قضية تحتوي على تناقص وتعارض ينتهي به النمو و التطور إلى وحـدة وانسجـــــام و توفيق بين هذه الأمور المتعارضة » **(04)**. مثل النظم الاجتماعية وحتى نزعتها الفردية ... وهنا يظهر عمل العقل ومهمة الفلسفة التي تتمثل في« اكتشاف الوحدة الكامنة في التعارض أو التغاير » **(05)**.

ومن أبرز المتأثرين بفلسفة هيجل الثورية **كارل ماركس** ، الذي تطور بفلسفة التاريخ الهيجلية إلى نظرية صراع الطبقات التي تؤدي حسب الضرورة الهيجلية إلى اشتراكية لا مفر منها ، فقد قدم ماركس بدلا من المطلق الذي يقرر التاريخ عن طريق روح العصر ، الحركات الجماهيرية والقوى الاقتصادية كأسباب أساسية لكل تغير أساسي سواء في عالم الأشياء أو في حياة الفكر ، و إلى أكثر من هذا يذهب ماركس إلى القول بأن النجاح الحقيقي في المجتمع الاقتصادي لا يتم من طرف شخص واحد ، بل هو راجع إلى المجتمع ككل ، قائلا : « إن كيفية إنتاج الحياة المادية هي التي يتوقف عليها التطور الاجتماعي والسياسي و التقاضي للحياة بأجمعها . فليس وعي الإنسان هو الذي يسبب وجوده بل وجوده الاجتماعي هو الذي يسبب وعيه» **(01)** .

وكلنا يعلم مدى التأثير الكبير الذي مارسته الماركسية على الإنسانية عامة وعلم اللسان بصفة خاصة ودليل ذلك ما قاله سوسير عن اللغة بأنها مؤسسة بشرية اجتماعية وأداة تواصل قائم بذاته على نواميسه الخاصة وهي كسائر المؤسسات البشرية ذات بعد تاريخي لعامل الزمن فيها تأثير .

وعموما فدي سوسير قد تمكن من وضع منهج للدراسة اللسانية ، كان له أكبر الأثر في الدراسات اللسانية اللاحقة ، بعكس سابقيه الذين لم يصلوا إلى ما وصل إليه هو ، بسبب اكتشافهم لبعض

---

(03) المرجع نفسه ، ص :378.
(04) نفسه ، ص: 378 .
(05) نفسه ، ص :379.
(01) عبد الرحمن الحاج صالح ،" اللسانيات " ، المجلد الثاني ، ع (01) ص: 35.

الملاحظات والأفكار المنفردة لا غير « و شتان ما بين اكتشاف الأفكار في ذاتها من حيث هي ملاحظات منفردة ومعزولة وبين اكتشاف المنهج الذي يربط بين تلك الأفكار » [02]

4/ 3- اللسانيات الداخلية و اللسانيات الخارجية :

أثناء محاولة تحديد فردينان دي سوسير لمادة اللسانيات وضبطه لموضوعها ، كشف عن بعض المفارقات أو التمييزات الهادفة إلي تسيطر منطلق الدراسة البنيوية للغة ، و من أهم هذه المفارقات تمييزه بين اللغويات الداخلية و اللغويات الخارجية ،و التي يقول بوجوب الفصل بينهما في الدراسات اللغوية « وأفضل دليل على وجوب التمييز بين الألسنية الداخلية و الألسنية الخارجية استحالة تناولهما بنفس المنهج بل يمكن أن نقول إنّ هذه النقطة تمثل مقياس الفصل بينهما ، فما دام الأمر متعلقا بمعطيات خارجية أمكن أن نضيف إلى الجزئيات جزئيات أخرى بدون أن ننحصر بين فكي نظام (...) أما بالنسبة إلى الألسنية الداخلية فالأمر مخالف لذلك تمام المخالفة فهي لا ترتضي أي تنظيم اتفق ... فاللغة نظام لا يخضع لغير نظامه الخاص » [03].

فقد ميز دي سوسير إذن ، بين بعدي اللسانيات الداخلي و الخارجي ، فالبعد الداخلي يحتوي على النظام الذاتي للغة ، في حين يرتبط البعد الخارجي بتاريخ الشعب المنتفع بها و بحضارته و بأدبه و بالأبعاد الجغرافية ،و السياسية ، و الثقافية ... الخاصة به . يقول أستاذي الدكتور عبد الجليل مرتاض في ذلك : «... و تتميز مستويات هذه الإرهاصات الخلفية بميزتين : ميزة داخلية و ميزة خارجية ، أما الميزة الداخلية فهي كل المبادئ و العلل التي تتعلق باللغة في ذاتها ولذاتها ،و أما الميزة الخارجية فهي تتصل اتصالا ضروريا بممارسة اللغة من مختلف الفئات المتكلمة » [01] .

هذا يعني أن الدراسة اللسانية الداخلية تتمثل فيما وضعه ذي سوسير من مشكلات لغوية مطروحة على بساط البحث ضمن إطار عام و متماسك فضلا على وضعه مجموعة من المصطلحات التقنية و قد أومأ إلى ذلك بقوله : « و في نظرنا لا يوجد سوى حلّ واحد لهذه الصعوبات مجتمعة : يجب أن يكون الانطلاق للوهلة الأولى من اللغة و اتخاذها معيارا للظواهر اللغوية الأخرى كافة » [02] فهو أوّل من اهتم بدراسة علوم اللغة (اللسانيات) انطلاقا من اللغة في ذاتها و من أجل ذاتها .و

---

(02) الطيب دبه ، " مبادئ اللسانيات البنيوية " ، ص : 62 .
(03) فريدينان دي سوسير ،" دروس في الألسنية العامة " ، ص : 46 ، 47 .
(01) عبد الجليل مرتاض ، " مقاربات أولية في علم اللهجات " ، دار الغرب للنشر و التوزيـــع ،ط (01) ، الجزائر 2002
ص :36 .
(02) فردينان دي سوسير ، " دروس في الألسنية العامة " ، ص : 20 .

سوسير يسعى إلى دراسة اللغة عبر منهج سليم يسمح بالتعرف إلى العناصر المكونة لها ، لأنّ اللغة ماهية مستقلة مكونة من ارتباطات داخلية

و بمعنى آخر فهي بنية (structure) « و من خصائص الدراسة البنـــيوية أن يعتمد عالم اللغة على التحليل المحـــايث و المحايثة من أهم السمات البنيوية و معناها في عرف المدارس البنيوية أن النص ـ أو الملفوظ ـ لا يحلل إلا انطلاقا من خواصه الداخلية ، فهذه الخواص هي التي تمكن من تحديد الملفوظ باعتباره بنية مغلقة من شأنها أن توصف من حيث هي يقطع النظر عن كل سيرورة تاريخية مثال (إن صراط الله صراط مستقيم)، فوصف هذه الجملة لا يهتم بتاريخ الكلمات ، فلا يهتم بأن كلمة صراط ـ مثلا ـ دخلت كلام العرب من اللاتينية بواسطة الإغريقية و الآرمية ، و إنما هم الوصف مجموعة العلاقات القائمة بين مختلف عناصر هذه الجملة : إن ـ صراط ـ الله ـ مستقيم » **(03)** .

أفهم من هذا القول أنّ اللسانيات الداخلية هي دراسة اللغة من حيث نظام مستقل قائم بذاته ، و هي دراسة **محايثة** للغة ، و اللغة فيها عبارة عن نسق لا يعرف سوى نظامه الخاص ، و قواعـــــــده الخاصة و مكوناته المترابطة فيها بينها ، لأن هذه الدراسة تهتم بوصف الملفوظ أو المنطوق انطلاقا من نسقه الداخلي و نظامه البنيوي . و ليس انطلاقا من المؤثرات أو الدوافع الخارجية النفسية ، و الاجتماعية و السياسية التي دفعت المتكلم إلى إنتاج هذا الملفوظ.

و بالتالي يمكن استخلاص الفروق الموجودة بين اللسانيات الداخلية واللسانيات الخارجية ، و هذه الأخيرة هي وثيقة الصلة بعلوم أخرى كاللسانيات السيكولوجية ، و اللسانيات الاثنولوجية ...لأن اللسانيات الخارجية الدراسة اللغوية فيها بعيدة عن نطاق الافتراضات الفلسفية المسبقة .أمّا اللسانيات الداخلية فتدرس نسق اللغة وقواعدها الباطنية ونظامها البنيوي .

4 /4 ـ دي سوسير والنموذج اللساني :

لقد كانت أفكار دي سوسير صاحبة الدور الأكثر فعالية في بلورة البنيوية و اتجاهاتها، ذلك أن المنهج اللساني السوسري الجديد اعتبر بحق النموذج الجديد بالاقتداء لمعالجة كل النتاجات الإنسانية ، وهذا يعود ـ بالطبع ـ إلى مجموعة المبادئ أو المسلمات المنهجية التي انطلق منها دي سوسير حين إرسائه لحقل البحث اللساني ، ومن أهم هذه المبادئ اعتباره اللغة مادة البحث اللساني ، قال : « إن

---

(03) نور الهدى لوشن ، " مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي " ، المكتبة الجامعـــية ، (د- ط) ، مصر ،2000 ص : 304 .

مادة اللسانيات تشمل كل مظاهر اللسان البشري سواء أتعلق الأمر بالشعوب البدائية أو الحضارية ، أو بالعصور القديمة أو بعصور الانحطاط » [01].

وهذا يدل على أن اللسانيات عامة تسعى إلى بناء نظرية علمية لها صفة العموم ، إذ يمكن على أساسها دراسة جميع اللغات الإنسانية ووصفها . وهي – بذلك – تهدف إلى الكشف عن البنى النحوية والصوتية والصرفية والدلالية للغات ومعرفة وظائفها العامة بغض النظر عما إذا كانت هذه اللغات من اللغات الشرقية أو الغربية ، البدائية أو الحضارية .

و في هذا العمل السوسري دعوة إلى ضرورة استقلالية منهج الدراسة اللسانية ، داعيا إلى النظر إلى اللغة بوصفها قواعد و قوانين تجريدية مستقرة في الدماغ ، و هذا يعني أن اللغة ذات طبيعة ملموسة مكونة من الدلائل (العلامات) اللغوية . و في هذا التحديد اللغوي يوجد ثمة سعي من دي سوسير إلى فصل اللغة عن المكونات النفسية و الفيزيولوجية لظاهرة اللسان ، أي إلى نبذ الفرضيات الفلسفية و الميتافيزيقية الســـابقة و التي كانت تقول بعلاقة اللسانيات بعلم النفس و الأقوال الفلسفية الأخرى.

لكن هذا لا يعني بأن دي سوسير يرمي بهذا إلى إقصاء سائر العلوم (كعلم النفس، و التاريخ و المنطق ، و النحو التقعيدي ...) عن اللسانيات ـ كما قد يعتقد البعض ـ بل يرى سوسير بأن اللسانيات تربطها بهذه العلوم و غيرها روابط قوية ، لأن كل هذه العلوم تعتمد اعتمادا كبيرا و تستفيد كثيرا من اللسانيات، فما هو سبب ذلك يا ترى ؟

لقد درس دي سوسير اللغة باعتبارها مجموعة من العناصر (لا مجموعة من الكلمات) التي تربطها عدة علاقات ، بحيث تصبح هذه العناصر لا معنى لها في ذاتها و إنما معناها في ارتباطها ببعـــضها و كل تغيير يصيب عنصرا منها يظهر أثره على سائر العناصر الأخرى ، بل على النظام كله ، ذلك أن دي سوسير يعتبر اللغة بنية أو نظام (SYSTEME) . و على هذا الأساس أصبحت اللسانيات عامة **النموذج** المقتدى من قبل العديد من العلوم و المعارف الإنسانية نظرا لما تتمتع به من استقلالية في البحث و من صرامة علمية و تكثر الإشارة إلى ظاهرة النموذج (أو الأنموذج) (ESCEMPLAIRE) اللغوي في الدراسات اللسانية التي لا أبالغ إن قلت بأن النموذج البنيوي هو المنهج اللساني في صيغة البنيوية ، و أمام هذا الطرح يجدر بي التساؤل عن معنى النموذج ؟

يعرف الدكتور مراد وهبة في معجمه الفلسفي مصطلح النموذج قائلا : «إما أن يكون له وجود في الأعيان كالمثل الأفلاطونية ، و إما أن يكون له وجود في الأذهان كالصور الفنية» **(01)**

---

[01] ferdinand de saussure , cours de linguistique générale ، 20: p

فأفلاطون قد تحدث منذ ملايين السنين عن الخصائص الثابتة و الدائمة للوقائع من أجل بناء نظرية عامة للمعرفة و كذلك حاول دي سوسير بناء نموذج لساني يقوم على مظاهر الثبات والاستقرار أيضا ، فهو بذلك يحاول إدراك الحقائق اللسانية من خلال النماذج (أو الهياكل) التي يقوم بوصفها ليشرح بها الظواهر .

وقد تحدث اللساني الإنجليزي **جيفري سامبسون** عن أول مبتكر لمصطلح النموذج في أبحاثه قائلا: « إن فيلسوف العلم المعاصر توماس كون (thomas Kuhn) (1962) هو الذي ابتكر مصطلح النموذج paradigm ليبين كيف ـ في مرحلة محددة ـ أن التفكير في موضوع معين يكون مشروطا إلى حد ما بنظام مناسب من الأفكار يعمل ليس كعقيدة محددة واضحة من النظريات العلمية ، و لكن كنظريات غير منطوقة حول درجة إمكانية الفرضيات التي يفضلها العالم » [(02)].

وهذا يعني أن مصطلح النموذج يستعمل بكثرة في الأبحاث العلمية الطبيعية والرياضية ، نظرا لأن صفة أو طبيعة علومهم تسمح لهم باستخدام هذا الأسلوب العلمي وتطبيقه على علوم أخرى أقل تطورا ومثال ذلك أن بعض المهنيين يعمدون إلى إنشاء نماذج ،وخاصة إذا كانوا يعملون في قطاعات حساسة ومتخصصة وبعد تجريبها و التأكد من صحة نتائجها يعمدون إلى تطبيقها على الحقول الأخرى الأقل تخصصا ، ويعرف هذا النوع من النماذج بالنموذج العقلي الواقعي . وكذلك الحال بالنسبة للدراسات اللسانية ، إذ يعتمد اللسانيين إلى بنا ء نماذج يفهمون بها آلية اللغة عندما لا يتمكنوا من ملاحظة هذه الآلية ملاحظة مباشرة ،«ومن هنا يمكننا أن نميز في استخدام مصطلح البنية اتجاهين كثيرا ما يشتبهان :اتجاه يطلق البنية على مجموعة مكونة من عناصر ذهنية تقدم تصورات محددة عن الواقع ،واتجاه آخر يطلق البنية على مجموعة العلاقات القائمة بين الأشياء في الواقع نفسه ، فهي في الحالة الأولى نموذج عقلي وفي الحالة الثانية جوهر واقعي » [(03)] .

ومن ثم فاللسانيات مثلها مثل بقية العلوم الطبيعية و البيولوجية تعتمد خطوات البحث العلمي من ملاحظة وفرض وتجريب للوصول إلى ما يعرف بالنموذج اللساني في الدراسات اللغوية ، حيث تقوم بصياغة بعض التعليمات بالأحداث المتماثلة و المتشابهة قصد إحداث تعديلا ت في الوقائع التي تم ملاحظتها ، و من ثم تعمد إلى صياغة الافتراضات الخاصة بهذه الوقائع اللغوية لتصل في الأخير إلى مرحلة التجربة وبناء نظرية قائمة على الافتراضات السابقة ، وبعدما تتمكن من وصف هذه الوقائع وتفسيرها تصوغ منها نماذج خاصة تفهم بها آلية اللغة من جهة ،وتحاول تطبيقها على العناصر

---

(01) مراد وهبة ، " المعجم الفلسفي " ، ص : 455 .
(02) جيفري سامسون ،"المدارس الغوية ـ التطور و الصراع "،ص : 15.
(03) صلاح فضل ،"نظرية البنائية في النقد "،ص.:184

اللغوية الأخرى .بحيث يحتوي النموذج الجديد على فرضيات تتعلق ببنية اللغة التي لا يمكن ملاحظتها بصورة مباشرة ومحسوسة.

في حين يتطرق الدكتور إبراهيم زكريا إلى مشكلة النموذج اللساني من خلال الموازنة (أو المفارقة) بين البنيوية من حيث هي منهج/ علم، أو فلسفة/ مذهب فـــــكرى ،فيقول :« فالقول بأن " النبوية" هي ـ أولا و قبل كل شيء ـ " ايديولوجيا " : (موفق عقائدي) إنما يعني أن " البنبوية" لا تزيد عن كونها مجرد محاولة علمية منهجية لدراسة الظواهر عموما ، والظواهر البشرية خصوصا ، من وجهة نظر "البنية" سواء أكانت البنية هي "النموذج" أو البناء الصوري أم كانت مجموع العلا قات الباطنية المكونة لوحدة أي موضوع من موضوعات العلم ، وسواء أكانت "البنية " أداة فعالة ناجعة في هذا العلم أو ذاك، أم كانت مجرد وسيلة معرفية أكثر معقولية و أشد ملائمة لمقتضى الحال بالقياس إلى غيرها من الوسائل الأخرى السابقة أو الحالية ، وسواء أكان " النموذج اللغوي" هو النموذج الأساسي الأوحد الذي لابد من استخدامه في العلوم الإنسانية ، أم كان من الضروري تكييف كل "نموذج" مع الطبيعة النوعية لكل موضوع من مواضيع البحث العلمي... إلخ »**(01)**.

ما أمكنني فهمه من هذا القول هو أن صاحبه يرى في البنية نموذجا (أو بناء صوريا) مكونا للـــنظام أو النسق العلمي البنيوي ، و ما النموذج اللغوي إلا مثالا لها يعتمد عليه في تكوين النظام اللساني داخل العلوم الإنسانية ، ذالك أنه قد تم الاعتراف و من طرف العديد من المفكرين بأهمية اللسانيات بوصفها علما حديثا يميل إلى تطبيق الصرامة و الموضوعية العلمية في أبحاثه ـ في النهوض بعلوم الإنسان نظرا لاستفادتها من الكشوفات التي قدمتها اللسانيات، و ليس في وسع البنيوية أن تستهين أو تستغني عن نتائج علم اللغة الحـديث بل تستطيع الركون إليها و بكل اطمئنان.

وعموما يعتبر مصطلح النموذج من المصطلحات الثرية المعقدة ـ على حد تعبير الدكتور صلاح فضل ـ فقد تشير إلى مجرد أنماط ذهنية تساعد الإنسان على فهم الواقع ... كما أن الأنتربولوجي البنيوي **كلود ليفي شتراوس** قد اعتمد في تحليلاته البنيوية الأنتربولوجية للمجتمعات القديمة على فكرة النموذج التي يتم تكوينها انطلاقا من مجال النماذج اللغوية **(02)** . حيث تمكن من استعمال النموذج الواحد لدراسة أكثر من موضـــــوع و مهما يكن من أمر فالبنيويون عامة قد اعتمدوا النموذج اللساني في تطبيقاتهم و تحليلاتهم العلمية .

---

(01) إبراهيم زكريا ،" مشكلة البنية " ، ص: 22 .
(02) ينظر المرجع نفسه ، ص : 79، 80 .

و إن الذي لا يمكن نكرانه هو أن البنيوية قد ولدت نتيجة لكشوفات اللسانيات الحديثة في هذا القرن - على يد مؤسسها فردينان دي سوسير - حيث يعتبر البحث اللساني البنيوي صاحب السبق و الريادة في إنشاء علم اللسانيات الحديث ، و هو يمثل مرحلة التأسيس التي من دونها تتعطل المسيرة التطورية للدراسات اللسانية اللاحقة بما فيها النظريات التي قامت على انتقادها للبنيويين ، و لا أبالغ إن قلت أن المنهج البنيوي هو المنهج اللساني في صيغة البنيوية . و هذا يعود بالدرجة الأولى لأفكار دي سوسير الثورية ، التي حولت الدراسة اللغوية نحو نقطة لا عودة منها لسابق عهدها ، و كانت أفكاره هذه نفسها صاحبة الدور الأكثر فعالية في بلورة البنيوية و اتجاهاتها، حيث سيطر **النموذج اللساني** السويسري باعتباره المعالجة المثلى لكل النتاجات الإنسانية و المثال المحتذى في تطبيق رؤية المنهج البنيوي « البنيوية في أساسها نظرية في المعرفة ، تؤكد أهمية النموذج ذو البناء في كل معرفة علمية و تجعل للعلاقات الداخلية و النسف الباطل قيمته كبرى في اكتساب أي علم » **(01)**.

5/4- المفاهيم الثنائية لدي سوسير:

من أهم المبادئ و المسلمات المنهجية التي ينطلق منها دي سوسير في إرسائه لحقل البحث اللساني الحديث، هي تحديده لبعض المفاهيم الثنائية ذات المنزلة الهامة، و التي اعتبرها بمثابة دعائم علمية ثابتة، لدراسة عمل اللغة وليس لدراسة تطورها عبر التاريخ، ذلك «أن النظرة الوصفية في دراسة اللغة كما حددها سوسير ترفض التفسير التاريخي للظواهر اللغوية لأن الزمان ليس هو العامل الفيصل في دراسة الأشياء، بل إن الزمان هو مجرد إطار لها، أما علة التغيير الذي يطرأ على هذا العنصر أو ذاك من عناصر اللغة ذاتها تمكن من وجهة في طبيعة العناصر المركبة لها في لحظة معلومة ومن جهة آخرى هي علاقات **البنية** القائمة بيـــــن تلك العناصر» **(02)**.

غير أن هذا لا يعني أن دي سوسير قد أدان الدراسات اللغوية التاريخية بل اعتبرها – في الواقع- ثانوية بالنسبة إلى الدراسات اللغوية الوصفية التي دعا بصورة واضحة إلى إقرارها. و من الأمور التي اشتهر بها دي سوسير استخدامه لظاهرة الثنائيات، و هذه الظاهرة ليست غريبة على أنظار النظرية الكلاسيكية القائلة بأن ثمة وجهين مختلفين لكل شيء في هذا الكون كلاهما يكمل الآخر، حيث ظهرت هذه الفكرة من قبل عند **أرسطو وديكارت** و استعملها دي سوسير من جديد في شكل دعائم مزدوجـــــــة أو تفرعات ثابتة **(03)** .

---

(01)وفاء محمد كامل ، " البنيوية في اللسانيات " ،" عالم الفكر " ، المجلد (26) ، العدد(02) ، أكتوبر – ديسمبر 1997 ،ص :221.

(02) كريم زكي حسام الدين، "أصول تراثية في علم اللغة"، ص:54 .

(03) أحمد مومن، "اللسانيات-النشأة و التطور"، ص: 121 .

ومن أهم هذه الثنائيات مايلي :

اللسانيات الأنية والزمانية / اللغة والكلام / الدال والمدلول / العلاقات السياقية والعلاقات الترابطية ... وهناك ثنائيات أخرى استخلصها الدارسون كالتعارض بين الرمز اللغوي (Signe) والرمز العام (Symbole) والتعارض بين المؤسسات الاجتماعية والسيمياء ، والتعارض بين السيمياء واللغة ، والتعارض بين الشكل والجوهر في وحدات اللغة . لقد وصف مذهب دي سوسير بأنه قائم على هوس التقسيم ، إذ لا يمكن إرجاع معظم ما أتى به من أفكار إلى قسمة ثنائية تعارضية [01].

وقد أشار العديد من المفكرين إلى ولع دي سوسير بالبحث عن وجوه التناقض في اللغة وجرت العادة أن يتخذ الحديث عن سوسير شكل قائمة من المقابلات بين أزواج من المفاهيم ، كان قد اهتدى إليها إثر تأمل عميق وتصور شامل للنظرية اللسانية .

---

[01] أحمد محمد قدور ، " مبادئ اللسانيات"، ص: 20.

اللسانيات البنيوية الأوروبية

تمهيد: تعتبر البنيوية حركة فكرية ذات قاعدة عريضة، بدأت قبل عام 1930 في كل من أوربا وأمريكا من دون اتصال بينهما، وكان اللغوي السويسري فرديناند دي سوسير قد أرسى قاعدتها، عندما استطاع أن يؤسس هذه المدرسة اللغوية الحديثة التي عدت نموذجا رائعا لبقية العلوم الإنسانية، ومكنتها من أن تضارع العلوم الرياضية والطبيعية في خضوعها للمنهج العلمي الدقيق .

وعلى الرغم من أن سوسير نفسه لم يستخدم كلمة بنية أو بنيوي في محاضراته، إلا أن أفكاره ومفاهيمه الثورية عن الانفصال الجوهري بين اللغة والكلام، وكذلك إحلاله النظرة الوصفية محل النظرة التاريخية في الدرس اللغوي مفرقا بذلك بين المنهج التاريخي (Historique). والمنهج الوصفي (Descriptive) في هذا الدرس... كانت قد وفرت قاعدة عريضة للبنيوية التي ركزت على الوظيفة الاجتماعية (التواصلية) للغة، وميزت بين الظواهر التعاقبية والخصائص المميزة للنظام اللساني في مرحلة زمنية معينة.

من نقطة الانطلاق هذه توصل البنيويون عامة إلى القول بأن أي معنى في مجال من مجالات الفعاليات الإنسانية يتألف من منظومات مغلقة ومستقلة تماما عن العالم المادي. وبذلك فقد استطاع هذا العلم الذي ثبت أركانه ودعم قواعده أن يلج أقطار العالم ومفكريه من أوربا إلى أمريكا إلى روسيا... وليظهر في إطاره الشمولي المؤتلف في شكل مدارس وفي شكل نزعات ومذاهب ونظريات. ولما لم يكن بمقدوري الإحاطة التامة بكل هذه المدارس والنظريات، ولا أن أقف على متابعة تطوراتها العلمية والمنهجية متابعة دقيقة واضحة، ارتأيت أن أفصل القول في هذا الباب حول الأفكار اللسانية لكل من المدارس اللغوية الشهيرة والمتخصصة في هذا اللون من اللسانيات، ألا وهو اللسانيات البنيوية، ومن أهم هذه المدارس ما يلي:

1- مدرسة جنيف (L'école de Genève):

تكونت من أتباع سوسير الذين تتلمذوا على يديه و تشبعوا بمبادئه و أفكاره، و منهم السويسريين: شارل بالي (Charles Balley) (1865-1947) ، و ألبرت سيشهاي (Albert Sechehaye) (1870-1946) اللذين قاما بجمع دروسه و إخراجها للإنسانية عامة 1916، في حين كان لهذين الباحثين أتباع اقتفوا

أثرهما وتوجهوا باللسانيات الحديثة في ضوء منظور دي سوسير وتصوراته،ومن هؤلاء الطلاب أذكر: هنري فراي(Henri Friei) و روبرت كوديل (Robert Godel) ...[01]

و كلنا يعرف أن دي سوسير قد قدم صورة عامة عن النظام اللساني من خلال تلك الثنائيات اللسانية و من خلال قوله بأن اللغة مؤسسة اجتماعية بشرية و أداة تواصل هامة عمادها نظام قائم بذاته له قوانينه الخاصة ...

و إذا كان هذا الأمر يوحي إلى نوع من التداخل و التعقد في الفكر السوسري، فإن ذلك يدل – حسب ظني- إلى رغبته في الشمول، أي في وضع نظرية لسانية شاملة و مستقلة عن الاعتبارات الفلسفية والنفسية السابقة ...ولعل ما ظهر من مدارس لسانية ومذاهب ونظريات خاصة، ليس سوى دليل على ضرورة الاحتفاظ بمبدأ الشمولية الذي توخاه دي سوسير من الدرس اللساني، وكذلك على إمكانية دراسة الظاهرة اللسانية من أكثر من زاوية، من دون خروج عن نطاق هذه الظاهرة.

يقول الدكتور **ميشال زكريا** موضحا هذه الحقيقة: « يقول دي سوسير إن الهدف الأساسي وهو الوحيد للدراسة الألسنية ينحصر في دراسة اللغة كواقع قائم بذاته و لذاته. و قد لفت الانتباه إلى إمكانية النظر إلى اللغة من أكثر من زاوية واحدة. فيمكن اعتبار اللغة وسيلة تعبير و تواصل من حيث وظيفتها الأساسية، أما من حيث شروط وجودها فيمكن النظر إليها كمحتوى تاريخي ثقافي. أما من حيث نظامها الذاتي فيمكن اعتبارها كتنظيم من الإشارات. و قد عبر عن تعدديـــة النظرة إلى اللغة بواسطة مفاهيـــم عديـدة كان له السبــق في وضعها » [01] .

كانـــت هذه أغلب المنطلقات النظرية التي قامت عليها مدرسة جنيف – و غيرها من المدارس البنيوية الأخرى – التي انبثقت من تعاليم دي سوسير، و اكتسبت صورتها النهائية من عمل تلامذته الذين « استطاعوا أن يوجدوا نحوا منطقيا و نفسيا انطلاقا من القاعدة التـي جاء بـها أستـــاذهم فـــي محاضـــراته » [02] . و على الرغم من ذلك فقد كانت لهم اهتمامات خاصة بقضايا اللسانيات جعلتهم ينفردون بوجهات نظرة مميزة، سأتعرف عليها متابعة مع أعمال بعض مؤسسيها.

* **شارل بالي** (Chales Bally): باحث لساني سويسري ولد بجنيف، و هو فيلولوجي مختص في الإغريقية و السنسكريتية، اهتم باللسانيات الوصفية (الآنية)و البنيوية، و بعد استيعابه لمعظم

---

[01] ينظرعبد الرحمن الحاج صالح، "اللسانيات"، المجلد الثاني، العدد (01)، ص: 54، و أحمد عزوز، "المدارس اللسانية – أعلامها، مبادئها و مناهج تحليلها للأداء التواصلي"، دار الأديب للنشر و التوزيع، ط(01)، وهران – الجزائر، 2005 ، ص: 94 و ما بعدها.

[01] ميشال زكريا، "الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ و الأعلام"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط (02) لبنان ، 1983 ،ص: 225.

[02] الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية – دراسة تحليلية ابستمولوجية"، ص: 95.

مفاهيم دي سوسيـــــر و تمثلها عكف على دراسة الأسلوب الذي أصبح مختصا فيه، فأرسى قواعد الأسلوبية المعاصرة ابتداء من سنة 1902، من مؤلفاته: مختصر الأسلوبية (1902)، اللسانيات العامة و اللسانية الفرنسية (1932) اللغة و الحياة ... [03] و لقد اشتهر **بالي** بما قدمه من إسهامات هامة في علم الأسلوب (Stylistique)، حيث اعتبر مؤسس الأسلوبيات العقلانية (Stylistiques Rationnel) « و يقصد بها فحص التعبيرات اللســـانية بوجه عـــام و قامت معظم ملاحظاته على أساس من الأسلوبية المقارنة» [04] .

و بالإضافة إلى ذلك فقد تبنى بالي ثنائية اللغة و الكلام لدي سوسير، و قام بمناقشتها و تطويرها من وجهة نظر خاصة تعمل على إعطاء صبغة جديدة للطرف الثاني من هذه الثنائية ألا و هو الكلام، « ذلك القطاع الهام الذي سكتت عنه محاضرات دي سوسير استجابة لضرورة منهجية اقتضاها التوجه الصارم للدراسة البنيوية عنـــــده» [01] .

و من خلال نظرة بالي الجديدة للكلام باعتباره ظاهرة فردية، و ليست واقعة اجتماعية مثل اللسان طور بالي نظريته الخاصة بالتحقيق (أو الإنجاز) (Actualisation) ، « تستهدف هذه النظرية عن طريق تحويل اللغة إلى الكلام، تحويل المفاهيم المجردة إلى مفاهيم تتصل بالواقـــع ، أي تحويـــل الإفتراضـــي (Virtuel) إلى المنجز (Actualisé) » [02] .

ما فهمته من هذه النظرية هو أن الكلام باعتباره النشاط العضلي الصوتي المفرد، الصـــادرة عـن وعي و عن نتاج فردي كامل: يمكن القول حينئذ أن اللغة عبارة عن مجموعة من المفاهيم الافتراضية (Virtuels)، نتيجة لأنها تتكون من مجموعة من المفردات العامة الخاضعة للوقائع الاجتماعية التي تمارس عليها، و الكلام – عكس اللغة- يمثل الاستخدام الفعلي للمفرادات اللغوية في الواقع ،و بذلك فهو يحول هذه المفردات من مفاهيم تجريدية افتراضية تتصف بالتعميم المطلق إلى مفاهيم فعليـــة منجـــزة أو متحققة في الواقع و قام بالي بتأسيس نظرية عن المناقلة السينتاجمية و

---

[03] ينظر أحمد عزوز، "المدارس اللسانية"، ص: 94،95 و أحمد حساني، "مباحث في اللسانيات"، ص: 51.
[04] وفاء محمد كامل، "البنيوية في اللسانيات"، عالم الفكر، المجلد (26) ، العدد(02)، ص: 232.

[01] الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 95-96.
[02] المرجع نفسه ، ص: 96.

الوظيفية (Syntagmatic and Functional Tansposition) و تعني هذه النظرية بالمبادئ التي تحكم عملية تغيير العلامة اللغوية لوظيفتها النحوية دون أن تغير من معناها المعجمي الأساسي [03] .

بمعنى أنه يمكن أن تكون هناك كلمتين مختلفتين أو مجموعة من الكلمات المختلفة في الوظيفة النحويـــة و لكنها تملك نفس المعنى المعجمي، « و مثال ذلك في اللسان الفرنسي نقل الصفة(Adjectif)إلى موضع الاسم الموصوف(Substantif)لتؤدي وظيفته كما في المثال التالي: (le bleu du ciel)» [04] فالكلمتين (Adjectif)و (Substantif)مختلفتين في الوظيفة النحوية و لكنهما تحملان نفس الدلالة المعجمية.

لقد أسفرت بحوث بالي اللسانية إلى ما أصبح يعرف فيما بعد بعلم الأسلوب، أو الأسلوبيات، هذا العلم الذي يقوم على وصف النصوص الأدبية انطلاقا من مناهج مأخوذة من علم اللغة. و لهذا يعتبره العديد من المفكرين منهجا لغويا في الأساس، نظرا لاعتماده على مبادئ اللسانيات.

و لم يقتصر أمر البحث في ثنائية (لسان / كلام) و غيرها من المنجزات اللسانية لدي سوسير على بالي وحده بل تبعه في ذلك العديد من المولعين بأفكار دي سوسير، و على رأسهم الباحث اللساني المتميز **هنري فراي**، الذي قدم بحثا رائعا في اللسانيات الوظيفية من خلال كتابه: (La grammaire des fautes) [01] . و كذلك **ألبرت سيشهاي**، الذي أعاد صياغة محاضرات دي سوسير، و اقتحم ميدانا خصبا تمثل في العلاقة بين علم النفس و اللسانيات .

و عموما « فإن خلفاء دي سوسير كانوا على رأس مدرسة جنيف و لاسيما شارل بالي (من 1913إلى 1939) و ألبرت سيشهاي (من 1939 إلى 1945) و من ثم هنري فراي. فهؤلاء اللسانيين الثلاثة كانوا قد تابعوا ثورتهم الخاصة، و لاسيما بالي الذي ابتعد نوعا ما في تفكيره اللساني عن دي سوسير، و كان ذلك عام 1940 »[02] . و بذلك فمدرسة جنيف هي مدرسة لسانية بنيوية تقليدية (كلاسيكية) و مؤسسها دي سوسير.

2- مدرسة براغ (l'école de Praque) :

2-1- التأسيس : تأسست مدرسة براغ عام 1926 ،حيث تم برئاسة الباحث اللساني التشيكي فيلام ما ثيسيوس **Vilem Mathesius** (1882-1942) تشكيل ما عرف باسم « حلقة براغ اللسانية» " Circle

---

[03] وفاء محمد كامل، "البنيوية في اللسانيات"،" عالم الفكر " ، المجلد (26) ، العدد (02)، ص: 232.

[04] ينظر الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 96.

[01] الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 97 .

[02] Griulio c. Lepschy," La Linguistique Structurale, " Traduit par: Louis Jean Calvet, Petite Publiothéque Payot, paris, 1976, p: 51

linguistique de pragne" و ذلك بمساعدة « جيل متحمـــس لأحدث المـذاهب اللسانية في ذلـــك الوقـــت ،و هي أفكار دي سوسير و بو دوان دي كورتوناي و مدرسة فورتوناتوف (fortunatoV)السلافية و كفل النجاح لهذا المشروع ما تمتعت به براغ من تقاليد راسخة في الفكر اللساني » [03] ،فكان من أهم ممثلي هذه المدرسة ما يلي

* اللغويين التشيك (بالاضافة إلى ما ثيسيوس) نجد :ترانكا (B.tranka) ،و ها فرانك (Havranekو فا شيك (j.vachek).

* اللغويين الروس المهاجرين و هم على التوالي : كارسفسكي (S.karcevakij).، و تروبتسكوي (N.trubetzkoy) و رومان جاكبسون(R.jakobson) - البولندي الأصل -« و لقد أثرت هذه المدرسة على التفكير اللغوي الحديث تأثيرا ربما يفوق تأثير أي جماعة لغوية في تاريخ علم اللغة الحديث» [04] .

و مما لاشك فيه أن مدرسة براغ تعد امتدادا من حيث الخلفية الفلسفيـة و المنهجية للمدرسة الروسية التي تأسست سنة 1916 و دليل ذلك أن أغلب الأعضاء البارزين في هذه المدرسة هم من النازحين الروس ،إضافة إلى أن الأسس الأولية لهذه المدرسة قد بدأت عام1920، و هو عام وصول اللغويين الروس إلى تشيكوسلوفاكيا و مساهمتهم مع اللغويين التشيك حينئذ في تطوير مجموعة من الأبحاث الهامة و الأطروحات الأساسية التي تم تقديمها إلى المؤتمر العالمي الأول للسانيات بلاهاي عام 1928، و هو نفس المؤتمر الذي ظهرت فيه مبادئ الفونولوجيا المعاصرة ، و لهذا سميت هذه المدرسة بالمدرسة الفونولوجية نسبة إلى هذا التخصص اللغوي، حيث « اتفق أعضاءها على اتخاذ الفكرة التركيبية و الوظيفية في اللغة كأساس في الدراسة اللغوية ،وإن اختلفوا في مجال التطبيق ،و في بعض التفصيلات » [01] .

و قدموا أعمالهم في بحث كامل يحمل عنوان :" النصوص الأساسية لحقة براغ ". و بعد عام كامل من صدور هذا العمل، قاموا بصياغة منهج دراستهم اللغوية في بيان أصدروه في مؤتمر اللغات السلافية سنة 1929 و ركزو على العلاقة بين المنهج الوصفي و المنهج التاريخي، و في عام 1930، نظمت في براغ جمعية عالمية الأبحاث اللسانية شارك فيها عدة ممثلين و تم فيها الاتفاق على تأسيس حلقة خاصة بالدراسات الفونولوجية، و في المؤتمر العالمي الثاني للسانيات المنعقد بجنيف عام 1931، تم تخصيص جلسة اجتماع كاملة و خاصة بموضوع الأبحاث الفونولوجية، وقد حازت على

---

[03] وفاء محمد كامل، " البنيوية في اللسانيات "، " عالم الفكر " ، المجلد (26) ، العدد (02) ،ص : 232.
[04] أحمد مختار عمر ، "محاضرات في علم اللغة الحديث" ، ص: 167 .
[01] أحمد مختار عمر ، "محاضرات في علم اللغة الحديث" ، ص: 167.

رضى و قبول بعض الجماعات و الهيئات اللسانية العالمية و منها مدينة أمستردام التي قررت احتضـــــان المؤتمـر اللاحــق و الخاص بالأعمال الفونولوجية فيها، و ذلك عام 1932.

و العمل بالتالي على تقديم مختلف النتائج التي تم الحصول عليها في الدراسات الفونولوجية. و هذا ما ساعد الأبحاث الصوتية عامة على الانخراط سريـعا و بصفة أكيدة في الحلقات الخاصة بالدراسات اللسانية.

فالنظريات الخاصة بمدرسة براغ، فيما نستطيع تسميته بمرحلتها الكلاسيكية، تتجلى في المجلدات الثمانية الأولى المسماة "بالأعمال اللسانية لحلقة براغ"، سواء تلك المنشورة في السنوات مابيـن 1929و 1938أو في الأعمال الأخرى المنشورة للحلقة و في النشاطات العلمية لأعدادها [02] .

و هذا يعني أن تطور نشاط حلقة براغ ظهر بصفة خاصة في السنوات العشر الأولى من تاريخ تأسيسها، ثم توقفت أعمالها تماما لبضع سنوات نتيجة نشوب الحرب العالمية الثانية، و فرار جاكبسون من أيدي النازيين، و موت تروبتسكوي عام 1939 و غلق جامعات تشيكوسلوفاكيا عند نهاية عام 1939، ثم موت ماثسيوس قبل نهاية الحرب في أفريل 1945. و هذا ما أدى إلى حلها كهيئة علمية في 1953، و لكنها تجددت في عام 1964 من خلال بعض الأعمال الوظيفية [03] .

---

[02] Voir Giulio C. Lepschy," La Linguistique Structurale", p: 58

[03] ينظر أحمد مختار عمر، "محاضرات في علم اللغة الحديث"، ص:167 و أحمد عزوز، "المدارس اللسانية" ص: 111.

و لهذا فإن مدرسة براغ، رغم قلة إمكانياتها و حداثة عهدها، فقد حققت لنفسها شهرة عالمية في فترة وجيزة و استطاعت أن تغزو ميادين علم اللغة بكل جدارة و ثبات.

2/2- مبادئها و أفكارها اللغوية: تقوم مدرسة براغ اللسانية على عدة مبادئ أو مرتكزات أساسية في البحث اللساني، ومن أهمها ما يلي:

1/2/2- التركيز على الجانب الوظيفي في اللغة و دراستها: يقوم منهج الدراسة اللغوية في مدرسة براغ على الاهتمام بدراسة نظام اللغة الكلي بمستوياته المختلفة الصوتية، و التركيبية، و الصرفية و الدلالية دراسة وظيفية محضة [01]، و مما لاشك فيه أن الاتجاه الوظيفي في اللغة قد بدأ يبرز إلى الوجود و تتكون ملامحه في حلقة براغ، التي استفادت و تأثرت بآراء دي سوسير في هذا المجال. و كلنا يعلم أن المنهج اللساني البنيوي عند دي سوسير يقوم على فكرة النسق أو النظام (Système) ، و التي تعني أن اللغة عبارة عن نظام من العلامات أو الوحدات اللسانية التي يقوم بينها عدد من العلاقات تربط بعضها ببعض، فإذا تغير عنصر كان لهذا التغير أثر على النظام كاملا.

ثم إن دي سوسير يحدد الوحدات اللسانية داخل هذا النظام بالاعتماد على السمات التي تختلف فيها عن غيرها من الوحدات، أي ما يميزها عنها في نطاق النظام، و ليس تحديدها انطلاقا من السمات و الخصائص الايجابية التي تميزها هذه الوحدات. و من ثم فإنه عن طريق عنصري التقابل و الاختلاف قد تمكن دي سوسير من تحديد الوحدة اللغوية في داخل النظام اللساني، و على هذا الأساس قام المبدأ المنهجي في الدراسة اللسانية الوظيفية عند مدرسة براغ.

يقول **جيفري سامبسون** موضحا هذه الحقيقة: « الصفة المميزة لمدرسة براغ، اللغوية هي أنها نظرت إلى اللغة في جانبها الوظيفي. أعني بهذا أن أعضاء مدرسة براغ فقط فكروا أو نظروا إلى اللغة على أنها تعمل ككل من أجل خدمة الهدف، و هي الحقيقة التي تميزهم عن غيرهم و لكن لأنهم حللوا لغة معينة بصورة تبين الوظائف الخاصة التي تقوم بها المكونات البنيوية عند استعمال اللغة الكلية» [02].

و هذا ما أدى إلى تميز المدرسة الوظيفية (مدرسة براغ) عن المدارس اللغوية الأخرى، نتيجة قولها بالجانب الوظيفي في الدراسات اللسانية. « و إذا كان دي سوسير قد ذهب إلى القول بأن

---

[01] أحمد مومن، "اللسانيات – النشأة و التطور"، ص: 136.

[02] جيفري سامبسون، "المدارس اللغوية – التطور و الصراع -"، تر: أحمد نعيم الكراعين، ص: 106-107.

اللغة نظام من العلامات فإن مدرسة براغ ترى أن للغة نظام من الوظائف، و كل وظيفة نظام من العلامات» [03].

و من المعلوم أن فكرة النظام هي قضية محورية في التيار البنيوي، تولدت عنها عدة مفاهيم منها التمييز بين الدراسة التاريخية (التعاقبية) و الدراسة الوصفية (الآنية)، ذلك أن التحليل العلمي المنظم لأي لغة إنما يتحقق عن طريق الفحص التزامني فقط ، كما لا يمكننا إدراك العلاقة بين عناصر النظام الواحد إلا بأخذ ما في زمن معين، و كذلك التمييز بين اللغة (Le Langage) و الكلام (La Parole) لأنه من الصعب البحث عن العلاقات بين عناصر النظام في الكلام نظرا إلى صعوبة تجريده من كل ما يحف به من معطيات غير لسانية منها ما يرجع إلى الفرد ذاته، و منها ما يرجع إلى ظروف الكلام و ملابســـاته، و كذلك اعتمد البراغيون هذا التمييز السوسري بين اللغة و الكلام، في التفريق بين المصطلحين المعتمدين في الدراسات الصوتية، ألا و هما مصطلحي (الفونتيك) و (الفونولوجيا)، « فالكلام يقابل مصطلح الفونتيك الذي يدرس أصواته و اللغة تقابل مصطلح الفونولوجيا » [01] .

و من الملاحظ أيضا أن مدرسة براغ قد استفادت من الآراء اللسانية البنيوية لدي سوسير بدايــة و من ثم استغلت منطلقاتها النظرية في أعمالها و كونت لنفسها نظرية لسانية خاصة بها. و لعل النظرية الوظيفية (Théorie Fonctionnel) أبرز دليل على ذلك، و هذا - في اعتقادي – ما دفع بالعديد من الباحثين إلى نسب هذه المدرسة اللسانية إلى منهجها و تسميتها بالتالي بالمدرسة الوظيفية، و أصبح التركيز – منذ ذلك الوقت – على الجانب الوظيفي في الدراسات اللسانية واحد من أبرز الاتجاهات الثابتة لهذه المدرسة، رغم التطورات الكبيرة التي شهدتها. و على كل حال فقد شملت أعمال هذه المدرسة المجالات التالية:

وظيفة اللغة في المجتمع، و الوظيفة الجمالية للغة و دورها في الأدب و الفن و المجتمع و الأسلوبية اللسانية الوظيفيــة، و تصنيف التضاد الفونولوجي و غيرها من النشاطات التي تدخل في إطار الحياة العلمية (النظرية) و الاجتماعية، و هذا ما جعل لغويي براغ يتمتعون بمكانة عالية، سواء في المجتمع التشيكي، أو في تأثيرهم على الحياة الاجتماعية بعامة، و لعل ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى عدم اقتصارهم - كما قلت- « على المشكلات اللغوية ذات البعد النظري العلمي فقط، بل ركزوا على المشكلات اللغوية ذات العلاقة بالمستوى الاجتماعي، و من أمثلة ذلك : اللغة المعيارية، و التخطيط اللغوي،و عمل المعاجم الأحادية اللغة، و لهذا يقول فاشك vachek :" أعضاء الحلقة اللغوية لم يقصروا

---

[03] أحمد مومن، "اللسانيات- النشأة و التطور-" ، ص: 136 .

[01] أحمد عزوز، "المدارس اللسانية"، ص: 113 .

أنفسهم على مشاكل من النوع النظري العالمي، و لكن ناقشوا كذلك بهمة فائقة مشاكلهم الخاصة المحلية، و طبقوا نتائجهم عليها » [02] .

و قد ركزت مدرسة براغ في اهتماماتها الوظيفية على تحديد اللغة و اعتبارها وسيلة تواصل هامة بين البشر،فكل ما يضطلع بدور في التواصل ينتمي إلى اللغة و كل ما ليس له مثل هذا الدور فهو خارج عنـها و لذلك فقد نادت حلقة براغ إلى ضرورة « الانطلاق ،في التعامل مع اللغة من مبدأ اعتقادها ظاهرة طبيعية، وواقعا فعليا خاضعا لظروف مبدأ التواصل» [01] .

و قد اعتمدت مدرسة براغ هذا المبدأ لتدرس خاصة الأصوات و تضبط منهجها للتمييز بين ما هو وظيفي فيها و ما ليس وظيفيا مستثمرة في ذلك مفاهيم دي سوسير في الدراسة الوظيفية للصوت اللغوي.

و قد ظهر هذا العمل الفونولوجي الهام و لأول مرة مع تروبتسكوي (Troubetzkoy) في كتابه "مبادئ الفونولوجيا" – سأتحدث عنه لاحقا في موضعه إن شاء الله – غير أن النظرية الوظيفية لم تتبلور في كل مظاهرها مع حلقة براغ، فقد صقلت مبادئها و تواصل بناءها مع **أندريه مارتينه** في فرنسا.

2/2/2- التمييز بين المنهجين التزامني و التاريخي في دراسة اللغة: من المعلوم أن اللسانيات الوظيفية تندرج من التيار البنيوي المتولد عن موقف نقدي من النظرية التاريخية ، هذا الموقف الذي يدعو إلى تبني المنهج الوصفي في الدراسات اللسانية ، فاللغة باعتبارها مؤسسة اجتماعية فهي تخضع للتطور و التغير و كذلك باعتبارها نظاما يتحرك به الألسنة بطريقة معينة لتتمكن من التواصل ، فلهذا السبب بالذات ينبغي أن يدرس هذا النظام في ذاته و لذاته ، حتى يتم تحقيق هذه الغاية في ظروف حسنة . و هذا ما جعل دي سوسير يصطلح على المنهج الوصفي بالآنية(synchronique)، لأنه يمكن من دراسة اللغة في زمن معين و هذا ما يساعد على فهم نظامها فهما جيدا ، بعكس المنهج التاريخي(Historique)الذي لا يعد و أن يطلعنا على أكثر من تطور اللغة و تغير شتات عناصرها عبر التاريخ .

و كان العلامة التشيكي فيلام ما ثيسيوس (vilem mathesiss) أوّل من نادى بالتفرقة بين المنهجين الوصفي (الآني) و التعاقبي (التاريخي) عند البراغيين ،« و قد ظهرت بذور هذه التفرقة في المحاضرة التي ألقاها (Mathesius)في السادس من فبراير 1911 باللغة التشيكيـة أمام(Royal learned society)(...) و يقول (vachek)عن محاضرة(Mathesuis)السابق الإشارة إليها : المحاضرة تدافع

---

[02] ينظر أحمد مختار عمر، "محاضرات في علم اللغة الحديث"، ص: 177 .

[01] الطيب دبة ، " مبادئ اللسانيات البنيوية " ، ص: 103.

بطريقة مقنعة فصيحة عن المنهج التزامني لظاهرة اللغة و هو المنهج الذي أصبح معروفا في مجال علم اللغـــة بعد أن نشـــر (De saussur)كتابة المسمى(Cours de linguistique generale).

و لكن مع الأسف لم تعرف محاضرة(Mathesius) لأنها لم تنشر بلغة عالمية إلا مؤخرا حيث ترجمت إلى الأنجليزية في الستينيات . و يدل على قيمة هذه المحاضرة و سبقها لعصرها تعقيب(R .jakobson)عليها حين اطلع عليها لأول مرة في منتصف العشرينيات،و هو قوله: لو أن(Mathesius)ألقى محاضراته في موسكو وليس في براغ لسبب هناك ثورة حقيقية في علم اللغة... » [01]

ومن ثم فإن نظرة لسانيي براغ إلى المنهجين التزامني و التاريخي في الدراسات اللغوية تقوم على عدّة أسس، من أهمها:

1- الاهتمام بالمنهج التزامني (الوصفي) في الدراسة اللغوية، لأنه يمكننا من التحليل العلمي المنظم لأي لغة كانت، بدائية أم متحضرة.

2- العمل على رصد الخصائص اللغوية لكل لغة في مراحل مختلفة من تطورها على أساس تزامني.

3- عند عمليات المقارنة اللغوية بين اللغات لابد والاعتماد على أسلوب المقارنة التحليلية للغات ذات النماذج المختلفة من دون إشارة إلى علاقاتها التاريخية.

4- وبالنسبة للغات الحية، فإنه ينبغي العمل عليها في المرحلة المعاصرة لأنها المرحلة الوحيدة التي تقدم للباحث مادة واضحة كاملة.

5- الاهتمام بالدراسات الصوتية في ضوء المنهج التزامني. ومن أمثلة هذه الاهتمامات« دراسة الفونيم ضمن منهج اللسانيات التاريخية من خلال الإسهام في تطوير مهم لنظرية النحاة المحدثين المتصلة بقوانين التطور الصوتي، تلك النظرية التي لم يتجاوزوا فيها دراسة الأصوات بوصفها أجزاء صوتية مستقلة. ولما جاء فونولوجيو براغ تنبهوا إلى أن التغيرات الصوتية لا تحدث تاريخيا(لا يؤثر السابق في اللاحق بمعزل عن النظام الكامن فيه- أفقيا- كل منهما) بل إنها(أي التغيرات) تتم من الوجهة البنيوية- في ظـــل علاقـــات التأثر والتأثير داخل البنيـــة المتكاملـــة و المتوضعة في إطارها التزامني» [02].ومدرسة براغ قد سعت- عموما- إلى توجيه الدراسة اللسانية وجهة وظيفية في ضوء المنهج التزامني.

---

[01] أحمد مختار عمر، "محاضرات في علم اللغة الحديث"، ص: 175.

[02] الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 103.

2 /3/2- التحليل الفونولوجي ونظرية الفونام: لقد تمتعت مدرسة براغ بقدر كبير من الاستقلالية من ناحية، وبقدر كبير من التفاعل الداخلي والخارجي من ناحية أخرى، وهذا ما مكنها من بناء نظريات لسانية ذات منهج علمي صارم جعلها تتبوأ مكانة هامة ومتميزة في الدراسات اللسانية الحديثة، وأن تحظ بشهرة عالمية ربما لم تحظ بها بقية المدارس اللسانية الأخرى خارج إطار عملها الزماني والمكاني. ولعلني أقصد بهذا الدراسة الفونولوجية،« فقد أطلق لغويو براغ على منهجهم الخاص بالدراسات الصوتية اسم الصوتيات الوظيفية(Phonology)»[01]، فماذا تعني الفونولوجيا وما علاقتها باللسانيات وبالبنيوية ؟

الفونولوجيا Phonologie/Phonology: علم يبحث في الأصوات اللغوية من حيث خصائصها الوظيفية في الخطاب، فموضوعه هو الأصوات في تأليفها وتركيبها أثناء الأداء الفعلي للكلام، ومن الباحثين من يعرفه قائلا:« الفونولوجيا أو علم وظائف الأصوات اللغوية يدرس الصوت الإنساني في تركيب الكلام ودوره في الدراسات الصرفية والنحوية والدلالية في لغة معينة، كدراسة أصوات اللغة العربية ودورها في الصرف العربي وفي تركيب اللغة العربية ودلالاتها» [02] ، في حين يعرفه الدكتور ميشال زكريا قائلا: «هو مجموع الدراسات التي تبحث في تنظيمات الفونومات الخاصة باللغات المعروفة» [03]

ما أمكنني ملاحظته من خلال هذين التعريفين، أن الصوت هو محور الدراسة الفونولوجية ليس كعنصر معزول أو جزئي، بل في علاقته مع مجموع الأصوات، و بذلك فلا يتأتى دراسة المعنى الوظيفي للنمط الصوتي، ضمن نظام اللغة الشامل، إلا بالعمل على الفونيمات Phonèmes التي تتكون منها هذه الأصوات ... و لذلك فعلم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا) يختلف عن علم الأصوات اللغوية (الفونتيك) (La Phonétique)، الذي هو: « مجموع الدراسات التي تعالج أصوات اللغة وكيفية النطق بها و طبيعتـــــها الفيزيائية» [04].

أي أنه علم يدرس الأصوات البشرية بمعزل عن الوظائف اللغوية التي تؤديها هذه الأصوات و يعد علما قديما بالقياس إلى علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا)، حيث بدأ هذا العلم ينشأ و يتطور منذ بدأ الاهتمام بملاحظة الظاهرة الصوتية بجانبيها الفيزيائي و الفيزيولوجي . و أخذ يكتمل بفضل

---

[01] أحمد مومن، "اللسانيات – النشأة و التطور"، ص: 137

[02] عصام نور الدين، "علم وظائف الأصوات اللغوية - الفونولوجيا"، دار الفكر اللبناني للطباعة و النشر، ط[01]، لبنان، 1996، ص: 24 .

[03] ميشال زكريا، "الألسنية – علم اللغة الحديث – المبادئ و الإعلام"، ص: 209 .

[04] المرجع نفسه ، ص : 209.

توافر نتائج علمية في رحاب معارف إنسانية مختلفة مثل: علم التشريح (Anatonmy) و علم وظائف الأعضاء (Phisiology)، و علم الطبيعة (Physique)...

و يعرفه الدكتور عبد القادر عبد الجليل قائلا: « يدرس علم الأصوات الصوت الإنساني عامة باعتباره مادة حية ذات تأثير سمعي. إن هذه الدراسة لا تشمل بطبيعتها النظر في الوظيفة الصوتية و لا القوانين التي تحكم بنيتها إنها تنصب على الكيفية التباينية لطبيعة الإنتاج الصوتي و انتقالاته و من ثم استقباله » (05).

فهذا يعني أن الفونتيك هو الدراسة العلمية الموضوعية التي تهدف إلى تقديم التفسير الكافي للأثر الصوتي من الناحيتين الفيزيائية و الفيزيولوجية، فمن واجب هذا العلم، إذن أن يدرس ثلاثة مسائل رئيسية:

1- إحداث المتكلم للصوت، أو حركات المتكلم التي تحدث الصوت، و هذا الفرع يسمى الدراسة الصوتية الفيزيولوجية أو النطقية(Phonétique Articulation).

2- إنتقال الصوت في الهواء، أو دراسة الموجات الصوتية، و هذه الدراسة تعرف بالدراسة الصوتية الفيزيائية أو الأكوستيكية(Phonétique Acoustique)

3 – استقبال أذن السامع للصوت، أو الدور الذي تقوم به أذن السامع لاستقبال الصوت، و تعرف هذه الدراسة بالدراسة الصوتية السمعية(Phonétique Auditive)

كما يهتم علم الأصوات بإجراء التجارب المختلفة على الصوت بواسطة الآلات الحساسة الحديثــة و لذلك سمي هذا الفرع بالفونتيكا الآلية(Phonétique Instrumentale)أو الفونتيكا المعملية أو المخبرية (Phonétique Laboratoire) (01) .

و من الباحثين من يحاول التفريق بين العلمين أي الفونولوجيا و الفونتيك، بالرغم من أن كلاهما يبحث في أصوات اللغة و إن اختلفت أساليب البحث و جوانبه في كل منهما بحسب وجهات نظر الدارسين فالفونتيك يعنى بالمادة الصوتية لا بالقوانين الصوتية و بخواص هذه المادة أو الأصوات بوصفها ضوضاء لا بوظائفها في التركيب الصوتي للغة من اللغات ، أما الفونولوجيا ، فهو يعنى بالمادة الصوتية أيضا و يخضعها للتقعيد و التقنين.

أي أنه يبحث في الأصوات من حيث وظائفها في اللغة ، و كلا الجانبين من صميم الفونولوجيا . يعرف **ترنكا(** Tranka) ـ أحد رواد مدرسة براغ ـ الفونولوجيا قائلا :« عندما تبدأ الدراسة

---

(05) عبد القادر عبد الجليل ، " الأصوات اللغوية "، دار صفاء للنشر و التوزيع ، (دـ ط) ، الأردن ، 1998، ص : 21.

(01) ينظر عبد القادر عبد الجليل ،" الأصوات اللغوية " ، ص : 44 ، 45 و حنفي بن عيسى ،" محاضرات في علم النفس اللغوي "، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط (05) ، الجزائر ، 2003 ، ص : 91 و ما بعدها .

من الصورة الصوتيـــة و تندرج في طريقها حتى تصل إلى القوانين المجردة فإنها تجد نفسها في مجال الفونولوجيا أما إذا أخذت طريقها هذه المرة من القوانين المجردة و صارت في عملها حتى وصلت إلى الصورة الواقعية للأصوات فإنها تجد نفسها في مجال الفونتيك ... إننا إذا علمنا أن الفونتيك إنما يختلف فقط عن الفونولوجيا في انتهاج طريق مخالف في سير الدراسة أدركنا أن مشكلة الحدود الفاصلة بين الظواهر الفوناتيكية و الفونولوجية أصبحت غير ذات موضوع ، لأن هذين النوعين من الظواهر متكاملان و متعاونان في سبيل تحقيق أهدافها الفردية و الاجتماعية » [02].

ما أمكنني إدراكه من هذا القول هو أن **ترنكا**، و إن كان يركز على ظاهرة التكامل و التوحد بين الفونتيك و الفونولوجيا و لا يرتضي الفصل التام بينهما بل و يؤكد شدة ارتباط أحدهما بالآخر ، يدرك أن موضوع الفونولوجيا هو تقنين و تقعيد المادة الصوتية . و يعد علم الأصوات اللغوية (الفونتيك) علما قديما بالقياس إلى علم وظائف الأصوات اللغوية (الفونولوجيا) ، و بالتالي فإن مصطلح (Phonétique) أكثر شيوعـــا و استعمالا من مصطلح (Phonologie) و أوسع منه في التطبيق أيضا ، و ظل الأمر كذلك حتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا ، و لما تقدم الدرس الصوتي بفضل الجهود المتواصلة و مساعدة الأجهـــــزة و الآلات استطاع العلماء أن يقفوا على حقائق صوتية لم تكن معروفة لهم من قبل و اكتشفوا أن للصوت جوانب يقتضي كل جانب منها النظر بأسلوب يختلف عما يتبع في الجانب الآخر، ووجدوا أنه من الأنسب أن يخصص فرع من العالم أو منهج من الدرس لكل من هذه الجوانب أو لكل مجموعة منها، و بذلك وزعوا الدراسة الصوتية على هذين الفرعين الذين يأثر العديد من اللغويين على تسميتهـــــا بالفونتيـــك و الفونولوجيا .... و مهما يكن من أمر فإن الفونولوجيا تبحث في الأصوات من حيث خصائصها الوظيفية في الخطاب بمعزل عن طبيعتها الفيزيائية و الصوتية الفيزيولوجية ...و لذلك فإن العنصر الصوتي الذي يشكل موضوع الفونولوجيا هو **الفونام** (Phonème)فما هو الفونـــــــــام؟

لقد تعددت التعاريف التي صاغها الأصواتيون للفونـــام و تباينت من باحث لآخر من مدرسة لغوية لأخرى، وقد صرح بذلك اللغوي الإنجليزي **دنيال جونز** قائلا: « كل التعاريف التي سمعت بها يمكن مهاجمتها و لا أظن أنه من الممكن أن أقدم تفسيرا لا يترك منفذا للشذوذ و الاستثناء[01]».

و أنا لست بصدد تقديم عرض مفصل حول بعض وجهات النظر في الفونيم و ليس هذا بموضوعي غير أني سأركز على وجهة نظر مدرسة براغ، هذه المدرسة التي تعد رائدة في الدراسة

---

[02] كمال محمد بشر، "علم اللغة العام- الأصوات -"، دار المعارف للنشر، ط[01]، مصر، 1971، ص: 49.
[01] عبد القادر عبد الجليل، "الأصوات اللغوية"، ص:97.

الصوتية عامة و الدراسة الوظيفية للأصوات (الفنولوجيا) بخاصة، انطلاقا من اعتبارها الفونيم هو وحدة هذه الدراسة« لم يتفق البراغيون أول الأمر على رأي واحد في تعريف الفونيم و مكوناته، و لكنهم اتفقوا أخيرا –أو كادوا- على تغليب الجانبين التركيبي و الوظيفي، و قل منهم من أشار إلى الجانب التوزيعي» [02] .

و مثال ذلك أن كل من **تروبتسكوي و جاكبسون** قد اتجها في تعريفهم الفونيم اتجاها عقليا متأثرين **ببودوان دي كورتوناي** Boudoin de Courtenay (1845-1929)، الذي عرف الفونيم « بأنه الصورة العقلية للصوت» [03] .

فهو من أنصار المدرسة العقلية النفسية التي ترى أن الفونيم صوت واحد له صورة ذهنية تجريدية ، يستطيع المتكلم استحضاره في ذهنه و يستطيع لا شعوريا أن ينطقها في الكلام الفعلـــي و قد ينجح في ذلك أولا ينجح و يعد بودوان دي كورتوناي من الناحية التاريخية المؤسس الفعلي لعلم الأصوات الوظيفي حسب رأي **جورج مونان** الذي قال: « يرجع اهتمامنا الخاص ببدوان في أيامنا هذه إلى كونه استكشف الطبيعة اللغوية للفونـــــــام» [01] .

غير أن تروبتسكوي و جاكبسون قد عدلا عن هذا الرأي فيما بعد واتجها اتجاها تركيبيا أو وظيفيا ينسجم مع الرأي السائد عند البراغيين، و من هذه التعريفات ما يلي:

1- **ما ثيسيوس**: الصوت المرتبط بمعان وظيفية.
2- **تروبتسكوي:** - أ- الوحدة الصوتية المتميزة/ ب- مجموع الملامح الفونولوجية الملائمة لتكوين الصوت / جـ - رمز لغوي يشترك في حمل معنى الكلمة، و تغييره بآخره يغير المعنى.
3- **جاكبسون**: أ- الملامح التميزية المتزامنة الموضوعة في حزمة واحدة / ب- مجموع الخصائص الصوتية المتصاحبة التي تستعمل في لغة معينة لتميز بين الكلمات ذات المعاني المختلفة.
4- **ترنكـــا:** أ- كل صوت قادر على إيجاد تغيير دلالي / ب- أصغر تجمع للكيفيات الفونولوجيا المتميزة التي مع تجمعات أخرى مماثلة تشكل الكلمة.
5- **فاشـــك**: المقابل الموضوعي المقابل الانتفاع به في اللغات، و الذي يتحقق واقعيا في مجموعة من الأصوات تشكل جميعا وحدة وظيفية [02] .

---

[02] أحمد مختار عمر، "محاضرات في علم اللغة الحديث"، ص: 184 .
[03] المرجع نفسه ، ص : 184 .
[01] جورج مونين، "تاريخ علم اللغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين"، تر: بدر الدين القاسم، ص: 30 .
[02] ينظر أحمد مختار عمر، "محاضرات في علم اللغة الحديث"، ص: 184.

ما أمكنني ملاحظته من خلال هذه التعريفات البراغية الخاصة بالفونيم، أن الفونيم هو محور الدراسة الصوتية الفونولوجية عندهم، و ذلك أنهم ينطلقون في تعريفاتهم هذه من منهج بحث لغوي واحد، ألا و هو المنهج التركيبي (أو الوظيفي)، و في اعتقادي أن هذه الآراء مجتمعة تقود إلى نتائج مماثلة أو متشابهـة و تؤدي إلى أهداف عملية واحدة يمكن تلخيصها على النحو التالي: « إن أفضل ما يمكن أن يقال في تعريف الفونام أنه أصغر وحدة صوتية غير قابلة للتجزئة» [03] ، فلو أخذت على سبيل المثال لفظة **جالس**، أرى أنها تتكون من:

جالس = (ج + أ) ⟵ ج

⟵ أ

(ل + س) ⟵ ل

⟵ س

هذه الوحدات الصوتية الأربعة (ج ، أ، ل، س) غير قابلة للتجزئة و يسمـى كل واحـد منـها فونيـم(Phonèmes) أو هو « أصغر وحدة صوتية تفرق بين المعاني» [01] مثال: (قلب - صلب) فالقاف و الصاد هما اللذان يفرقان بين معنى التركيب الأول و التركيب الثاني، إضافة إلى ذلك فإن الفونيم قد يحمل معنى دلاليا داخل التركيب بمعنى أن وظيفة الفونـام تكون إيجابية و سلبيـة، و تتحدد الوظيفـة الإيجابيـة أو الأساسية بتحديد مدلولات التراكيب اللغوية من مثل: قام، صام، عام، حام، رام .... فإذا قمنا بعملية استبدال موقعي للتراكيب سوف تتحدد إيجابية الفونـام.

مثل: نام ⟵ ن + (- ص) + أ + م

صام ⟵ ص + (- ن) + أ + م

أما الوظيفة الثانوية أو السلبية فإنها تتحدد في حفظ التباين بين هذه التراكيب بعضها عن البعض الآخر، مثل: (قام، نام، صام) نلاحظ أن الفونيمات (ق، ن، ص) قامت بوظيفة إيجابية، كما قامت بوظيفة سلبية تمثلت في حفظ التباين أو التنوع بين التراكيب و يتضح المثال أكثر في اللغة الإنجليزية.

لنأخذ العبارات الآتية: (Right, Night, Light) "Town, Down" ، "Pair, Bair" نلاحظ أن الفونيمات (B, T, D, N, L) حملت وظيفة إيجابية تمثلت في تحديد مدلولات التراكيب ووظيفة سلبية تمثلت في حفظ التباين بين هذه التراكيب.

---

[03] عصام نور الدين، "علم وظائف الأصوات اللغوية - الفونولوجيا"، ص: 61 .

[01] عبد القادر عبد الجليل، "الأصوات اللغوية"، ص: 98 .

و يعتبر الفونيم وسيلة مهمة في تسهيل تعليم و تعلم اللغات الأجنبية، فالأصوات الفعلية الحقيقية لأية لغة كثيرة إلى حد بعيد، و لكن فونيمات كل لغة تقل عن عدد الأصوات الفعلية بصورة ملحوظة، فالتعرف على الفونيمات (و هي قليلة العدد) أيسر سبيل إلى تعلم الأصوات المنطوقة بالفعل و هي كثيرة نسبيا [02]، و بذلك فالفونيم هو أصغر وحدة صوتية تفرق بين المعاني أو الدلالات – حسب وجهة نظر مدرسة براغ – و هو نوعان: فونيمات رئيسية و أخرى ثانوية، « و يعنى بالفونيمات الرئيسية ذلك العنصر الذي يكون جزءا أساسيا من الكلمة المفردة مثل: الباء و التاء و الثاء ...

أما الفونيمات الثانوية فهي ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى في الكلام المتصل » [03] فالفونيمات الثانوية – بعكـــس الرئيسية – لا تكون جزءا من تركيب الكلمة و إنما تظهر و تلاحظ فقط حين تظم الكلمة إلى أخرى أو حين تستعمل الكلمة الواحدة بصورة خاصة.

و لهذا سميت فونيمات النوع الأول بالفونيمات التركيبية أو القطعية(Phonèmes Segmentaux) و سميت فونيمات النوع الثاني بالفونيمات ما فوق التركيبية أو فوق القطعية(Phonèmes Supra Segmentaux)

فالفونولوجيا بذلك لا تقتصر على دراسة المصوتات (الصوامت و الصوائت)، بل تدرس عناصر أخرى ليست قطعا من السلسلة الكلامية و إنما تتعداها (و هذا يناسب التسمية الثانية)، أي أنها لا تدخل في جوهر التراكيب اللغوية، بيد أن لها تأثيرات موجهة للبني الوظيفية، و من أمثلة هذه الفونيمات الثانوية: النبر(Accent)و التنغيم (Intonation) « و هكذا قام رواد هذه المدرسة بتصنيف الأنظمة الفونولوجية بطرق مختلفة حسب السمات المميزة للفونيمات (...) و بفضل أعمال المدرسة براغ في هذا الميدان أصبح الفونيم أحد المقومات الأساسية للنظرية اللسانية عامة و للوصف العلمي و التحليل المنهجي لمختلف الظواهر اللغوية خاصة» [01] .

و الجدير بالذكر أن فونولوجيا مدرسة براغ تقوم على مبادئ اللسانيات البنيوية التي أرسى فردينان دي سوسير دعائمها، باعتباره (أي علم الأصوات) يدرس العلاقات القائمة بين الحدود و ليس الحدود منفصلة، و حيث تؤلف هذه العلاقات على أشكال التقابل و الاختلاف نوعا من التنظيم أو النسق المحكم بينها.

و مثال ذلك أن كل فونيم من فونيمات النسق (أو النظام) اللغوي يحتوي على عدد من السمات الخاصة به و التي تميزه عن باقي الفونيمات في داخل النظام. يقول الدكتور **إبراهيم زكريا** موضحا هذه الحقيقـة

---

[02] المرجع نفسه ، ص: 98 .

[03] كمال محمد بشر، "علم اللغة العام - الأصوات"، ص: 210 .

[01] أحمد مومن، "اللسانيات – النشأة و التطور"، ص: 138 .

« لا يسير هذا العلم على نهج تجريبي، انطلاقا من وقائع تم ملاحظتها، بل يسير على نهج منطقي استنباطي انطلاقا من نموذج قد تم تركيبه مما يسمح له بالوصول إلى قوانين عامة» [02] .

4/2/2-الدراسة التركيبية: مما لاشك فيه أن التركيبية Structuralism هي اتجاه في دراسة اللغة قد برز في أوائل القرن العشرين، و هي تسعى إلى تنظيم العلاقة بين جزئيات اللغة لتشكيل ما يعرف بالنسق (أو النظام)، و قد جرت العادة أن يؤرخ للبنيوية انطلاقا من فرديناند دي سوسير الذي صقل مبادئهـــــا و نظرياتها، و تفرعت بعد ذلك عن أفكاره و دروسه عدة مدارس و نزعات، لكن ما يجب ألا ننساه هو أن البنيوية الأمريكية قد ظهرت و ازدهرت بمعزل عن التفكير السوسري، و لذلك فقد مثل البنيوية في أوربا و أمريكا عدة مدارس من أهمها:

مدرسة جنيف و حلقة براغ اللغوية، و حلقة كوبنهاجن، و المدرسة الأمريكية اللغوية المرتبطة بأعمال اللساني الكبير ليونارد بلومفيلد ... مع اختلاف في الأساسيات و مناهج الدرس المتبعة في هذه المـدارس أو التجمعات اللسانية. و فيما يخص علماء اللغة البراغيين فقد « قدموا تصورا للتركيبية(Structuralism)يتصف بالسعة ، و كان من عوامل انتشار آرائهم خارج مجال علم اللغة . يقول Gravin في عرض تصورهم : " التركيبية ليست نظرية ولا منهجا . و لكنها نظرة إدراكية . إنها تبدأ من ملاحظة أن كل عنصر في نظام معين تتحدد صفته و شكله بالنظر إلى كل العناصر الأخرى في داخل نفس النظام ، و ليس له قيمة في نفسه منفردا . إنه لا يصير قاطعا و قابلا للتصنيف و التحديد إلاّ حين يندمج و يتحد داخل النظام، و يكون تركيبه مشكلا لجزء معين . و له مكانه الثابت المحدد"» [01] .

من الملاحظ أن هذا العرض يشبه إلى حد بعيد تعريف دي سوسير للبنيوية ، التي يرى فيها نظرة معرفية عامة ، تبدأ في السيطرة على الوحدات الصوتية الدنيا في داخل النظام اللساني مع أخذ المعنى في اعتباراته عند الوصف و القيام بتحليلاته الوظيفية ، كما يهتم بالبحث عن العلاقات الناتجة عن تتابع الوحدات و التي قد تكون محجوبة و غير ظاهرة . لذلك يقول فاشك Vachek : « أول أساس هام في علم اللغة التركيبي تصور اللغة كنظام مكوناته ذات علاقات متبادلة من جهات متعددة و يؤثر كل منها على الآخر» [02].

و الجدير بالذكر ـ أيضا ـ أن علوم الصوتيات بنوعيها الفونتيك و الفونولوجيا قد ظهرت إلى الوجود قبل التركيبية و يعود ذلك لعدة أسباب منها:

---

[02] إبراهيم زكريا، "مشكلة البنية – أو أضواء على البنيوية-"، ص: 10 .
[01] أحمد مختار عمر، "محاضرات في علم اللغة الحديث"، ص: 182.
[02] المرجع نفسه ، ص : 182.

1- لا يتجاوز عدد الفونيمات في كل لغة بضع العشرات ، و لذا يتسنى ضبطها و تحديد جداولها بدون كبير عناء نظرا لصغر حجم مادتها .

2- نتيجة لخلو هذه الفونيمات من أي دلالة أو معنى في ذاتها ، فهذا بالتالي ما يسمح بتفرعها و تنوع وظائفها .

و على هذا الأساس فقد ذكر ما ثيسيوس – زعيم حلقة براغ - في المقال الذي نشره عام 1936 بأن علم اللغة التركيبي (البنيوي) قد ظهر في أوربا و أمريكا قبل أن يبدأ عند البراغيين قائلا: « الأهمية الكاملة للتصور الوظيفي و التركيبي الجديد قد اعترف بها منذ أكثر من نصف قرن في شكل تصور طرحه النحاة المحدثون(Neogrammarians)، و لابد أن يعد الفونولوجي التركيبي مستقرا جدا الآن» [(03)]

و يعتبر اللساني الفرنسي **أندريه مارتينه**(André Martinet)، واحد من الذين ساهموا في تطوير الدراسة التركيبية (البنيوية) للغة ضمن مدرسة براغ، و تدل على ذلك مؤلفاته القيمة التي تبحث في المنهج البنيوي، و منها: اللسانيات الآنية (1970)، و مبادئ في اللسانيات العامة (1960)، و اللغة و الوظيفة (1970) و غيرها من المؤلفات، و النظريات التي أسس بها اللسانيات الوظيفية على المستوى التركيبي للغة. وعموما فإن أهم ما يميز البنيوية (التركيبية) البراغية، ما يأتي:

1. خلو اتجاههم من الغلو في التجريد كما فعل الجلوسيماتيون.
2. رفض الاتجاه الشكلي دون إشارة إلى المعنى كما فعل البلومفيلديون. [(04)]
3. التركيز على الجانب الوظيفي في اللغة و دراستها (اتجاهها الوظيفي عامة)
4. التمييز بين المنهجين التزامني و التاريخي في دراسة اللغة (مع إعطاء الأولوية للجانب التزامني كما رأيت)

5 – الاهتمام بتحليل البنية الأزلية البسيطة للغة وهو الفونام من أجل إبراز سماتها الوظيفية.

6- اعتبار اللغة ظاهرة طبيعية وواقعا فعليا خاضعا لظروف مبدأ التواصل.

7- استثمار مفاهيم دي سوسير في الدراسة الوظيفية و التركيبية (البنيوية).

<u>2 /3- الخلاصة</u>: تعتبر مدرسة براغ من أهم المدارس اللسانية ذات المنحى البنيوي في أوربا و إن كانت في حقيقتها امتدادا للمدرسة الروسية، ذلك أن جل الباحثين في هذه المدرسة هم من النازحين

[(03)] نفسه ، ص: 182.

[(04)] ينظر المرجع نفسه ، ص : 182 ، و الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 103 ،-104.

الروس (جاكبسون – تروبتسكوي – كارسفسكي ...) و قد ركزت هذه المدرسة على الطابع الوظيفي للغة سواء من الناحية النحوية أو الصوتية أو الدلالية، حيث يقوم التيار الوظيفي في الدراسات اللسانية الحديثة على ضرورة دراسة اللغة باعتبارها نظاما تتحرك به الألسنة بطريقة معينة لتتمكن من التواصل، و على هذا الأساس يجب دراسة هذا النظام في ذاته و لذاته لتفهم كيفية تحقيقه لهذه الغاية.

و كانت حلقة براغ أول من استعمل كلمة **"بنية"**(Structure) كمفهوم جديد، و ذلك سنة 1928 أين انعقد أول مؤتمر دولي للسانيات بلاهاي. و لقد استفادت هذه الحلقة كثيرا من آراء دي سوسير بقدر ما استغلت منطلقاتها النظرية في أعمالها و كونت لنفسها نظرية لغوية، يقول الدكتور صلاح فضل معبرا عن هذه الحقيقة: « ... لقد خطت حلقة براغ بالدراسات البنائية خطوات هامة، فجنحت إلى التخلص من الطابع الشكلي البحث و لم تعد قاصرة على الدراسات اللغوية و الأدبية، بل امتدت اهتماماتها إلى المجالات الاجتماعية و النفسية و الفلسفية دون أن تغفل علم اللغة كنموذج لهذه الدراسات (...) كما كان من علامات نضج حلقة "براغ" بالنسبة لتصوراتها البنيوية أنها لم تعد تحصرها على ما يلاحظ في الواقع المباشر فحسب، بل ركزت على العلاقات التحديدية النظرية و ما يمكن أن تفسره من علاقات فرضية » **(01)** .

و لقد طورت هذه المدرسة آراء دي سوسير البنيوية، لأنها لم تقتصر على الوصف العلمي، بل تعدته إلى التحليل الوظيفي و التفسير الواقعي، و أثبتت أن المناهج الفونولوجية صالحة للدراسات الآنيـــة و الزمانية على السواء. كما ارتبطت « بنائية براغ بنظرية "الظواهر" عند **"هوسرل"** الذي كان وثيق الصلة الشخصية بمفكري براغ و الذي اشترك في كثير من مؤتمراتهم. و قد ساعد هذا على الاعتراف بفكرة البنية النموذجية كمرحلة أولى في عملية توالد الظواهر تؤدي إلى اكتشاف كـــلية الكـــون ووحدتـــه و شموله» **(02)** .

وتضم أوروبا الغربية - على غرار مدرستي جنيف و براغ - عددا من المدارس اللسانية التي تكونت على يد لفيف من اللسانيين الأوروبيين أمثال : هلمسليف ، برونـدال ، فيرث ، وغيرهم ممن قرءوا محاضرات دي سوسير باهتمام و أدركوا وجاهة طروحاتها و أهمية الثورة اللسانية التي جاءت لها ، فتبنـــــــوها و سخروا أقلامهم لشرح مقولاتها و استثمار مفاهيمها و تعريف الدراسيين بها ... و من هذه المدارس أذكر - و لو باقتضاب – .

---

(01) صلاح فضل، "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، ص: 128 .

(02) المرجع نفسه ، ص: 128 .

3 - مدرسة كوبنهاغن : هذه المدرسة الدانيماركية التي تمركزت بكوبنهاغن واقترنت أساسا باسم لويس هيملسيف و بروندال [01] . و قد عرفت بالمدرسة الغلوسيمية ، أين حاولت توسيع المفاهيم السويسرية و ذلك في معالجة الظواهر اللسانية معالجة دقيقة على منوال العلوم الطبيعية والرياضية ، أي بالاعتماد على النماذج الرياضية و المنطقية ، و كذلك على المنهج التجريبي في دراسة جزئيات اللغة فاعتبرت هذه الدراسة أول تعميق منهجي و علمي لأراء دي سوسير اللسانية ، و أول عصرنة للدراسات اللغوية باستخدام المناهج العلمية و الرياضية [02] ...

كما حاولت دراسة الأصوات من حيث هي صور وأشكال ، دون الرجوع إليها كمظاهر مادية وسعت هذه المدرسة إلى استخراج النظام اللساني من المادة التي ينتظم فيها ، فالبنية في نظر هيلمسليف قابلة للانفصال عن ما تبنيه . يقول هيلمسليف : « إن المقصود باللغويات البنيوية هو مجموع الأبحاث التي تستند إلى فرض واحد مؤداه أنه من المشروع علميا وصف اللغة باعتبارها أولا و بالذات كيانا مستقلا من العلاقات الباطنية التي يتوقف بعضها على البعض الآخر ، أعني – بكلمة واحدة - " بنية " ... »[03] . و لذلك فقد عرفت هذه المدرسة بالمعالجة العلمية الدقيقة للغة ، من خلال الدراسة المنطقية المجردة .

4- المدرسة الروسية

إذا كانت النزعة "البنيوية الروسية" بالمعنى المحدد للكلمة – لم تظهر إلى حيز الوجود إلا عام 1928 و ذلك في المؤتمر العالمي لعلوم اللسان المنعقد بمدينة لاهاي بهولندا، عندما قدم كل من جاكبسون (Jackobson) كارسفسكي(Karcevesky)، و تروبتسكوي(Troubetzkoy) بحثا علميا يتضمن الأصول الأولى لهذه النزعة، و لم يلبثوا أن أصدروا بعد ذلك بيانا أعلنوه في المؤتمر الأول للغويين السلاف الذي انعقد في براغ عام 1929 استخدموا فيه كلمة "بنية" بالمعنى المستعمل اليوم، و دعوا فيه إلى اصطناع "المنهج البنيوي" بوصفه "منهجا علميا" صالحا لاكتشاف قوانين بنية النظم اللغوية تطورها" [04] .

---

[01] Patrick Guelpa , " Introduction à l'analyse linguistique ", Armand Colin / Masson , paris , 1997 , P : 131

[02] ينظر أحمد عزوز ، " المدارس اللسانية " ، ص: 138 و 157 .

[03] إبراهيم زكريا، "مشكلة البنية" ، ص:69 .

[04] ينظر المرجع نفسه ، ص: 43 ،44 .

فإن الأصول الأولى للحركة البنيوية الروسية قد تكونت في مدارس خاصة، عرفت بمدارس الدراسات السلافية التقدمية، و هي تمثل – في نفس الوقت – المدارس البنيوية الروسية التي لم تنبثق عن الفكر السوسري، و هي:

1/4-مدرسة قـــازان: رائدا هذه المدرسة هما: "جان بودوان دي كورتوناي" (1845-1929) و ميكـولاي كروسفسكـي (1851-1887) ، اللذان استطاعا أن يقدما أفكارا جليلة و ملاحظات هامة استطاعت أن تبشر ببعض سمات المنهج البنيوي، و تلتقي جل أعمال بودوان و كروسفسكي فيما يمكن تسميته بالدراسة اللسانية الحديثة للفونيم التي كانت بدايتها الأولى على أيديهما، إذ يرجع الفضل إلى بودوان دي كورتوناي في اكتشاف الطبيعة اللغوية للفونام، و يعد تلميذه كروسفسكي أول من استعمل مصطلح فونيم من أجل تعيين الوحدة الصوتية غير القابلة للتجزئة في مقابل الصوت الإنساني الذي يمكننا تحليل خصوصياته المتعلقة بنطقه لدى شخص ما [01]

و من الجدير بالذكر أن الباحثين اللسانيين بودوان دي كورتوناي و تلميذة ميكولاي كروسفسكي هم من أنصار النزعة التاريخية في الدراسات اللغوية، هذه النزعة القائلة بأن الطريقة العلمية الوحيدة لدراسة اللغة هي الطريقة التاريخية. غير أن هذين العالـــمين لم يقصرا في بحوثهما اللغوية على الجانب (أو المنهج)التاريخي البحت ؛ بل قاما بتطوير الأفكار اللسانية و بلورتها على أسس من المنهج الوصفي ، و من العمل الوظيفي للغة.

و بودوان دي كورتوناي هو لغوي بولوني، « ولد في مدنية فار سوفيا، أين بدأ دراسته التي تابعها ببراغ و إينيا و برلين، درس في الجـامعات سانت بترسبورغ في 1868، ثم في كازان من 1875 إلى 1883 و في (Dorpart) التي تسمى اليوم (Lourev) من 1890 إلى 1893 ، و في كراكوفيا بالنمسا من 1893 إلى 1899، ثم في بترسبورغ من 1920 فتوفي بها سنة 1929، و من خصاله وصفاته أنه يعد من الوطنيين المتحررين، و له أفكار تقدمية، و شجاع، و عرف السجن و دخله بسبب أفكاره في 1919» [02] .

و يعتبر بودوان دي كورتوناي من أكبر المؤثرين في الفكر اللغوي للعلامة فردينان دي سوسير لأن هذا الأخير كان قد اطلع على أبحاث دي كورتوناي – على الرغم من أنه كان مجهولا لدى أكثرية العلماء الغربيين – و التي ساعدته على وضع نظرية لسانية متكاملة و متماسكة جعلت منه أبا

---

[01] ينظر الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص:132،133 و جورج مونان، "تاريخ علم اللغة – منذ نشأتها حتى القرن العشرين"، ص:225، 226.

[02] أحمد عزوز، المدارس اللسانية"، ص: 86 .

روحيا للسانيات و رائدا من روادها بلا منازع. و لاشك أن جاكبسون و تربوتسكوي كانا مدينين أيضا لكورتوناي في كثير من آرائهما.

و قد اشتهر بودوان دي كورتوناي بأبحاثه الصوتية، و لاسيما تلك المتعلقة بالفونام – باعتباره أصغر وحدة صوتية في النظام الصوتي (الفونولوجي) غير القابلة للتقسيم إلى وحدات فونولوجية أصغر- « و قد كتب دي كورتوناي عن كروسفسكي، موضحا أهمية الأفكار التي عرضها في رسالته للدكتوراه و تعد مقدمة هذه لرسالة، التي نشرت منفصلة في عام 1881 تحت عنوان "حول التغيرات الصوتية" عملا أساسيا من أعمال مدرسة قازان، و فيها عبر أوضح تعبير عن المفاهيم التقدمية للفونام» [01] .

و يعتبر بودوان دي كورتوناي من أنصار المدرسة العقلية النفسية في النظرة إلى الفونام، حيث ترى هذه المدرسة أن الفونيم صوت واحد له صورة ذهنية تجريدية، يستطيع المتكلم استحضاره في ذهنـــــــه و يحاول لا شعوريا أن ينطقها في الكلام الفعلي، و قد ينجح في ذلك، و قد لا ينجح، و التوضيح ذلك سأعرض المثال التالي: " لنفرض أن متكلما عربيا استحضر في ذهنه صورة الفونيم المسماة (نونا) قد ينجح هذا المتكلم في تحقيق هذه الصورة و إبرازها بصورة مادية حينما ينطق النون في نحن (وهي أسنانية لثوية)، و لكنه قد يفشل في أماكن أخرى و ينطق صورا أخرى تقترب من هذه النون، و ذلك كالنونات في (انظلم) و (انكسر) و بذلك فهو يحاول أن يأتي بأقرب صوت إلى هذه الصورة و إن لم يماثلها تمام المماثلة" .

و لقد كان بودوان دي كورتوناي ذا وعي عميق بالقيمة الوظيفية للفونام على حد تعبير جورج مونان – كما كان قد أعطى الفونام تفسيرا نفسيا، حينما قال بضرورة التمييز بين نوعين من علم الأصوات

أحدهما: علم الأصوات العضوي: و تتمثل وظيفته في دراسة الأصوات المنطوقة بالفعل.

و ثانيهما: علم الأصوات النفسي، و هدفه دراسة الصور الذهنية للأصوات التي تمثلها أو التي تحاول تحقيقها الأصوات المنطوقة.

و قد جره هذا العمل إلى التفريق بين نوعين من الكتابة الصوتية:

1- كتابة الأصوات المنطوقة بالفعل.

2- كتابة الفونيمات أو الصور الذهنية أو الأصوات التي يحاول المتكلم نطقها سواء نجح في ذلك أو فشل[02]

---

(01) وفاء محمد كامل، "البنيوية في اللسانيات"، " عالم الفكر " ، المجلد (26) ، العدد (02) ، ص: 238 .

(02) ينظر كمال محمد بشر، "علم اللغة العام – الأصوات"، ص: 207 و ما بعدها.

و من الملاحظ أن رائد الدراسات الصوتية الوظيفية (الفونولوجية) في مدرسة براغ - كما رأيت- ألا و هو تروبتسكوي قد تأثر - في تحديده لمفهوم الفونام – إلى حد بعيد بأفكار دي كورتوناي حول الفونيم، و يتمثل هذا التأثر في ضرورة التمييز بين ما يلفظه المتكلم حقا – أي الصوت الخام في الكلام – و بين ما يظن المتكلم أنه يلفظه و المستمع أنه يسمعه – أي الفونام – و لم يقتصر أمر التأثر بدي كورتوناي و تلميذه كروسفسكي على تروبتسكوي وحده، بل كانت أفكارهما الثورية باعثا قويا لنشأة النظريات اللسانية الثورية عند كل من دي سوسير و حلقة براغ. و إلى جانب دراستهما للفونام « أكدا بودوان و كروسفسكي الحاجة إلى تمييز كل من اللغة التي تنتمي إلى الكيان الكلي لجماعة اجتماعية بعينها (بالمعنى الذي يعبر عنه مصطلح "اللسان" (Langue) عند دي سوسير) عن كلام الفرد (مصطلح "الكلام" (Parole). و أكدا أهمية الملاحظة اللسانية لتطور الحقائق اللسانية في لحظة زمنية بعـينها (الدراسة الآنية)» [03]

من الأفكار اللغوية التي تنسب لبودوان اكتشاف لظاهرة التجديد الفونولوجـي(Neutralisation() و المراد بها إبطال التقابل بين الفونيمات)، و الحاحه على أهمية اللسانيات الثباتية (أوالسكونية) (Statique)- و هي ذاتها اللسانيات التزامنية التي نادى بها دي سوسير – و مشروعيتها في ظل مقابلتها باللسانيات التاريخية، غير أنه لا يصل إلى درجة الفصل المنهجي القاطع بين الدراستين كما هو الحال عنـد دي سوسـير **(01)**.

و هذا يعني أنه على الرغم من المنجزات اللسانية الثورية و الهامة التي أتى بها بودوان دي كورتوناي من تطوير أول مفهوم حديث عن الفونيم إلى القول بالدراسة الآنية للظواهر اللغوية ... إلا أن بودوان قد أصَرَّ على اعتبار العامل النفسي أساسيا في الدراسات اللغوية – و هذا ما أعابه عليه العديد من اللسانيين و من بينهم تلميذه كروسفسكي – .

و مثال ذلك أنه « اهتم قبل 1889 بعلاقات اللغة بالعوامل النفسية و الاجتماعية، و اعتبر هذه العلاقات نفسية، فهو يرى أن اللغة حدث نفسي، بمعنى إن تطورها مشروط بالعوامل النفسية، و في رأيه لا توجد لغة روسية مثلا و إنما هناك كلام فردي و بمعنى آخر تفكير لساني فردي » **(02)**. و هذا ما مكنه من اكتشاف الفرق بين الفونيم من حيث هو صورة تجريدية مفترضة فيما يمكن أن يظنه المتكلم أو السامـع و بين الصوت في شكله الخام. و « رغم وجود شيء من التقارب بين دي سوسير و بودوان

---

(03) وفاء محمد كامل، "البنيوية في اللسانيات"، ص.238 .
(01) الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 133 ، 134 .
(02) أحمد عزوز، "المدارس اللسانية"، ص: 87 .

حول بعض الملاحظات و الأفكار اللسانية مثل مفهوم الفونيم و مفهوم النظام إلا أن ما جاء به دي سوسير في لسانياته يبدوا أعمق و أبعد مما توصل إليه بودوان» [03] .

و رغم كل هذا يظل بودوان دي كورتوناي و تلميذه كروسفسكي رائدين من رواد الدراسات اللسانية البنيوية الحديثة نظرا لما قدماه من أفكار لغوية ثائرة كانت سببا في انتعاش لسانيات دي سوســـير و حلقة براغ.

4-2- مدرسة فورتوناتوف أو مدرسة موسكو: مؤسس هذه المدرسة هو الباحث اللساني الروسي فيليب فيدورفيتش فورتوناتوف (Filip Fedorovic Fortanatoy Troubetzkoy) (1848-1914)، كان أستاذا للنحو المقارن بجامعة موسكو، و كان معاصرا لبودوان دي كورتوناي، و قدم عدة أفكار لغوية تقدمية أيضا بالنسبة للزمن، و إن لم تبلغ مبلغ آراء دي كورتوناي في حقبة قازان. و من الأعمال التي قدمها هذا اللساني ما يلي:

- استطاع أن يدرك الأهمية التي يمكن أن ينطوي عليها التفريق المنهجي بين الرؤية التزامنية (الآتية) و الزمانية (التاريخية).
- و كان قادرا بحدسه المتميز اختيار المعايير الخاصة بالتحليل اختيارا صحيحا، فتجنب ـ بنجاح – إدخال علم النفس في اللسانيات .[04]
- و كانت أفكار فورتوناتوف المنهجية مصدر إلهام للعمل الذي قام به أعلام بارزون في الدراسات السلافية مثل بشكوفسكي(Peskovsky)، شاخماتوف (Saxmatoy)، بيليتش (Belic) و قد ظلت تقاليد مدرسة فورتوناتوف مستمرة في الاتحاد السوفياتي في السنوات الأولى التي أعقبت الثورة الروسية » [01].

و لم تختف مدرسة فورتوناتوف إلاّ بعد أن تركت آثارها في الأقطار السلافية ، فقد كان لمؤسسها فورتوناتوف تلاميذ موهوبون اعتنقوا آراءه التقدمية في اللغة و طوروها بالممارسة، و لاسيما تلميذه المخلص ألكسندر بليتش (Alescamder Belic) (1876-1960) الذي كان من بين أساتذته عدد من أعلام النحاة المحدثين، و من إسهاماته اللسانية ما يلي :

---

[03] الطيب دبه، "مبادئ اللسانيات البنيوية"، ص: 134.

[04] ينظر المرجع نفسه ، ص : 134 ، 135 و ينظر وفاء محمد كامل، "البنيوية في اللسانيات"،"عالم الفكر "، ص: 239.

[01] وفاء محمد كامل " البنيوية في اللسانيات " ، " عالم الفكر " ، المجلد (26) ، العدد (02)، ص : 260 (الهامش رقم50).

- تتعلق أفكاره الأصلية – التي انبثقت في أغلبها من دراسة الجادة للغة الصربوكراوتية ـ بنظرية تجاوز العناصر اللغوية(Theovy of sgntagmatics) (و هي التي تعنى بدراسة أنماط تآلف الكلمات على المستوى النحوي).

- تمكن من لفت الانتباه إلى بحث الوظيفة البنيوية للكلمات، حتى يمكن فهم كل من الاختلافات في تركيبها الصرفي و مبادئ تسلسلها. [02]

3-4- حركة الشكلاينين الروس (Les Formalists Russes):

4-3-1- نشأة المدرسة الشكلية: نشأة الشكلانية الروسية (le Formalisme russe) في أحضان حلقتي موسكو اللغوية، و بطرسبورغ خلال سنوات ما بين (1915-1930)، و ضمت شخصيات مختلفة منها رومان جاكبسون، فيكتور شكلوفسكي، بوريس ايخنباوم، و غيرهم من نقاد الأدب و علماء اللغة الذين وحدوا هاتين الحلقتين نتيجة اهتمامهم المشترك بدراسة اللغة .

يقول جاكبسون (Jakobson) : « في شتاء 1914-1915 أسس بعض الطلبة تحت رعاية أكاديمية العلوم حلقة موسكو اللسانية، رغبة في تشجيع اللسانيات و الإنشائية، مثلما عبر عن ذلك، البرنامج الذي قدمه منظمو هذه الحلقة لسكرتير الأكاديمية، اللساني الشهير "شخمتوف(Shakhmatov) ولقد كانت لمبـــــــادرة " أ،بريك (O. Brike) الذي ساندة فريق من الباحثين الشباب الفضل في نشر أول كتاب جماعي للدراسات المتصلة بنظرية اللغة الشعرية في " لينينغراد 1916" كما كان له الفضل بعد ذلك، أي في بداية 1917 في تشكيل "جمعية دراسة اللغة الشعرية الجديدة" التي عرفت بالاسم المختصر (Opiaz) و التي ستتعاون بصورة وثيقة مع "حلقة موسكو" » [03] .

إن هذه الشهادة التاريخية – لواحد من أهم ممثلي هذا الاتجاه – تؤكد فكرتين أساسيتين الأولى، هي التزامن التاريخي بين ظهور الشكلانيين مع حلقة "جنيف" حيث انتقل البحث اللغوي إلى المجـــــال التزامني و تغيرت مهمة علم اللغة المقارن إلى علم اللغة بذاته.

يتجلى ذلك في إنشاء حلقة موسكو اللسانية سنة 1915 و صدور كتاب دي سوسير سنة 1916. و النقطة الثانية تظهر تميزا الشكلانيين عن اللسانيين و ذلك في ارتباطهم بالأدب عامة و باللغة الشعرية بشكل خاص، و هذا ما يدل عليه التحاق "Opiaz" بحلقة موسكو اللسانية لأنها تهدف إلى دراسة اللغة الشعرية مستندة في ذلك إلى ما توصلت إليه الدراسات اللسانية.[01]

---

(02) المرجع نفسه ، ص: 239.

(03) الزواوي بغورة، "المنهج البنيوي – بحث في الأصول و المبادئ و التطبيقات-"، ص: 39.

(01) الزواوي بغورة، "المنهج البنيوي – بحث في الأصول و المبادئ و التطبيقات-"، ص: 39.

و الشكلية (Formalisme) تعني الاهتمام بالشكل، أي المظاهر التركيبية للعمل الأدبي، ذلك أن الشكليين قد رفضوا الفصل بين الشكل الفني و المضمون، و أعلنوا استقلال و أولوية الشكل في الأعمال الأدبية و الفنية لأن هدفهم هو خلق نظرية أدبية محصرة تقوم على العمل الأدبي في حد ذاته دون أخذ المقاربات الاجتماعية. و النفسية، و الثقافية... في الاعتبار و التي كانت تؤلف أساس العمل النقدي السابق .

4-3-2-مبادئ و اهتمامات الشكلانيين : يقول الدكتور صلاح فضل معبرا عن منهج الشكلانيين الروس في الدراسات الأدبية و اللغوية: « و في تحليلاتهم لبنية الوقائع الأدبية – على حد تعبيرهم – و ميكانيزم العملية الأدبية كانوا يجنحون إلى استبعاد الثنائية التقليدية المكونة من الشكل و المضمون و إحلال فكرتين محلهما: "المادة" من ناحية و الوسيلة أو الأداة أو "الإجراء" من ناحية أخرى لأن هذه المصطلحات الأخيرة تتسم من وجهة نظرهم بعدة ميزات منهجية، إذ يتم بها انقاذ وحدة العمل الأدبي العضوية إذ إن فكرة التعايش في الشيء الجمالي بين عنصرين متعاصرين و قابلين للانفصال في الظاهر توحي بوجود مرحلتين متعاقبتين في العملية الأدبية، المرحلة السابقة على التشكيل الجمالي و المرحلة الجمالية». (02)

هذا يعني أن الشكليين قاموا بتحديد مجال الدراسة الأدبية و اللغوية برفض العلوم المجاورة لها على اعتبار أنها عوائق، جعل الموضوعات الأدبية – بالتالي – مادة للنقد الأدبي، رابطين بينها و بين نظرية جمال مستقلة بدورها عن نفسية المبدع من ناحية و عن الموضوع الاجتماعي الذي يشير إليه بأدواته و إجراءاته الخاصة من ناحية أخرى، و على هذا يكون الشكليون أول من ألغى التمييز بين الشكل و المضمون.

و يرى **ايخنباوم** – أحد أقطاب الشكلية - « أن مصطلح "المنهج الشكلي" يجب أن يفهم كمصطلح تاريخي، و لكن لا يجب الاعتماد عليه كتعريف صالح، لأنه لا "الشكلانية" و لا "المنهجية" كنظرية جمالية و نظام علمي محدد، هما اللتان تميزان أتباع الشكلانية عن غيرهم بل رغبتهم في خلق علم أدبي مستقل انطلاقا من الخصائص الجوهرية للمادة الأدبية» (03) .

و من الواضح أن هذا الاعتراف سيقودني إلى إبراز الأجواء العامة التي عصفت بالمنهج الشكلي من ناحية و التي كانت سببا في بروزه من ناحية أخرى، و من أهم هذه الأجواء ما يلي:

---

(02) صلاح فضل، "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، ص: 56 .

(03) عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي، عواد علي، "معرفة الآخر – مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة"، ص: 11 .

1- لقد ولدت المدرسة الشكلية خلال فترة المخاض الروسي والتي انتهت بقيام الثورة الاشتراكية عام 1917 و في الجانب المقابل، ألا و هو الجانب الأدبي و النقدي « تولى جماعة من الشعراء المجددون من أنصار المستقبل و النقاد الطليعيون الدعوة إلى أن يكون الشكل الثوري ضرورة جوهرية للفن "البروليتاري" مثله في ذلك مثل المضمون الثوري. و ساعده على ذلك المناخ العام الذي كان مهيئا لتقبل الجديد و احتقار القديم مهما كان» [01] و هذا يعني – أيضا – أن الشكلين لم يواجهوا أية مصاعب في تطوير أعمالهم بحرية في البداية لانشغال الحكومة عنهم بالحرب الأهلية و التدخلات الخارجية و ما ترتب عليها من أزمات اقتصادية و اجتماعية. متأثرين في انطلاقتهم الأولى بأفكار المستقبلين.

و قد ساعدهم هذا الالتقاء مع المستقبليين إلى تمهيد الطريق في شن نزاع مع الرمزيين، لأن الآخرين كانوا – هم أيضا – ضد الرمزيين. و لذلك فقد كانت أولى المعارك التي خاضتها جماعة الأبوجاز (Opiaz) (اختصار للعبارة الروسية جمعية دراسة اللغة الشعرية) كانت ضد الرمزين الذين اشتهروا بالغموض و تغليب الفكرة المجردة عن الواقع الملموس، و نهوضهم على مبدأ نقدي يؤكد أن مهمة الشعر هي التعبير عن شيء لا يمكن صياغة في قالب محدد و لا يمكن الاقتراب منه بأسلوب مباشر « فالرمزية Symbolisme حركة روحية مثالية لدرجة التصوف، و الصلة في إبداعاتها بين الدال و المدلول تحتاج إلى حس مرهف و نظرة ثاقبة لرصدها و تفسيرها» [02].

غير أن الشكليين كثيرا ما تذمروا و استاءوا من الدلالات الميتافيزيقية التي أغرق فيها الرمزيون الأدب عامة و الشعر بصفة خاصة. و نظرا لتأثر الشكليين بالأفكار السوسرية في اللغة من جهة و رغبتهم في وضع نظرية أدبية خاصة تنطلق من دراسة العمل الأدبي في ذاته. بات لزاما عليهم إيجاد علم أدبي انطلاقا من الخصائص الجوهرية للمادة الأدبية التي هي المادة اللغوية في حد ذاتها لإدراكهم أن ما يميز النص الأدبي عن غيره هو اللغة باعتبارها ذات وظيفة جمالية.

2 - لا أحد يستطيع إنكار العلاقة الوطيدة بين اللسانيات و الأدب، فهذه العلاقة قد حظيت باهتمام واسع من النقاش ضمن النظرية الأدبية المعاصرة. و هذا يدل على أن اللغة عنصر أساسي في الإنتاج

---

(01) صلاح فضل، "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، ص: 47 ، 48 .

(02) نبيل راغب، "موسوعة النظريات الأدبية"، مكتبة لبنان ناشرون و الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ،(د-ط)
القاهرة - مصر ، 2002 ، ص: 299 .

الأدبي و أن نص الأدبي الذي لا يقوم على لغة أصلية و أسلوب واضح و دقيق في تلك اللغة فإنه يكون مبتورا، و لا يستطيع أن يؤدي الهدف الذي ينشده حسبما هو مرغوب.

و من الملاحظ أنه منذ نهاية القرن التاسع عشر اكتشف النقاد المعاصرون أنه من الصعب تجاهل مشاكل الشكل اللغوي. هذه المشاكل التي حلت و ستحل في ضوء المنهج اللساني الحديث. هذا المنهج الذي وضع أسسه الأولية فردينان دي سوسير، الذي على الرغم من أنه لم يدون أفكاره أو ينشرها، غير أن محاضراته أمام طلبته كانت كفيلة بفتح آفاق البحث اللساني على معطيات جديدة و مبتكرة، و أولها أهمية مقولاته ثنائية التركيب مثل: اللغة و الكلام / الدال و المدلول / التزامن و التعاقب/ الاستبدال و التركيب/ الغيــاب و الحضور/ التعيين و الإيحاء. فهذه الآفاق اللسانية الحديثة كان قد تأثر بها الشكلانيون أيما تأثر أدى بهم إلى خلق نوع جديد من الدراسة اللغوية للنصوص الأدبية و النقدية تقوم في المقام الأول على اتخاذ الأدب وسيلة – بالغة التطور- من وسائل الاتصال.

3- و في اعتقادي أن قوة الدفع الأولى لهذه الحركة الشكلية تمثلت في الشخصيات العلمية البارزة التي ساهمت في تشكيل هذه المدرسة، و يأتي على رأسها اللساني الكبير رومان ياكسبون « الذي واكب العلم الألسني زهاء نصف قرن، و أسهم ليس فقط في إثراء هذا العلم بالمبادئ و المفاهيم و الأفكار التحليلية، بل أطلق العنان للمنهجية الألسنية و التقنية التحليل فيها لدخول ميادين شتى من المعرفة البشرية» [(01)]، إضافة إلى أنه قد بين منهج المدرسة وربط بين اللسانيات و الشعرية باعتبار أن كليهما يبــحث في الوظيفة الجمالية للغـــة.

4-3-3- الشكلية و الفن: تحرص النظرية الشكلية في تعاملها مع الفن، على استقلاله عن بقية الأنشطة الحياتية اليومية حتى يؤدي دوره النابع من طبيعته و غير المفروض عليه من خارجه. و في هذا – أيضا- نوع من الرد على المعتقدات التقليدية السابقة التي كانت تركز على العلاقة الوثيقة التي تربط بين الفـــن و التجربة الحياتية المعاشة خارج مجال هذا العمل، الذي ليس في نظرهم سوى مرآة عاكسة للحياة الاجتماعية التي قد ينهل منها أحيانا و يحاول توضيحها. و لما كان العمل الأدبي أرقى أنواع الفنون، فإن الشكليين انطلقوا في أعمالهم من منطلق دراسة العمل الأدبي في ذاته، بعدما كان مجرد أداة لتوصيل رسالة معينة.

لكن علي أن ألاحظ أن النظريات السياقية للعمل الأدبي أو الفني تركز على مختلف مواطن التأثر و التأثير بين هذا العمل و بين الأشياء الخارجية مثل: العوامل الاجتماعية، و النفسيـــــة، و التاريخيـــة

---

(01) فاطمة الطبال بركة، "النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون"، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط (01) بيروت - لبنان ، 1984 ، ص: 09 .

و الفلسفية، و الأخلاقية، و غيرها باستثناء حياته الجمالية، لأن الإدراك الجمالي – كما سبق و ذكرت – يتركز على العمل في حد ذاته.

و من هنا يمكنني القول أن النظرية الشكلية كانت على جانب كبير من الصواب حينما ركزت دراسة العمل الأدبي في ذاته بدل جعله وسيلة تنتهي وظيفتها و قيمتها بمجرد تحقيق الهدف منها في الحياة اليومية و من ثم فموضوع علم الأدب هو الأدب نفسه، و ليس مجرد ذريعة للإفاضة في دراسات جانبية أخرى.

وقد تكون هذه لفتة إلى الاستخدام النصي للغة التي تكتسب معناها من داخل النص و ليس من خارجه – على الرغم من أن البحوث اللغوية و الأدبية في تلك الحقبة من الزمن لا زالت بعيدة عن تحقيق نظرية متكاملة في اللغة، يقول اللساني الكبير رومان جاكبسون محددا منهج الدراسة الأدبية: « إن هدف علم الأدب ليس هو الأدب في عمومه. و إنما أدبيته **(*)**، أي تلك العناصر المحددة التي تجعل منه عملا أدبيا» **(01)**.

و قبله قال **شلوفسكي** (عام 1917): « إن غرض الفن هو نقل الإحساس بالأشياء كما تدرك و ليس كما تعرف، و تقنية الفن هي إسقاط الألفة عن الأشياء أو **تغريبها**، و جعل الأشكال صعبة، و زيادة صعوبة فعل الإدراك و مداه; لأن عملية الإدراك غاية جمالية في ذاتها و لابد من إطالة أمدها. فالفن طريقة لممارسة تجربة فنية الموضوع، أما الموضوع ذاته فليس له أهمية» **(02)** .

و من هنا فقد استخدم شلوفسكي للتعبير عن أكثر مفاهيمه جذبا للانتباه مصطلح **"التغريب"**، و في المصطلح دعوة إلى أمرين أساسيين هما:

1- ضرورة استقلال الأعمال الأدبية، « خاصة في الأمرين التاليين: الاستقلالية في علم الأدب (بوصفة مقاربة علمية) و في العمل الأدبي (بوصفة مادة بحث نوعي)» **(03)** .

و بالفعل فقد ظهرت الشكلية في فترة كانت الحلقات الأكاديمية و التقليدية مازالت متمسكة بالقواعد البالية المستعارة من الفلسفة و علم الجمال و الانتربولوجيا و علم النفس ... و هذا ما ساعد على

(*) (Littérarite): يعتبر هذا المصطلح متعدد المفهومات، فقد كان يعرف قبلا بالشعرية (Poétique) و تعني مجموعة المبادئ الجمالية التي تقود الكاتب في عمله الأدبي، إلى أن جاء الشكليون الروس و أطلقوا عليها تسمية الأدبية. و هي ترمي من خلال خصوصية موضوعها (علم الأدب) إلى التمايز عن الممارسات التطبيقية القائمة في اللسانيات التي تختص باللغة، و على البلاغة التي تعالج مختلف أنواع الخطاب (ينظر وائل بركات، "مفهومات في بنية النص"، دار مهد للطباعة و النشر و التوزيع ط(01)، سوريا، 1996، ص:34 ، 35)

(01) صلاح فضل، "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، ص: 60 .

(02) رامان سلدن، "النظرية الأدبية المعاصرة"، تر: جابر عصفور، ط(01)، دار للطباعة و النشر و التوزيع، مصر، 1998 ص:29 ، 30 .

(03) وائل بركات، "مفهومات في بنية النص"، ص: 36.

انتشـــار و تقبل طروحاتهم الثورية التي دعت أول الأمر إلى استقلال العمل الأدبي عن نفسية مؤلفه من ناحيـــــة و عن الوضع الاجتماعي الذي يشير إليه بأدواته و إجراءاته الخاصة من ناحية أخرى.

2- التركيز أو الدعوة إلى مبدأ (الآلية) في العمل الأدبي، أو كسر ألفة اللغة. و من هنا تتحد وظيفة الفن الأساسية في الامتاع و تجديد النفس البشرية، ذلك أن اللغة العادية (العامية أو الدراجة) تستخدم آليا، دون التركيز أو تردد.

غير أن اللغة الأدبية أو الفنية في حصيلة عملية بناء يقوم به الأديب، و هي الوسيط بين الأدب و الحياة، لذا ينبغي أن تكون مختلفة و غريبة و غير مألوفة، لكن علينا أن ننتبه أن الرومانسيين قد سبقوا الشكليين بمائة عام عندما نادوا بكسر ألفة اللغة و العودة إلى الأشياء البسيطة.

غير أن الدوافع تختلف عند الشكليين، « إن التغريب أو كسر ألفة اللغة الذي يتحدث عنه الشكليون و شلوفسكي على وجه التحديد، لا يعني العودة إلى لغة البسطاء، بل يعني تعمد غموض الدلالة. و الواقع أن الشكليين في هذا كانوا قد تأثروا بالفعل بدراسات "فرديناند دي سوسير" عن اللغة، و خاصة الجناح الوضعي لمجموعة بطرسبورج الممثل في "يوري تنيانوف" (Jurif Tynjanov) . صحيح أن "شلوفسكي" يقترب من سوسير بطريق المصادفة العلمية، حينما يتحدث عن التغريب أو كسر الألفة بهدف "جعل الفهم أو الإدراك أكثر صعوبة"، لكن "تنيانوف" يتحدث بلغة سوسير دون موارية حينما يعرف العمل الأدبي بأنه يتألف من حيل تتعدد وظائفها آنيا و تعاقبيا» **(01)**.

فثمة فروق واضحة بين المدرستين الشكلية و الرومانسية، ذلك أن الرومانسية تؤكد ذاتية الشاعر و القصيدة و ترى بانسحاب الشعر إلى داخل الشاعر، كما ترى في عجز العقل عن إدراك المعرفة الحقيقية ... و هذا ما تنبذه الشكلية التي تنبهر بانجازات العقل البشري نتيجة انجذابها إلى انجازات العلـــم و تطبيقاته التكنولوجية الباهرة و دعوتها - أيضا – إلى علمية القصيدة الشعرية. ذلك أن الشكليين قد تأثروا – أو ل الأمر- بالمدرسة اللغوية التي صعد نجمها في العقود الأولى من القرن العشرين و التي أصبحت المدخل الرئيسي للعديد من المشاريع النقدية. فكانت انطلاقة الشكليين بذلك من النظام اللغـــوي « على أساس أن مادة الأدب تتمثل أولا في اللغة، على أن هذه اللغة بدورها تمثل حلقة الاتصال بين الأدب و الحياة، فوظيفة الأدب الاجتماعية تنحصر عند الشكليين في هذا العنصر، اللغوي الوسيط » **(02)** .

---

(01) عبد العزيز حمودة، "المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)"، " عالم المعرفة " ، العدد : 232 ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، أفريل - نيسان 1998 ص: 127 ، 128.

(02) صلاح فضل ، "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، ص : 61.

هذا يعني أن اللسانيات الحديثة – و لاسيما البنيوية – تفضل التركيز على السبل التي تؤدي بها اللغات وظيفتها في الاتصال- و لما كان الأدب شكلا من أشكال الاتصال، فمن الواضح أن هذا ما جعله يتبوأ مكانة هامة في الدراسات الأدبية. و أسس هذا التطور تعود بالدرجة الأولى إلى الاهتمام باللغة، نظرا لأهميتها البالغة في الإنتاج الأدبي عامة.

4-3-4 – مدرسة باختين: تعتبر الشكلية مدرسة رائدة بزغت في العهد القيصري ثم تألقت في العهد السوفييتي تحت حكم لينين، حيث انتشرت حمى و دعاوى التحديث التي اجتاحت الدولة الحديثة لتعويض ما فاتها تحت حكم القياصرة...

هكذا ذاعت أو انتشرت هذه الحركة النقدية التي جعلت الفنان أو الأديب صانعا للكلمات و الصياغات غير أنها تعرضت – خلال عمرها القصير لضغوطات شتى – تمثلت بداية في الاضطهادات السياسية المريرة التي أقامتها عليها الحكومة الروسية حيث أرغمتها على الاندماج مع الواقعيين الاشتراكيين، في منظمة موحدة أعطية لها سلطة الحزب الكاملة لوضع أبعاد السياسية النقدية و الأدبية .

و هذا ما عبر عنه الدكتور صلاح فضل قائلا: « إن هناك من النقاد المتسرعين من يرى في الشكلية الروسية مظهرا من مظاهر الانحلال البرجوازي في مجتمع الثورة متعللا ببعض مبادئها اللاسياسية التي كانت تدعو إلى الفن الخالص. و بما كان يدعو إليه أحد قادتها و هو شلوفسكي في المرحلة الأولى من تخليص الفن و تجريده من عبء الحياة الباهظ الثقيل، فكان من السهل إذن اتهامها بالهروب من الالتزام السياسي المباشر» [01] .

في حين أن الأمر لم يقتصر على النقاد فقط بل تعداه إلى الرئيس السوفييتي ، الجديد **ستالين،** فبعد تقلده الحكم عام 1924 بعد **لينين** قام بفرض سيطرته عن طريق وضع نهاية للتناقض القائم بين مبادئ الشكلية الروسية و بين الماركسية ، لأنه كان يشك في أهداف الشكلية الروسية التي قد تحمل في طياتها ميولا ارستقراطية ، بعكس الواقعية الاشتراكية التي كثيرا ما وضعت الأدب في خدمة أهداف الدولة السوفيتية ، و من ثم فانه " لم يكن أمام زعماء الشكلية اتجاه الهجوم العنيف إلا أحد الأمرين : إما الصمت المطلق والرضا بالموت الأدبي نهائيا ، و إما الاعتراف الصريح بخطئهم في التحليل الأدبي و إعلان التوبة النصوح ، و لم يغفر لهم في هذا المجال إنهم كانوا قد اخذوا يهتمون بالجانب الاجتماعي في الأدب على طريقتهم و اضطر أكثرهم تطرفا في الدعوة إلى مبادئ النظرية الشكلية " إلى نقد نفسه واتهام مبادئ الأبوجاز بالعقم و مجافاة الصواب واعتبارها شيئا ينتمي إلى الماضي " [02].

---

[01] صلاح فضل ، "نظرية البنائية في النقد الأدبي"، ص : 47.
[02] المرجع نفسه ، ص: 48 ، 49 .

وهذا يعني أن الشكليين قد اضطروا إلى وضع البعد الاجتماعي في الاعتبار، غير أن هذا قد أنتج قبل أن تنتهي الحركة الشكلية حوالي عام 1930 – نتيجة الرفض الرسمي لتوجهاتها بعضا من أفضل أعمال هذه الفترة ، خصوصا كتابات **مدرسة باختين** (Bakhtin) التي عدلت من مسار المدرسة الشكلية حيث جعلتها تزاوج بين الشكلية والماركسية و من مؤسسيها : ميخائيل باختين(Mikhail Bakhtin) ،و يقل ميدفيدف(Pavel Medvedev) ، و فالينتين فولوشينوف(Valentin Voloshinov) « و لقد ظلت هذه المدرسة شكلية في اهتمامها بالنسبة اللغوية للأعمال الأدبية ، و لكنها تأثرت تأثرا عميقا بالماركسية في إيمانها بأن اللغة لا يمكن فصلها عن الإيديولوجيا ...

و لكن نظرة مدرسة باختين إلى الأدب تتباعد عن الفرضيات الماركسية التقليدية حول الإيديولوجيا، لأنها ترفض معالجة الإيديولوجيا، بوصفها ظاهرة ذهنية خالصة تنشأ انعكاسا للبنية التحتية المادية (الواقعية) الاجتماعية و الاقتصادية، فالإيديولوجيا لا تنفصل عن وسيطها اللغة في مدرسة باختين» [(01)]

و هذا يعني أن مدرسة باختين كانت تهتم باللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، لأن الكلمات علامات حية تشارك المجتمع ديناميته، وهي قادرة على أن تعبر عن أكثر من معنى و أكثر من دلالة تمس طبقات المجتمع المختلفة . فقد كانت الماركسية - السابقة- ترى الفن جزء من "البنية الفوقية" للمجتمع، أي أنها جزء من أيديولوجيا المجتمع ... بمعنى أن الأدب عامة و اللغة خاصة، لا يمكن فصلها عن القضايا الحقيقية داخل المجتمع و لاسيما القضايا الاقتصادية و الاجتماعية. و من ثم تكون مدرسة باختين قد نجحت في إحداث نوع من التوافق بين مبادئ الشكلية و الماركسية .

4-3-5- البنيوية الشكلية : لقد شهد عام 1926 تفكك جماعة الشكلية الروسية، و نهاية نظريتهم في روسيا و إن كان نقاد الغرب قد اعتبروها إنجازا نقديا و أدبيا رائدا لا يجوز إهماله أو تجاوزه، فانتقل بعض أعضاءها إلى أوربا الشرقية و على رأسهم اللساني الكبير روما ياكبسون و تروبـــتسكوي و غيرهمـــا، و شكلا ما يعرف بحلقة براغ اللسانية (1926-1948) برئاسة فيلام ماثيوس و أعلام لغويين آخرين – كما رأيت سابقا- و قد أثرت هذه الحلقة على المنهج و التفكير اللغوي الحديث تأثيرا ربما يفوق تأثير أي جماعة لغوية أخرى في تاريخ علم اللغة الحديث.

و لما كانت الشكلانية الروسية قد تأثرت و أخذت من مبادئ سوسير اللغوية – و إن كانت بدايات الحركة كما نعرف قد سبقت نشر كتابه (محاضرات في علم اللغة الحديث) – فإن العديد من

[(01)] رامان سلدن، "النظرية الأدبية المعاصرة"، ص :37 ، 38 .

اللغويين و النقاد من يعتبر أن مدرسة براغ، كانت أول من وحدَّ بين مبادئ اللسانيات الشكلانية و السوسرية في برنامج نظري واحد، أطلق عليه اسم "البنيوية".

و قد اهتم أعضاء حلقة براغ عموما « بدراسة اللغة الشعرية : فتوصلوا إلى وجود نمطين. اللغة القياسية، و اللغة الاستشراقية، و عنوا بمشكلة المنهج الملائم للدراسة اللغوية و تبنو محور التزامن الذي اكتشفه دي سوسير و لم يتجاهلوا أهمية الدراسة التعاقبية للغة،فهي مفيدة لكشف قوانين البنية في الأنظمة اللسانية، كما اهتموا بالأصوات في الشعر و نظام المفردات الشعرية، فقادهم هذا إلى تحديد نظرية في معنـــــــى الشعــر.

و نظرية في علاقات التتابع و نظرية في نظام أشكال المفردات أو مجاميع الأشكال فضلا عن عنايتهم القصوى بالبنية النحوية » [02].

و تتألف النصوص الرئيسية لمدرسة براغ اللسانية من البيان المعروف باسم أطروحــات ياكبــسون- تنيانوف(1928)- أي تاريخ انعقاد أول مؤتمر دولي للسانيات بلاهاي- ومن أهم ما ورد في هذه الأطروحات- في إطار المشروع البنيوي – ما قاله موكاروفسكي (Mokarovsky) « من وجوب خضوع العمل الفني للتحليل من مبدأ كونه محصلة قوتين : الحركة الداخلية للبنية، و التدخل الخارجي . إن أولى المهمات المطلوبة هنا هي تعيين مفهوم البنية (Structure) و تحديده. و يجهد موكاروفسكي لإثبات أن الطبيعة المتميزة لهذه الكلية ناتجة عن بنية جمالية، و ليست عن صيغة أو إنشاء مخطط أو كلية جمع كــمي »[01].

هذا يعني أن موكاروفسكي ينطلق في تحليله النقدي من العوامل غير الأدبية، لأن أي إنتاج فني –في اعتقاده- لابد و أن ينطلق من العلامة الديناميكية الحاصلة بين الأدب و المجتمع وهو ما يسميه " بالوظيفة الجمالية" ذات الطبيعة المتحركة و الدائمة التحول بين عناصرها الداخلية و الخارجية، و كل عنصر من هذه العناصر يشكل ما يعرف بالبنية، التي تعتبر- بدورها- وظيفة لا يمكن فهم عناصرها المختلفة إلا من خلال ارتباطها بالمجموع .

فالشكلانيون حينما ألفوا التمييز بين الشكل و المضمون، إنما ليحلوا مفهوم البنية محله باعتبارها تشكل كل أوجه النص الأدبي من الصوت الواحد إلى الموضوع، أي أن النص قد أصبح مجموعة من العلامات اللغوية - حسب المفهوم السوسري - ، يقول موكاروفسكي مبينا هذه الحقيقة :«...يختلف الإصلاح الشعري عن الإصلاح التواصلي من خلال إضعاف علاقته مع الواقع لصالح

---

[02] عبد الله إبراهيم و آخرين، " معرفة الآخر- مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة "، ص: 16.

[01] وائل بركات، "مفهومات في بنية النص"، ص: 39

تسلسله الدلالي في السياق النصي، تتلاقى في الشعر الوظائف التطبيقية للغة، و هي التقديم و التعبير و الدعوة و تخضع الوظيفة الجمالية التي تجذب الاهتمام نحو الرمز نفسه، و يدين السياق في الشعر بأهمية لهيمنة هذه الوظيفية » [02] .

و هذا يعني أن موكاروفسكي يربط بين الوظيفة الجمالية و الوظيفة الاجتماعية للغة من جهة و يعقد في الوقت نفسه مفارقة بين الدال (Signifiant) و المدلول (Signifié)، أي بين البعد المادي للرمز أو البعد الأدبي (الحدث المصطنع) و ما يفعله به الفاعل حين التفسير (الموضوع الجمالي)... و من المعروف أن مدرسة براغ قد ركزت على الجانب الوظيفي في اللغة و دراستها – كما رأيت سابقا – و هذا ما ساعدها على توضيح الفرق بين البنى الأدبية (الشعرية) و البنى غير الأدبية، من خلال توسيعها للمفهوم الشكلاني عن الوظيفة فالقصيدة الشعرية – بعد ما كانت محصورة في نطاق معين من الأدب – أصبحت حسب مفهوم البراغيين بنية ذات وظيفة تواصلية مثلها في ذلك مثل أنظمة الاتصال العادية. و هذا ما يفسر – في اعتقادي- تسمية النص الشعري "بالبنية الوظيفية"، ذلك أن « البحث الأدبي البنيوي في الغرب لا يتطرق أبدا إلى العلاقة بين الشعب و الأدب، و يهتم الباحثون السوفييت ممثلي البحث الأدبي في الغرب بميلهم الشديد إلى الحديث المسهب عن الاتصال، و عن الطبيعة الموحدة للنظم القائمة على الإشارات و التي بواسطتها تتجسد الظواهر الروحية. غير أنهم لا يتوقفون عند مسألة الأدب و الفن بصفتهما "لغة – وسيلة" للاتصالات الروحية في المجتمع، و وسيلة للاتصال الفكري و العاطفي و الجمالي الموجه بصورة خاصة إلى الجمهور الواسع، إلى الشعب، كما أنهم يرفضون تقبل فكرة كون الأدب و الفن "إعلاما جماليا عن الواقع" لأن هذا كله، كما يقولون، ما هو إلا سقفا "ارسطوطالسيا" للتقيلد و افتراضا لمقولة هيغل عن الإنسان و المثل الأعلى، بينما الأدب ليس إلا مجرد "نص" » [01] .

و هذا يعني أن الأدب السوفييتي (أو الروسي) في الغرب يسعى إلى هدم العلاقة التقليدية القائمة بين الأدب و المجتمع، أو أن يجعل الأدب – بذلك – منغلقا في إطاره اللغوي البحت، و على هذا الأساس يقول **جان ماري أوزيا** في كتابه "مفاتيح البنيوية": « بالمناسبة، هناك أدب يمكن تسميته بالأدب البنيوي، أي الأدب الذي يطرح بدرجة أساسية كظاهرة نصية و لا شيء أكثر من ذلك، و لا يمكن القول بكل وضوح عن هذا الرأي بأنه من المستحيل في عصرنا الحالي تجاهل ارتباط الأدب بالمجتمع، أو

---

[02] المرجع نفسه ، ص: 39.

[01] كامران قره داغي، "البنيوية من وجهة نظر سوفيتية"، "الأقلام"، منشورات وزارة الثقافة و الإعلام – دار الجاحظ، العدد الحادي عشر، السنة الخامسة عشرة، العراق، 1980، ص: 113 .

تجاهل مشكلة "أنا و الآخرون" أو رفض فكرة تأثير الشعب على المبدع. و القول بعكس ذلك يعبر عن موقف إيديولوجي رجعي» [02] .

4-3-6- الخلاصة: و ما يمكنني قوله في خاتمة هذا المبحث الخاص بالحركة الشكلية الروسية أنها قد لعبت دورا بارزا في تاريخ الحركة النقدية الحديثة و المعاصرة، فرغم التعارضات السطحية و التحتية التي يزخر بها، إلا أنه قد درج بالنص بذاته اهتماما مركزيا، يتجاوز الرؤية التقليدية التي كانت تقوم على تفسير العمل الأدبي و البحث في ثناياه عن المعطيات الخارجية المتصلة به، و كما نعلم « فالباحثون السوفييت أثناء معالجتهم للتيارات الفكرية الجديدة، إلى تحديد ما هو "قديم" في هذا الجديد أولا، و من ثم يقومون هذا التيار أو ذاك سلبا و إيجابا. و الحق أن معرفتهم الممتازة و العميقة للتراث الفكري العالمي في أواخر القرن الماضي و بداية القرن الحالي "و لاسيما الروسي الذي يتميز بتنوع و أصالة قلما عرف بلدا أوربي آخر مثيلا لهما" تجعلهم قادرين على امتلاك الوسائل الكفيلة بإيجاد جميع الخيوط **الموصلة** بين الجديد و القديم، هكذا فعلوا بالنسبة للبنيوية أيضا، فأعلنوا أن جذور المنهج البنيوي تمتد إلى النظريات اللغوية – الشكلية التي عرفتها روسيا في الفترة من 1916- 1923 و إن بعض طروحات البنيوية تكاد تكون تكرار لما طرحه أنصار تلك النظريات في حينه ... » [03].

و قد كان الشكلانيون الروس أبرز من تأثر بالآراء اللسانية لدي سوسير، و اجتهدوا في إيجاد علم أدبي انطلاقا من الخصائص الجوهرية للمادة الأدبية التي هي المادة اللغوية في حد ذاتها لإدراكهم أن ما يميز النص الأدبي عن أي نص آخر هو اللغة في وظيفتها الجمالية.

---

[02] المرجع نفسه ، ص: 114.
[03] المرجع نفسه ، ص:111.

الفصل الثالث

الاصول الفلسفية للبنيوية

I) البنيوية بين المنهج والفلسفة :

- المنهج البنيوي
- خطوات المنهج البنيوي // بناء النموذج
- من خصائص المنهج البنيوي
- هل البنيوية منهج ام مذهب ؟
- النزعة الكانطية عند ليفي شتراوس
- البنيوية // مقاربة نقدية .

II) – الحداثة الغربية وبعض التحولات الفكرية الكبرى والمصاحبة لها :

- البنيوية من اين والى اين ؟
- الحداثة الغربية .
- الركائز الفلسفية للنزعة العلمية والعقلية عند الغرب .
- البنيوية والنموذج اللساني (سجن اللغة / النسق)
- البنوية وفلسفة موت الانسان .
- البنيوية وما بعدها

الجـــــذور الفلسفيـــــــــة للبنيويـــــــــــــة:

1- هل البنيوية منهج أم مذهب ؟

لقد صار من البديهي القول بأن البنيوية قد تكونت في مجال اللسانيات أو علم اللغة الحديث، ثم امتدت بعد ذلك إلى مجالات معرفية متعددة منها: علم النفس ،علم الاجتماع ، النقد الأدبي الأنتربولوجيا ... أي ما يسمى عادة بالعلوم الإنسانية ومرة بالعلوم الاجتماعية . وبالتالي فالبنيوية قد أصبحت جزءا من تاريخ الفكر والمعرفة ولم تعد تقليعة أو موضة أو حدثا إعلاميا كما قد يعتقد البعض. ولما كان موضوع البحث يتعلق بأصول النظرية البنيوية صار لزاما علي أن احاول البحث عن الأسباب الحقيقية والخلفيات الفلسفية العميقة التي دفعت البنيوية إلى إصدار أحكامها بحق الإنسان والعلم والفلسفة والتاريخ . وذلك بوضع المبادئ التي ترتكز عليها على محك النقد الموضوعي من دون إصدار أحكام قطعية تتعلق بالأصول الفلسفية للبنيوية . وانما بهدف إثارة النقاش والتساؤلات التي أعتبرها محطات بحث رئيسة في هذا المبحث ،تتعلق كلها بالمسائل التي طرحتها البنيوية من الوجهة المعرفية والمنهجية .

من أولى هذه المحطات القول بأن قضية البنيوية – في حد ذاتها قد قسمت الباحثين أو المفكرين المحدثين قسمين : فمنهم من يرى بأنها منهج في المعاينة وطريقة في الرؤية وهي وليدة الدراسات اللسانية الحديثة، وينفي عنها صفة المذهبية أو كونها حركة فكرية أو فلسفية . في حين يرى أنصار القسم الثاني بأن البنيوية ذات جذور فلسفية ،قد تعود إلى الفلسفة الكانطية ... ولذلك فمن أولى القضايا التي أثارها منتقدوا البنيوية هي : هل البنيوية منهج أو فلسفة ؟ بمعنى هل البنيوية أداة علمية أم مذهب فكري فلسفي وإديولوجي كباقي الفلسفات والإيدبولوجيات الأخرى ؟

فها هو عالم النفس السويسري **جان بياجيه** يختم كتابه القيم عن البنيوية قائلا : «... إذا كان تاريخ البنيوية العلمية طويل بعض الشيئ ، فالدرس الذي يجب أن نستخلصه من هذا التاريخ هو أن البنيوية لا يمكن أن تشكل موضوعا لعقيدة أو لفلسفة وإلا لأمكن تجاوزها بسرعة بل تشكل بالضرورة طريقة مع كل ما تنطوي عليه هذه اللفظة من التقنية ومن الالتزامات والشرف الفكري »

[01] . فيما يبدو من كلام بياجيه أنه يقول بالتاريخ العلمي للبنيوية ، وبالتالي فهو يعترف بعلمية المنهج البنيوي ، باعتبارها طريقة وليست عقيدة وبالتالي فالبنيوية حسب رأيه ليست مذهبا أو تيارا فلسفيا بل هى منهج علمي بحث.

ويقول المفكر الفرنسي **ميشال فوكو** في هذا السمت مايلي : « ليست البنيوية – كما نعلم – فلسفة إنما يمكن أن تربط بفلسفات مختلفة ، فقد ربط **ليفي شتراوس** بوضوح منهجية البنيوية بفلسفة مادية الطابع وعلى عكس ذلك قام **جيرو** بربط طريقته الشخصية في التحليل البنيوي بفلسفة مثالية ، في حين يستعمل **ألتوسير** مفاهيم التحليل البنيوي داخل فلسفة من الواضح أنها ماركسية الاتجاه ، لهذا لا أعتقد أن بإمكاننا إثبات وجود رابط وحيد وحتمي بين البنيوية والفلسفة »[01].

وهذا يعني أن **فوكو** ينفي عن البنيوية صفة المذهبية (أو كونها حركة فكرية أو فلسفة) ، كما لم يقل أو يعترف بالعلمية للبنيوية (أي أن تكون البنيوية مجرد منهج علمي) إذ يقول : « يبدولي أننا لا نستطيع بحق تحديد البنيوية كمنهج ، ذلك لأنه من الصعب جدا ملاحظة وجه الشبه بين الطريقة البنيوية لتحليل القصص الشعبية عند **بروب** وبين طريقة تحليل الفنون الادبية عند **فرايد** بأمريكا وبين تحليل الأساطير عند **ليفي شتراوس** » [02].

و في هذا النصريح اعتراف من المؤرخ **ميشال فوكو** بأنه لم يعد بالإمكان وبكل بساطة تعريف البنيوية بأنها منهج أو حتى تعريفها بأنها فلسفة . والحق أننا لو أمعنا النظر في الإتجاهات الفكرية المتباينة عند فرسان البنيوية الأربعة : ليفي شتراوس ، وجاك لا كان ، وميشيل فوكو ، ولويس التوسير –وعند غيرهم من البنيوين كذلك – لوجدنا أنه ليس ثمة مذهب بنيوي واحد يجمع بينهم . وهذا ما حاول فوكو قوله أو إثباته ، فالبنيوية لا يمكن أن تستقيم منهجا علميا له أسسه وأليته ، لأن التحليل العلمي لدى كل من بروب وفرايد و شتراوس قد أثبت تباين النتائج .

و غير بعيد عن هذا الشطط المعرفي ، يذهب الدكتور **صلاح فضل** المذهب نفسه قائـــلا : « بالرغم من أن بعض الباحثين المحدثين يرون أن البنائية ليست مجرد منهج للبحث عن الإنسان و العالم تنير بشكل جذري مشاكله المرهقة الحادة»[03]. من الملاحظ أن الدكتور **صلاح فضل** يبين بداية وجهات النظر المتضاربة حول قضية البنيوية ليصل إلى نتيجة أو حقيقة مفادها أن البنيوية منهج

---

[01] جان بياجيه ، " البنيوية " ، ص : 111 .

[01] ميشال فوكو ، " البنيوية والتحليل الأدبي " ، تر : محمد الخماسي ، " العرب و الفكر العالمي " ، ص :15.

[02] المرجع نفسه ، ص: 15 .

[03] صلاح فضل ،" نظرية البنائية في النقد الأدبي" ،ص:204 ، 205

علمي ولا يمكن أن تكون بأي حال من الاحوال مذهبا فلسفيا، بل يرد على كل من يعتقدون ذلك، فيقول : « بالرغم من ذلك إلا أن زعماء النظرية أنفسهم يؤكدون أن البنائية ليست مدرسة مذهبية ولا حركة فكرية ولا ينبغي حصرها في مجرد نزعة علمية بحتة و إنما يجب و صفها بطريقة أخرى (...)

و على هذا فإنهم ينتهون إلى أن البنائية بالنسبة لجميع من يمارسونها إنما هي نشاط قبل أي شيئ أخر أي تتابع منتظم لعدد من العمليات العقلية الدقيقة » [01].

و يستبعد الدكتور **سعيد الغانمي** صفة المذهبية و الطابع الفلسفي عن الاتجاه البنيوي ، قائل : « ربما كان من أهم ما يميز البنيوية أنها تهتم بتقعيد الظواهر وتحليل مستوياتها المتعددة في محاولة للقبض على العلائق التي تتحكم بها ، وهذا ما يجعل من البنيوية منهجا لا فلسفة ، و طريقة وليس أيديولوجيا» [02] و نفس الموقف قيل مع الباحث البنيوي الدكتور **كمال أبو ديب** ، فقد انطلق في مستهل عرضه للمنهج الذي سيتوسل به في مقاربة الشعر من فكرة أساسية هي أن البنيوية ليست فلسفة، إذ يقول : « ليست البنيوية فلسفية ،لكنها طريقة في الرؤية ، ومنهج في معاينة الوجود ، لأنها بصرامتها واصرارها على الاكتناه المتعمق ولادراك متعدد الابعاد ، و الغوص في المكونات الفعلية للشيئ و العلاقات التي تنشا بين هذه المكونات ، فهي تغيير الفكر المعاين للغة و المجتمع» [03].

و من التصريحات الدالة أو القائلة بالمنهج العلمي للبنيوية ثمة الكثير ، حيث لا يتسع المقام لذكرها جميعا غير أن ما أمكنني ملاحظته ، و ما أود الاشارة إليه ، هو أنه على الرغم من أنه كان للسانيات الدور الفعال والكبير في إنشاء البنيوية النشأة التي نعر فها اليوم ، وذلك من خلال تزويدها بالمصطلحات والأليات والمفاهيم التي توسلت بها في المجالات الثقافية الأخرى وأهمها مجال النقد الأدبي .

إلا أنه لا يمكننا بأي حال من الأحوال نكران المناخ الفكري والفلسفي الذي نشأت في أحضانه البنيوية جنينا (فكرة) قبل أن تلفظ مولودا راسيا في القرن العشرين ، وهذا ما عبر عنه **الدكتور عبد الله ابراهيم** قائـــــلا :« اذا كانت البنيوية والسيميائية والتفكيك تعد أهم المنهجيات الأساسية التي نهضت على الجهود اللغوية الحديثة ، فإن هذا يفرض رسم خارطة تلك الجهود رغم

---

(01) صلاح فضل ، " نظرية البنائية في النقد الأدبي " ،ص :205 .

(02) سعيد الغانمي ، "البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي" ، ضمن كتاب : " معرفة الأخر- مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة " ،ص :39.

(03) كمال أبو ديب،"جدلية الخفاء و التجلي- دراسات بنيوية في الشعر" ، ص : 08.

سعتها وملاحظة مراحل تطورها واندغامها في منهجيات أخر وصولا إلى تجلياتها في المنهج التفكيكي . ولكن هذا الامتياز للسانيات الحديثة وفضلها في تنظيم مناهج التحليل وبلورتها ، لا ينسينا أبدا ، البحث في الأصول الفلسفية لها » [04].

وإضافة إلى ماسبق ذكره ، فهذا التصريح بقر بوجود أساس فلسفي تستند عليه الحداثة الغربية وبما أن البنيوية تعد أحد أبرز عناوين أو مشاريع الحداثة الغربية وأكثرها تداولا في مجال النقد ، فإن البحث لن يتوقف عند أمر التسليم والاقرار بالمنهجية العلمية للمشروع البنيوي ، بل سيسلم مع الباحث **الدكتور فؤاد زكريا** بوجود أساس فلسفي تستند عليه البنيوية ، حتى يكتمل مشروع البحث والتنقيب في الخلفيات المرجعية لهذا المشروع النقدي الهام من جهة ، وحتى لا يتوقف البحث عن تحـــــــــقيق أهدافه و الإكتفاء بشهادة أهل الذكر من النقاد القائلين بالعلمية فقط للمشروع البنيوي و لا سيما أعلام البنيوية أنفسهم من جهة أخرى .

وتأسيسا على هذه النظرة ، فقد حاور الدكتور سعيد الغانمي في نهاية مقاله عن البنيوية الدكتور **فؤاد زكريا** ، الذي أقر – كما ذكرت – بوجود أصل فلسفي للاتجاه البنيوي ، بل ذهب إلى حد ربطه بالفلسفة الكانطية قائلا : « إن البنائية كانت لها جذور فلسفية أقدم كثيرا من العصر الذي ظهرت فيه – وأهم هذه الجذور ، في اعتقادي ، هو فلسفة كانت ، فالبنائية – مثل فلسفة كانت – تبحث عن الأســــــاس الشامـــــــــل اللازماني ، الذي ترتكز عليه مظاهر التجربة وتؤكد وجود نسق أساسي ترتكز عليه كل المظاهر الخارجية للتاريخ » [01] .

غير أن الأمر ليس بالبسيط – كما قد يعتقد البعض – بل يدعو إلى مزيد من التوضيح نظرا لعدة أسباب منها أن فلسفة كانت بقيت متداولة في الفكر الفلسفي زهاء القرنين ولم تثمر بنيوية خالصة هذا من جهة ومن جهة ثانية ، فالدكتور فؤاد زكريا وعلى الرغم من تمسكه وإصراره على القول بالمذهبية والطابع الفلسفي للاتجاه البنيوي ، إلا أنه « لا يخفي تحفظه وحيطته فيشير إلى أن تأثير فلسفة كانت في تفكيرهم – أي البنائيين – كان ضمنيا في أغلب الأحيان » [02].

ويحاول الدكتور **سعيد الغانمي** نفسه القيام بمحاولة التخفيف من حدة الموضوع وإزالة اللبس عما يمكن تسميته " الجذور الفلسفية " و " المعنى الفلسفي " ، فالجذور – كما يستعملها **الدكتور**

---

(04) عبد الله ابراهيم وآخرين ، " معرفة الآخر – مدخل الى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 08.
(01) عبد الله ابراهيم وآخرين ، " معرفة الآخر – مدخل الى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 08.
(02) المرجع نفسه ، ص : 61, 62 .

فؤاد زكريا– تعني الأصول ، « وبالتالي فإنه يسند اكتشافات البنيويين من شتراوس إلى فوكو إلى أصول ومبادئ فلسفية »[03] .

وهذا يعني أن بنيوية شتراوس وفوكو مثلا لا يستقيم لها منهجا إلا في ضوء أصل فلسفي يقف وراءها ويعمل على تدعيمها وهذا الأصل هو حتما مذهب **كانت** الفلسفي ، غير أن هذا يتنافى مع ما أقره أهل الذكر من النقاد من أن البنيوية ظهرت كرد فعل لصعود نجم الدراسات اللغوية على يد العالم اللغوي السويسرى فردينان دي سوسير ، حتى أصبحت البنيوية تمثل – ولردح من الزمن – اللغة الشارحة لكل حضارتنا المعاصرة ، نظرا لما لاقاه منهجها من قبول ونجاح في كافة المجالات الإنسانية والعلمية .

فقد تغيرت نظرة الناس إلى الأشياء من حولهم – على حد تعبير الدكتور فؤاد زكريا – فبعدما كانوا يتحدثون عن التاريخ والإنسان والذات والوجود أصبحوا بعدها لا يكادون يتحدثون إلا عن البنيـــــــــة و النسق والنظام واللغة ... ولعل سبب ذلك هو ميلاد نزعة فلسفية جديدة في العاصمة الفرنسية " باريس" أطلق عليها إسم " البنيوية" فالبنيوية – والحال هذه – يمكن أن تستغل – كمنهج وطريقة في البحث – في الفكر الفلسفي مثلما استعملها شتراوس في البحث عن الشعوب البدائية وإقامة علم خاص بها هو علم الأنتربولوجيا .

وأعتقد أن **سارتر** – رائد الوجودية – قد قدم الإجابة وبكل وضوح عندما سئل عما إذا كان يرفض البنيوية ككل قائلا« بأنه يتفهم وضع البنيوية ويتقبله متى بقيت في حدود المنهج ، أما إذا تخطت ذلك ، فإنها تتخطى حدود شرعتيها فالبنيات لا توجد من عدم ، وإنما هـــناك من أوجدها ألا وهو الإنسان إذ كيف يمكن القول بثبات البنى ما دام الإنسان يخلقفها باستمرار ؟ » [01].

ويمكنني أن أجد مثالا آخر ، يتمثل فيما وضعه الباحث البنيوي **لويس ألتوسير** عندما استخدم المنهج البنيوي في تحديد الفكر الماركسي متجاوزا إياه إلى ما يمكن تسميته "ما بعد الماركسية ". وإلى مثل هذا يذهب الدكتور **إبراهيم زكريا** إلى القول « بأن البنية صاحبة الجلالة وسيدة العلم والفلسفة ، وسبب ذلك يعود إلى مختلف التطبيقات التي عرفها منهج التحليل البنيوي ، والتي جعلت من " البنية" كلمة واسعة فضفاضة لا تكاد تعني شيئا لأ نها تعني كل شيء » [02].

---

(03) المرجع نفسه ، ص : 08.

(01) عمر مهيبل ، " البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر "، ص : 192 .

(02) إبراهيم زكريا ، " مشكلة البنية – أو أضواء على البنيوية "، ص :07 .

فالبنيوية بحث شمولي يسعى إلى توحيد جميع العلوم في نظام واحد وأن يفسر علميا كل الظواهر الإنسانية ولذلك استقطب هذا البحث كافة المجالات المعرفية بما فيها الفلسفية . وهذا في اعتقادي ما حاول ليفي شتراوس توضيحه عندما قال بأن البنية ليست واقعا تجريبيا بل واقعا كليا يقبع وراء المعطيات المباشرة فهل ينحو شتراوس في هذا التصريح منحا فلسفيا أم ماذا ؟ هذا ما ساحاول الإجابة عنه في المبحث الموالي .

2- ليفي شتراوس بين العلم والفلسفية :

يعتبر كلود ليفي شتراوس [*] مؤسس النظرية البنيوية في العلوم الاجتماعية . و أول من طبقها في ميدان الأنتربولوجيا ، إلا أن أعماله العلمية لا تتحدد فقط في مجال الأنتربولوجيا بل شملت المجتمع والفكر والثقافة ، لذا فإن هناك من يرى : أن الفكر البنيوي كله ، يمكن أن يتحدد بأعمال ليفي شتراوس ، بل وهنالك من غالى في القول وأكد : أن البنيوية ماهي إلا ليفي شتراوس [(01)].

وليس الهدف من هذا المبحث هو إبراز الانتاج العلمي لشتراوس ، لأن هذه الدراسة تبدو صعبة ومعقدة ذلك أن شتراوس قد قدم أعمالا رائدة في العديد من المجالات منها : الأنتربولوجيا ، ودراسة الأساطير والفكر ، والثقافة ، ولذا سأقتصر في هذه الدراسة على تبيان الثنائية الهامة التي تضمنها فكر شتراوس ، ألا وهي ثنائية (**العلم والفلسفة**) ذلك « أن العديد من الدارسين من شاء أن يجعله في حلقة وسطى بين الأنتربولوجيا والفلسفة أي بين العلم و الفلسفة ، فهو أنتربولوجي أقرب ما يكون إلى الفلسفة و فيلسوف أقرب ما يكون للأنتربولوجيا» [(02)].

فقد عمل شتراوس على تجاوز الطريقة الفلسفية في أبحاثه الأنتربولوجية واصفا إياها بالعقم و المدرسية و قال بالمنهج العلمي للبنيوية ، حيث حرص – في أكثر من مناسبة – على التصريح بأن البنيوية الأنتربولوجية منهج لا نظرية ، فعلى الرغم من أن تكوين شتراوس كان فلسفيا في بداية حياته الأكادمية ، إلا أنه ظل يهرب من النظريات الفلسفية لما فيها من صعوبة في اللغة وغموض في الأفكار و تعقد في الأسلوب ....و لذلك فهو يفضل الطريقة العلمية في التفكير على الطريقة

---

[*] ولد كلود ليفي شتراوس في بروكسل ، و تلقى تعليمه في باريس ، ودرس في جامعة ساوباولوا في البرازيل من سنة 1935 إلى سنة 1939 ، وقام في ذلك ببحوث ميدانية أنتروبولوجية ، و قد شغل منذ سنة 1959 منصب استاذ الأنتروبولوجيا الاجتماعية في الكوليج دي فرانس . من أهم كتبه : البنى الأولية للقرابة 1949 ، الجنس البشري والتاريخ 1952 الأنتروبولوجيا البنيوية 1958 ، الفكر البري 1962 . (ينظر جون ستروك ، " البنيوية و ما بعدها - من ليفي شتراوس إلى دريدا " ، تر : محمد عصفور ، سلسلة عالم المعرفة ، العدد : 206 ن المجلس الوطني للقافة والفنون و الآداب الكويت فبراير 1996 ، ص :)

(01) الزواوي بغورة ، " المنهج البنيوي – بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات " ، ص : 147 .

(02) عمر مهيبل ،"االبنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر " ، ص : 27.

الفلسفية ، نظرا لما تتميز به هذه الطريقة من صرامة و موضوعية . « و لم يكن لدى شتراوس أي نزوع فلسفي ، لقد ولدت بنيوية شتراوس في وسط علمي تماما ، وليس في مصادره الثقافية مصدر فلسفي واحد »[03].

و قد يكون هذا هو أحد الأسباب الهامة اللتي جعلت شتراوس يرحب بتصريح **بول ريكور** الذي وصفه يوما بأنه " كانتي بدون ذات متعالية" ، ورد عليه شتراوس قائلا : « إني شاكر للسيد ريكور بصورة خاصة أنه أشار إلى القرابة الممكنة بين مشروعي و مشروع الكانتية ، فقوام الأمر يتلخص بنقل البحث الكانتي إلى المجال الأثنولوجي ، مع هذا الفارق في أننا بدلا من التوسل بالاستبطان و التفكير في حالة العلم في المجتمع الخاص بالفيلسوف ، ننتقل هنا إلى أقصى الحدود ، أي أننا نسلك سبيل البحث عما يمكن أن يكون مشتركا بين إنسانية تبدو لنا بعيدة جدا و الطريقة التي يعمل بها فكرنا ، أي أن نحاول استخلاص الخواص الأساسية و القسرية لكل فكر أيا كان » [01] .

و كذلك وافق شتراوس على وصف **سارتر** له بأنه " مادي متعالي" و إن كان للصفة الأخيرة نفس المعنى مع الصفة السابقة ، « فكونه مادي متعالي يعود إلى فهمه للفكر بوصفه شيء ، و إلى كون هذا الفكر محكوم بقوانين عقلية رمزية ، لا شعورية ، و هي قوانين ، البنية ، و كونه مثالي بدون ذات متعالية راجع إلى رفضه للذات وقوله بمبادئ عقلية مثالية تتحكم في العقل و في الذات»[02].

و إلى جانب ذلك فشتراوس يشيد بكل من " التحليل النفسي " ، و " التحليل الماركسي " و " الجيولوجيا " . فمن التحليل النفسي الفرويدي كان شتراوس قد وظف مصلحاته في مجال الأنتربولوجيا و بواسطته اكتشف كيفية الإجابة عن مستلزماته أو متطلباته ، أما التحليل الماركسي فقد منحه لذة قراءة الواقع على مستوى استراتيجي رافض للوعي ، في حين منحت الجيولوجيا عمق النظرة إلى التاريخ نظرا لأن الجيولوجيا ترى بأن زمن الإحالة (le temps référentiel) ما هو إلا شبه زمن في المستوى الإنساني [03].

---

(03) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الآخر – مدخل الى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 58.

(01) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الآخر – مدخل الى المناهج
النقدية الحديثة " ،ص :59 ، 60 .

(02) الزواوي بغورة ، " المنهج البنيوي " ، ص : 156.

(03) عمر مهيبل ، "البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر " ، ص : 29 ، 30

و من ثم فمنهج الدراسات العلمية الثلاث هذه يقوم على نوع خاص من الفهم ألا و هو الفهم الباطني، العلمي، و العميق للظواهر الطبيعية و الاجتماعية. « و من خلال هذا الثالوث نستنتج الأبعاد الثلاثة التي ترتكز عليها أنتربولوجية و هي البعد العلمي الصرف ، و البعد النفسي اللاشعوري ، و البعد الاجتماعي» [04].

و من الجدير بالذكر أيضا أن شتراوس قد عمل على خلخلة التمركز الغربي حول الذات ، و كما هو معلوم فالفكر الغربي لا يؤمن بغير مرجعيته الفكرية التي ورثها– حسب اعتقاده– من الإغربق قديما إلى أوربا حديثا ، هذا الفكر الذي يقول بتفوق الإنسان الأوربي دون غيره من البشر ، و على هذا الأساس فقد حظي مفهوم الإنسان باهتمام بالغ منذ الفلسفة اليونانية ، على اعتبار أنه يشكل موضوع المعرفة الحقة و الإشكالية الأساس التي تتمحور حولها بقية المفاهيم الإنسانية والاجتماعية الأخرى وبما أن شتراوس قد تناول حقل الأنتربولوجيا البنيوية ، ذلك الحقل الذي يبحث في البنى الكامنة وراء الظواهر ، تلك البنى ذات الطبيعة العقلية ، والنفسية ، بدل الاقتصار على المعاش والعيني والتجريبي على غرار ما تفعل الانتربولوجيا البنيوية وبقية العلوم الإنسانية والاجتماعية ولذلك يجزم الدكتور **سعيد الغانمـــي**« بأن النقد الفلسفي للبنيوية ولد في الأساس مع نقد شتراوس ، لأن موضوع شتراوس كان موضوعا " إنسا نويا" خالصا » [01] .

فمدار البحث في العلوم الإنسانية هو الإنسان ، باعتباره كائن مكلف يحمل أقدس رسالة في هذا الكون أو « باعتباره كائن يهتم أكثر بذاته » [02]. وهذا ما يدل على مدى انغلاق الفكر الغربي وتمركز حول ذاته هذا الفكر الذي يسعى إلى وصف ذاته بالمرجعية الأساسية لتحديد أهمية كل شيء وقيمته وإحالة الأخر إلى مكون هامشي ، فهو فكر لا يؤمن بغير مرجعيته الفكرية الإغريقية – كما ذكرت – والقائلة بأن " الإنسان معيار كل الأشياء " . وطبيعي أن هذا الإنسان المعيار و النموذج – والقول للغانمي – هو الإنسان الغربي الذي ارتفع إلى رتبة الإنسان المثالي أو السوبرمان ... لذلك فالغرب يعتبر نفسه الجوهر الوحيد في العالم والمورد الذي لا ينضب وكل الثقافات الأخرى أعراض وهذا ما قرره الدكتور **سمير أمين** في حديثه عن جملة المرتكزات الهامة ذات الطابع الثقافي التي تستند عليها المركزية الغربية قائلا : « إن الثقافة الأوروبية الحديثة قامت على أساس خرافة مفادها

---

[04] المرجع نفسه ، ص : 30.

[01] سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي والمعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الأخر – مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 58.

[02] الزواوي بغورة ، " المنهج البنيوي " ، ص : 149 .

: الادعاء بالاستمرارية في تاريخ القارة الأوروبية ، وإبداع جذور قديمة وهمية للتضاد بين هذا التاريخ المزعوم وبين تاريخ المنطقة التي تقع على الشواطئ الجنوبية للبحر المتوسط . فهذا هو مضمون التمركز الغربي ، وهو مضمون قسم العالم إلى مركز و أطراف ، استناد إلى اختراع خرافة " الغرب الأبدي " المضاد لي " الشرق الأبدي ". وقد كان هذا الاختراع المزدوج ضروريا من أجل تأكيد غلبة عناصر التطور المستمر في " الغرب" وغلبة عناصر الثبات في " الشرق " » [03].

ويبدو أن هذا التقرير يحمل ابعادا ثقافية خطيرة سوف أتكلم عنها تفصيلا في المباحث القادمة . إلا أن ما يمكنني قوله في هذا السمت هو أن الغرب قد عمل على إعادة إنتاج بعض المكونات التاريخية التي توافق رؤيته الخاصة في التملك والاستحواذ ، معتبرا إياها جذورا خاصة به ، قاطعا بذلك أواصر الصلة بينه وبين مختلف الشعوب الأخرى معتبرا إياها شعوبا خاملة ، بدائية ، متخلفة ، بسيطة وبلا جذور ...

ولكن شتراوس قد رفض هذه التسميات والمعتقدات كافة ، « ورد اعتبار الشعوب اللاكتابية وجعلها لا تقل منطقية عن منطقية الإنسان الأوروبي ، متابعا في ذلك نموذج سويسر اللغوي ، النموذج الذي اقتضى به أن يتخلى عن اعتبار الإنسان الأوروبي معيارا من ناحية ، وأن يجعل من المجتمع موضوعا يمكن تثبيته في لحظة تزامنية من ناحية ثانية »[01].

فكان شتراوس بذلك أول من رفض تسمية المجتمعات " القديمة " " بالمجتمعات " البدائية " ، فهو يسميها تارة " المجتمعات بدون كتابة " أو " المجتمعات البـــــاردة " في مقابل " مجتمعـــــــات الكتابة والحارة " [02]، ونفس العمل قام به مع باقي التسميات الأخرى مع شرح أسباب ذلك بالطبع ، وإن كان في هذا العمل مبالغة ، فهو يعكس – كما يقول الدكتور الزواوي بغورة – « موقفا جديدا ونظرة مخالفة لواقع كاد أن يكون بديهيا ، ذلك الواقع الذي استقر في أذهان الكثير من الباحثين المقتنعين بأن هذه المجتمعات مجرد مجتمعات بسيطة ومتخلفة وبلا جذور ، من هنا فإن وجهة نظر ليفي شتراوس ذات أهمية خاصة ، لا لأنها تعكس حقيقة هذه المجتمعات بل لأنها أرادت أن تزعزع قناعات بلغت مستوى البديهية ، ويعكس موقف البنيوية والمنهج البنيوي

---

(03) سمير أمين ، " نحو نظرية للثقافة " ، معهد الإنماء العربي ، (د-ط) ، بيروت – لبنان ، 1989 ، ص :75 .
(01) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي والمعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الاخر " ، ص :58 .
(02) الزواوي بغورة ، " المنهج البنيوي " ، ص : 150.

الرافض للمركزية والتقوقع على الذات ، والداعي إلى اللامركزية وكسر أسوار الذات والتفتح على الأخر »[03].

ويبدو من هذا العمل أن شتراوس قد تأثر باللسانيات البنيوية التي وضعها دي سويسر في أوائل القرن الماضي عندما فصل بين اللغة والكلام ، وقال بطيعة الوحدة الأساسية في أي لغة ، أقصد الرمز أو العلامة (Signe) .حيث يرى الكثير من المفكرين بأن معظم الفضل في إعادة توجيه النظر إلى دراسة المجتمعات القديمة المسماة بدائية من لغة ، وعادات ، وأعراف اجتماعية ، وأساطير ... إنما يعود لشتراوس الذي قام بتطبيق منهج جديد من مناهج التحليل البنيوي على المجتمعات القديمة ينبني على النظرية اللسانية الحديثة .

فقام بإعادة الاعتبار إلى هذه المجتمعات ، ورأى بأن للأساطير – مثلا – مكانا هاما ومميزا في المنظومة الأنتربولوجية .« إنها جزء لا ينفصل من اللغة ، والتغاضي عن هذه النقطة الهامة تترتب عنه نتائج جد خطيرة أهمها إهمال مايسمى بالمجتمعات البدائية ، ذلك أن معرفتها على وجه أكمل يعتمد بالدرجة الأولى على دراسة أساطيرها ومعرفتها التي تعتبر المعبر الحقيقي عن واقعها » [01]

وأعتقده قد توصل إلى هذه النتيجة من خلال اعتمادة الأساس البنيوي في تحليلاته الأنتربولوجية لهذه المجتمعات ، مثل انطلاقه من مبدأ اختلاف هذه المجتمعات بعضها عن بعض ، وليس بهدف معرفة المجتمعات في نفسها ، وهو يشبه في ذلك منهجية النظام اللغوي القائم على القيم الخلافية بين العناصر الموجودة داخل كل بنية . ولم تصبح المجتمعات القديمة بمثل البساطة والسذاجة التي نتصورها على الرغم من أن هناك تمايز بين الفكر البدائي القديم والفكر العلمي الحديث ، إلا أن هذا التمايز لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الجوهري الذي يصنع الحدود الفاصلة بين الفكرين المعنيين ، بل هو ينشأ عن الاختلافات الموجودة بينهما من مثل أنماط الظواهر والأطر الثقافية والاجتماعية التي يمارس كل منهما نشاطه من خلالها.

وعلى هذا الأساس فقد ركز شتراوس في أبحاثه الأنتروبولوجية على مفهوم الثقافة ، وقال بعدم وجود الإنسان الطبيعي ، بل إن الإنسان تصنعه الثقافة التي يكتسبها والتي تجعله ذو طبيعة معنية وذلك في حدود المجتمعات الإنسانية وليس في حـــدود الطبيعـــة « إذن الثقافة هي الأصل وليست

---

(03) المرجع نفسه ، ص : 151.

(01) عمر مهيبل ، " البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر " ، ص : 31 .

الطبيعة إلا اشتقاقا وحالة من حالاتها ، مما يترتب عنها نتيجة أخرى هي أن الثقافـــــة ثابتـــة والطبيعة عارضة ، وبهذا يكـــون ليفي شتراوس قد أحدث قطيعة بينه وبين الآراء السابقة له » [02].

وهذا يعني أنه ليس ثمة فكر واحد وثابت ، كما أنه ليس ثمة فكر بدائي وفكر متمدن أو متحضر بل إن الفكر البدائي هو الذي يدخل في علاقات تناظر وتماثل مع الفكر المتحضر . لأن العقل يتميز بالثبات هذا الثبات الذي يجعله يتجلى في شكل نشاط لا شعوري للعقل ، ذلك « أن العقل شيئ من بين الأشياء و وظيفته أن يفرض أو أن يصنع أشكالا لمضامين معنية ، فهو واحد عند الجميع ، البدائيين والمتحضرين والسبب في ذلك أنه يخضع لقانون واحد هو قانون البنية اللاشعورية الواحدة ، ذات الطبيعة الأنطولوجية وبذلك نصل إلى نظرية فلسفية في العقل و الوجود تعكس نتائج وأبعاد المنهج البنيوي ، الذي جعل من مبدأ التزامن أساسا لتحليلاته ، لذا فإن النتيجة الجوهرية لمثل هذه التحليلات هي إقامة نظرية ميتافيزيقية تقول بثبات العقل و واحد يته وشكليته » [03].

واهتمام شتراوس بالأساطير قد يعود إلى إيمانه بأن الدور الذي يؤديه العقل الأسطوري في المجتمعات البدائية هو نفس الدور الذي يؤديه العقل العلمي في المجتمعات المتحضرة ، وأن الفرق بينهما ليس سوى اختلاف شكلي يتعلق بطبيعة الموضوعات التي يتناولها كل عقل ، ويمكني القول بالتالي أن شتراوس قد سعى إلى بناء قاعدة بنيوية عامة تقول بأن العقل شيئ من بين الاشياء ، وأنه واحد عند الجميع ، البدائيين والمتحضرين . والسبب في ذلك أنه يخضع لقانون واحد هو قانون البنية اللاشعورية الواحدة ، وقد يكون هذا العمل انتقال أو تحول من نظرية في العلم والمعرفة المنهجية إلى نظرية فلسفية يتم فيها إدماج الثقافة في الطبيعة والحياة . ولكن هذا أيضا انتقال من العلم إلى الفلسفة ومن المنهج إلى النظرية .

3- النزعة الكانطية عند ليفي شتراوس :

من المعلوم أن **جان بول سارتر** كان من أكبر المدافعين عن الإنسان والتاريخ في الفكر الفلسفي المعاصر فلاغرو إذن أن نرى سارتر قد صدم للتصدع الذي بدأ ينتاب صرحه الضخم على يد البنيوية ، هذه الحركة الفكرية – العلمية التي عرضت مفهوم الإنسان والتاريخ لنقد وتجريح كبيرين ، واعتبرت الإنسان مجرد راسب من رواسب المرحلة اللاهوتية ومجرد أداة معرقلة لتطور الفكر الفلسفي وانفتاحه على أفاق أوسع .

---

(02) المرجع نفسه ، ص : 33 .

(03) الزواروي بغورة ، " المنهج البنيوي " ، ص : 156 .

فعلا لقد نادى شيخ البنيويين ليفي شتراوس باسقاط مفهوم الإنسان والتاريخ من قاموس البنيوية الدلالي ، قائلا : « ليس التاريخ الذي يزعم الكونية سوى تجميع لبعض التواريخ المحلية ، الثغرات الموجودة ضمنها – وفيما بينها – أكثر عددها من أجزائها الممتلئة »[01]. فشتراوس قد هز بذلك العلاقة الهامة والقائمة بين الإنسان والفلسفة ، والتي كانت دائما علاقة مميزة في الفكر الغربي ، وأعلن – مثل فوكو – أن الإنسان سائر نحو الزوال والاندثار ، هذا إن لم يكن قد مات فعلا . فهل وجد شتراوس وغيره من البنيويين ما سيتبدلون به مفهوم الإنسان في الفكر الفلسفي المعاصر ؟ وإلافما هو مصير النزعة اللاتاريخية ، اللاإنسانية للبنيوية ؟ .

يجيب الدكتور عمر مهيبل عن هذا التساؤل قائلا : « لقد استبدلت البنيوية بمفهوم الإنسان نسقا منتظما من البني الثابتة الموجودة سلفا وجعلته الناطق باسمها ، كما أن البني اخترقته وأسكتت صوت الإرادة فيه وصارت المعبر الوحيد عنه بأوجه متعددة منها السيكولوجي ، والاقتصادي والإيدبولوجي » [02].

وشتراوس قد صرح بأن مثاله الأعلى في العمل البنيوي هو الصرامة العلمية والموضوعية ، التي حاول تطبيقا في كل أعماله الأنتربولوجية و لا بد أن هذه الميزة قد أخذها ،عن اللسانيات البنيوية مثل مفاهيم التزامن ، والرمز (العلامة) ، والقيم الخلافية ، وغيرها من مبادئ ومرتكزات هذا العلم الحديث . غيرأن الأنتربولوجيا البنيوية – كما يرى سارتر – « تجعل من الإنسان مجرد رقم في معادلة رياضية وفي أحسن الحالات رمزا لغويا في جملة غير مفيدة ، إضافة إلى أن طريقة النموذج الواحد التي طبقها ليفي شتراوس لا تؤدي بنا إلى نتائج يقينية »[01].

ويكون شتراوس بذلك قد تعرض لجملة من الانتقادات العلمية المشروعة من قبل العديد من المفكرين ، وسارتر يتصدرهم ... غير أن ذلك لا يمكنه أن يقلل أو ينقص بأي حال من الأحوال من قيمة المجهود العلمي والفلسفي الذي بذله شتراوس في العديد من مؤلفاته وإن كان إعلان موت الإنسان والتاريخ لن يمر هكذا – والقول لمهيبل – من دون تعقيدات معرفية ومنهجية . « فموت الإنسان يعني نهاية الفلسفة ، ونهاية الفلسفة تعني انهيار دعامة أساسية من دعائم المعرفة الإنسانية .صحيح أن هناك مجالات معرفية متنوعة يمكن أن تسد جزءا من الفراغ لكن ما من واحدة يمكنها أن ترقى إلى مستوى التفكير الفلسفي أو يمكنها تمثل فعل التفلسف الذي هو من الأفعال الأولى التي لازمت ماهية الإنسان في دروب كينونته الأولى

---

(01) الزواروي بغورة ، " المنهج البنيوي " ، ص : 157

(02) عمر مهيبل ، " من النسق إلى الذات – قراءات في الفكر الغربي المعاصر " ، منشورات الاختلاف ، ط (01) الجزائر ، 2001 ، ص : 22 .

(01) عمر مهيبل ، " البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر " ، ص : 38 .

، و في عملية بحثه عن طرق وعي هذه الكينونة ،لأن حذف فعل التفلسف يعني القضاء على أفكار الإنسان وإجهاض رؤاه قبل أن ترى النور »[02].

و الفلسفة تسعى – كما هو معلوم – إلى تفسير أغلب الظواهر تفسيرا عقليا ، و لا سيما الظواهرالمتناقضة مثل : الذات و الموضوع ،العقل و العاطفة ، الواجب و الهوى... حتى يتمكن من تحديد وضعه داخل الكل الهائل الذي نسميه الوجود . فقد كان العلم في العصر الوسيط خاضعا للنسق المعرفي اليوناني و الذي لم يكن فيه مكان للتجربة العلمية ، ثم جاءت الفلسفة العقلية التي تعتبر المعرفة الرياضية أنموذجا لكل معرفة وبذلك ركزت على العقل باعتباره مصدرا هاما لمعرفة العالم على الرغم من أن إمكانية التجربة في الرياضيات ناقصة نظرا لأنها لا تمكن من إظهار الحقيقة في جزئياتها نتيجة انتهائها إلى مجموعة قوانين ليس إلا ... وخير مثال على ذلك ما قام به ديكارت –أبو الفلسفة الحديثة – من بناء لفلسفته العقلية على أسس رياضية ، « لأن الرياضيات تنطوي على قدرة تقديم استدلالات صحيحة لا توجد في غيرها ، وهي حسب ديكارت توصل من يمرن ذهنه فيها لأن يكون أهلا للبحث عن الحقائق الأخرى لأن منهج الفكر واحد في جميع الأمور» [03] .

غير أن هذا لا يعني اقتصار الفلسفة على العقل دون سواه من الاستعلامات أو المناهج المعرفية الأخرى مثل منهج الحس و منهج الحدس الصوفى...باعتبار أن هذه المناهج لا يمكنها الخضوع لعمليتي النقد و التمحيص نظرا لقيامها على اعتبارات شخصية وذاتية ليس إلا . في حين ينشد العقل الضرورة في فهم الظواهر و تفسيرها نتيجة نزوله من عالم الميثاليات إلى جزئيات الطبيعة المحسوسة (الواقعيـــة) التي نلمسها و نراها ، فاتخذ العقل بذلك مبادئ و مستلزمات البحث العلمي (الملاحظة و التجربة) و اتخذت بذلك التجربة وسيلة للبحث و التحقق ، فأصبح بإمكان الإنسان أن لا يثق من كل شيء إلا بعد أن يتحقق منه بواسطة العقل و التجربة ...

يقول **ول ديورانت** : « إن الفكرة المركزية في ديكارت هي أسبقية الوعي و أن العقل يعرف نفسه بسرعة مباشرة أكثر من مقدرته على معرفة أي شيء أخر ، و أنه يعرف العالم الخارجي فقط عن طريق أثر ذلك العالم على العقل بالإدراك الحسي . و بناء عليه يجب أن تبدأ كل الفلسفة بعقل الفرد وذاته و تبدأ نقاشها الأول في كلمات ثلاث :أنا أفكر لذلك أنا موجود » [01] .

---

[02] عمر مهيبل ، "من النسق ،الى الذات- قراءات في الفكر الغربي المعاصر " ص : 22 ، 23 .

[03] عبد الله إبراهيم ، " المطابقة و الاختلاف : المركزية الغربية (إشكالية التكون و التمركز حول الدات)" ، المركز الثقافي العربي ، ط (01) ، الدار البيضاء و بيروت ، 1997 ، ص :75.

[01] ول ديورانت ، " قصة الفلسفة (من أفلاطون إلى جون ديوي)" ، تر : فتح الله محمد المشعشع ، ص 190.

لقد اتخذ ديكارت من المبادئ العليا و الحقائق الميتافيزيقية فيما وراء الطبيعة أساسا لبناء فلسفته العقلية خلافا لما سبقه من الفلاسفة اللاهوتيين و التجريبين ، وشك في كل ما يحيط به ، شكا منهجيا و مؤقتا و مبالغ فيه لأنه يحكم على كل ما هو مشكوك فيه كما لو كان باطلا ... بيد أن الحقيقة الثابتة الراسخة التي ظهرت لديكارت كالشمس ،هي الفكر . يقول ديكارت :« فليضلني ما شاء ، فما هو بمستطيع أبدا أن يجعلني لا شيئ ما دام يقع في حسباني أنني شيئ» [02] . فالفكر عند ديكارت ثابت – كما سأرى لاحقا – و هو في قضية الكوجيتو (الذات المفكرة) يتجلى حاسما و يرتبط ارتباطا ضروريا بالوجود.

قد يكون هذا هو فحوى الفلسفة العقلية وإن اقتصرتها في ديكارت باعتباره مؤسس هذه الفلسفة التي تؤمن بواقعية العقل و نفعيته...و ظل الأمر كذلك ،إلى أن جاء الفيلسوف الألماني **إيمانويل كانط Emmanuel kant** [*].

وقال بعكس ذلك تماما – إن صح التعبير قال بجدوى إخضاع العقل نفسه للنقد والتمحيص : « فلماذا لا نخضع هذا العقل بالذات للنقد والتمحيص لنتبين حدود استعمالاته المشروعة من حدوده غير المشروعة فهذا أضمن لبلوغ معرفة يقينية أكثر دقة وصرامة » [01]. وإن هذه الفكرة على الرغم من بساطتها إلا أنها تحمل في دلالاتها معرفة موجزة لفلسفة حديثة كانت قد قدمت مثلا صارخا توجز فيه التناقص الإنساني القائم والمتجـــــذر في الوجود ، كالتناقص بين الذات والموضوع ، وبين الظاهر والشيئ في ذاته ... ألا وهي " الفلسفة النقدية " ، فما الذي نعنيه بالفلسفة النقدية وما علاقتها بكل من كانط وشتراوس ؟

---

[02] الربيع ميمون ، " مشكلة الدول الديكارتي " ، ص : 30.

[*] **إيمانويل كانط** :فيلسوف ألماني شهير ،ولد في 22 أفريل 1724 في مدينة كونجسبرج الألمانية في أسرة اشتهرت بالفقر
و التدين ، و بالعناية البالغة بتربية أفرادها تربية دينية .. ولهذا طبع كانط منذ عهده الأول بالحياة على الهدوء و الجدية و على التمسك بالدين و التعلق بنظام الكنيسة .تخرج كانط من جامعة كونجسبرج عام 1746 ،و بعد أن ظل بضع سنوات يعمل معلما خاصا ، اشتغل بالتدريس و الكتابة الحرة في الجامعة . و عندئذ أظهر فيما كتب من رسائل صغيرة ومقالات في شتى ضروب المعرفة نبوغا فذا وعبقرية نادرة ، ولكنه في عام 1770 عين أستاذا بالجامعة لعلوم المنطق والميتافيزيقا فكثر إنتاجه فيما ألقى من محاضرات أو وضع من مؤلفات .وظل كذلك حتى أثر حياة الهدوء والاعتزال قبل وفاته ببضعة أعوام =
=إلى أن وافاه القدر المحترم دون أن يتزوج عام 1804 . من مؤلفاته الثرية : " نقد العقل الخالص " (ينظر ول ديورانت " قصة الفلسفة (من افلاطون الى جون ديوي)" ، ص : 326 وما بعدها . ومحمد عبد الرحمن بيصار،" تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، منشورات المكتبة العصرية ، ط (03) ، بيروت – لبنان ، 1980 ، ص : 132 وما بعدها) .

[01] عمر مهيبل ، " البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصرة ، ص : 45 .

ظهر كانط بوصفة فيلسوفا نقديا في الفترة التي استفحلت فيها مغالاة التيارين الرئيسين في الفلسفة الغربية : التيار التجريبي الذي استثمر كشوفات العلم ، ومضى في القول إن التجربة الحسية أساس كل معرفة مفيدة وقد نظم إطاره الفلسفي **لوك وهيوم** . والتيار العقلي الذي يضع العقل مصدر لكل معرفة باعتباره ملكة حائزة على شروط المعرفة ، وهو التيار الذي نظم أطره **ديكارت** ومضى فيه **سبينوزا و لايبنتز** إلى أقصى أبعاده الميتافيزيقية [02].

ما أمكنني ملاحظة من هذا التصريح هو أن التفكير الفلسفي في القرنين السابع عشر والثامن عشر قد انقسم على نفسه ، فثمة فريق من الفلاسفة العقلانيين الذين حكموا على أهلية الدين والإيمان بالبطلان ونصبوا العقل مكانهما ، العقل الذي يقترح تدمير معتقدات وديانات يؤمن بها الملايين من الناس منذ الاف السنين في جميع أنحاء العالم من جهة . وفلاسفة تجريبيين قد غالوا في ظنهم بأنهم احتكروا الحقيقة في حين ظلها غيرهم من جهة ثانية ، « وينبغي أن نفهم أن ذلك الانقسام عائد في بعض أسبابه إلى طموح العلم المشروع بأن يحقق أقصى النتائج الواعية الممكنة اعتمادا على الحواس والتجارب في منأى عن حضور موجهات الفكر القديم من جهة واحساس العقلانيين المتأصل تاريخيا أن ذلك قد يفضى إلى العبث والفوضى ...»[03] .

والجدير بالذكر أن الفلسفة العقلية عمت أوربا كلها أنذاك . وإن بدت أقوى تأثيرا وأكثرا انتشارا في فرنسا حيث كثر الإعتداد بنماذج التفكير العقلي وإعطاه القيمة المطلقة وجعله الأداة الصالحة لإدراك حقائق الوجود والمعيار الكافي لوضع قواعد السلوك ، والغاية المثلى التي يجب أن تهدف لها الحياة ...

وهذا ما كان سببا في انتشار موجه حادة وجارفة من الفكر والالحاد والتنكر لمختلف العقائد الدينية ، والتي بدأت في عهد التنوير وعلى يد **فولتير** (1694–1778) ، المفكر الفرنسي ، الجري الذي أعطى العقل قوة دفع عظيمة وعاصر القرن الثامن عشر ، هذا القرن الذي سمي بعصر العقل ، حيث تم فيه دحض أباطيل الكنيسة وترهاتها القائمة على التفسير اللاهوتي للطبيعة . وسيمى كذلك **بعصر التنوير** الذي حدثت فيه تطورات كبيرة ، « وكان السبب الرئيسي هو نزول فولتير إلى الحلبة ، إذ لم يلبث أن رفع عقيرته بانتقاد رجال الدين والنبلاء وسخريته للاذعة من الفلاسفة الذين عفا عليهم الدهر ، كل ذلك بلغة بسيطة وبمزيج من روائع التهكـــم اللطيف والنقد المعتدل ، وجاءت أراؤه هـــــذه في كتابة " رسائل فلسفية "

---

[02] عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركز حول الذات) " ، ص : 86

[03] المرجع نفسه ، ص : 86 .

(Lettres philosophiques 1734) » [01].

غير أن كانط ومن سبقه من الفلاسفة العقلانيين والتجريبيين أمثال : فرنسيين بيكن ، لوك هيوم، بركلي ... كانوا قد أطلقوا صيحتهم لمقاومة الهمجية التي طغت على الدين في عهد التنوير ومهدوا الطريق لاختبار العقل ووضعه على محك النقد الموضوعي ... ومع ذلك فإنهم لم يتوصلوا إلى نتائج ذات صيت بارز هام مثل ما وصل إليه كانط ، لأنه وحده من وضع العقل موضوع الإتهام وقام بنقده بكل جرأة وشجاعة ، « فإن كانط بوضعه كتابه (نقد العقل الخالص) ويعني به العقل النظري وقد أوسع في هذا الباب وأبدع حتى استطاعت فلسفته بما امتازت به من فوة الاقناع وعمق التفكير وصرامة الرأي وإحكام الصياغة ودقة البحث أن تغزو عقول المفكرين في أوربا وأن تجعل من المذاهب الفلسفية التي ظهرت في القرن التاسع عشر مجرد موجات سطحية تتدفق تحتها التيارات الجارفة القوية للفلسفة الكانتية » [02] .

فأمام تضارب التيارين العقلي والتجريبي وأمام تراكم المعارف وتباين نماذج التفكير المعرفي ورفض نموذج أخلاقي معين ، ظهر كانط ناقدا من جهة وساعيا لتركيب عقلانية جديدة تقوم على المصالحة بين التيارات الفلسفية المتعادية . فأحدث بذلك ثورة فلسفية لخصت الخصائص العامة لعصر التنوير « وأطلق عليها اسم " الثورة الكوبرينقية " وجعل محورها المقابلة بين الإنسان والعالم الخارجي وانتهى منها إلى أن الإنسان هو المركز ، وأن العقل هو الأساس في جميع معارفنا »[03] . وهذا يعني أن كانط قد أعاد الاعتبار حقا للعقل ، الذي كان مغيبا عند الفلاسفة التجريبيين الذي اعتبروا أن إدراك الحقيقية يكون بواسطة التجربة والملاحظة ، أي خارج العقل ، « وقال باستحالة اللجوء إلى الواقع الخارجي للبرهنة على وجود العقل »[01]. وإن كان في هذا العمل رفض لتوجه الفلاسفة العقلانيين الذين غالوا في تمجيد العقل ، بل إن كانط قد حاول إعادة التوازن بين العقل والتجربة ، محدثا بذلك نقطة تحول هامة في تاريخ الفكر الإنساني ، ناقدا أو مؤيدا لما تضمنته فلسفة سابقيه من آراء وأفكار ، ومؤسسا لما أطلق عليه إسم " الفلسفة النقدية " ، « التي تقوم على الأسئلة الثلاثة المشهورة وهي :

---

(01) "تاريخ الأدب الغربي" ،تأليف :نخبة من الأساتذة المختصين ،دار طلاس للدراسات والترجمة ونشر ،ج (02) ، (د- ط) دمشق –سوريا ، (د- ت- ن) ، ص :361 .

(02) محمد عبد الرحمن بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ص : 137 .

(03) إمام عبد الفتاح إمام ، " المنهج الجدلي عند هيجل " ، دار المعارف ، (د-ط) ، مصر ، 1969 ، ص : 91 .

(01) عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني والمعني الفلسفي " ، المبرز ، المدرسة العليا للأساتذة في الأداب والعلوم الإنسانية ، الجزائر ،فيفري 2002 ، ص : 135 .

أ- ما الذي يمكنني أن أعرفه ؟ ويمثل مشكل المعرفة .

ب- ما الذي ينبغي لي أن أعمله ؟ ويمثل المشكلة الخلقية .

ت- ما الذي أستطيع أن أمله ؟ ويمثل المشكلة الدينية » [02].

فالمشكلة الأولى تخص العقل الخالص أو النظري ، وتدخل الثانية في نطاق اختصاص العقل العلمي بينما تكون المشكلة الثالثة من اختصاص العقلين معا [03] .

وعلى هــذا الأساس فقد اعتبر كتاب **كانط** (نقد العقل الخالص) من الكتب القيمة التي أحدثت انقلابا مفزعا في عالم الفلسفة ، والذي حاول فيه اصباغ الفلسفة النقدية بالصبغة العلمية من خلال نقده العقل الخالص « الذي يعني في نظره المعرفة التي لا تأتي عن طريق الحواس ، ولكنها معرفة مستقلة تماما عن كل أنواع التجربة والحواس »[04] .

فكانط يقول – والحال هذه – بالفلسفة العقلية التي تقوم على النقد التحليلي والتي تعتبر العقل مصدرا ومستودعا للمعرفة الإنسانية . وهو بذلك يهاجم الفلاسفة التجريبيين وعلى رأسهم لوك وهيوم قائلا : « إن التجربة ليست الميدان الوحيد التي تحدد فهمنا ، لذلك فهي لا تقدم لنا اطلاقا حقائق عامة وبذلك فهي تثير عقلنا المهتم بهذا النوع من المعرفة بدل أن تقنعه وترضيه. لذلك لا بد أن تكون الحقائق العامة التي تحمل طابع الضرورة الداخلية مستقلة عن التجربة واضحة ومؤكدة في نفسها . إذ لا بد أن تكون حقيقية، بغض النظر عن نوع تجربتنا الأخيرة وحقيقية حتى قبل التجربة »[05].

ما أمكنني ملاحظته من هذا التصريح الذي أفادنا به الفيلسوف كانط ، أن ثمة مفارقة جوهرية بين المنهج التجريبي والمذهب العقلي ، ذلك أن المنهج التجريبي يسعى إلى تحقيق النتائج التي تصل إليها العلوم بالاستدلال واستكشاف الحقائق الجديدة ، وهذا مايؤدي إلى تكوين علم قائم برأسه هو " العلم التجريبي " . وبذلك فهو منهج يجعل للعقل دورا ثانويا في إقرار المعرفة ، بعكس المذهب العقلي الذي يعطي العقل الأهمية الكبرى في اكتشاف الحقيقة ، من دون إلغاء المعرفة الحسية أو "الحس السامي " الذي يرى فيه كانط الشرط الأول لحصول المعرفة و أداة الاتصال المباشرة بالواقــع . قائـــــلا :

---

(02) عمر مهيل ، " البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر " ، ص : 45 .

(03) المرجع نفسه ، ص : 45 .

(04) ول ديورانت ، " قصة الفلسفة (من أفلاطون الى جون ديوي)" ، ص :333 .

(05) المرجع نفسه ، ص :334 ، 335 .

« إن الأحاسيس في حد ذاتها ليست سوى وعي للدافع أو الحافز . فقد نحس بطعم على اللسان أو رائحة في الأنف ، أو صوت في الأذن ، أو حرارة على الجلد... هذه الأثار الحسية هي المادة الخام التي تبدأ بها التجربة (...) و لكن إذا اجتمعت هذه الأحاسيس المختلفة حول شيئ في المكان و الزمان فإن هذا يؤدي إلى إدراك ذلك الشيء ، و بذلك يكون الإحساس قد تحول إلى معرفة» [01].

و ما تجدر الإشارة إليه أن ليفي شتراوس قد أكد دور الحواس في معرفة ظواهر العالم الخارجي عندما ناقش مشكلة اللغة و التأويل في الفلسفة الظواهرية و الفلسفة التأويلية و قال بضرورة تخطي المعاش" Le Vècu " " من أجل اكتشاف البنية إلى ما هو واقع و حقيقي وهو لا يمكن أن يكون إلا عقليا عنده [02] .

و كنت قد رأيت في المبحث السابق من هذا الفصل كيف أن شتراوس قد رفض الاعتراف بالبعد الفلسفي في أعماله البنيوية الأنتربولوجية عندما قال بعقم القلسفة و غموضها ، رغم أن تكوينه الأكاديمي في بداية حياته كان فلسفيا ، إلا أن ثمة نقاط التقاء هامة بين شتراوس و كانط ، يوجزها الدكتور عمر مهيل فما يلي :

*- إذا كان كانط يقول بأن العقل البشري يتوفر على تصورات قبلية سابقة على أية تجربة ، فإن ليفي شتراوس يؤكد أيضا على وجود أطر عقلية ثابة سابقة على التجربة ، أي أولوية البناء على الظواهر

و تعاقبها ، و هذا ما يمثل أحد الأسس الهامة للبنيوية .

*- لقد أولى كانط اهتماما خاصا بالعقل أو الذهن البشري و أعطاه مكانة متميزة في منظومته الفلسفية النقدية : إذ نسب إليه تركيبا معينا : ولكن دون أن يحدد لنا مصدر هذا التركيب ، هل هو قبلي أم تجريبي ؟ هل هو من صور الحساسية أم من تجليات العقل أو الفهم ؟

و نسب أيضا إلى الذات الإنسانية صور الحساسية و الفهم السابقة الذكر دون أن يفيدنا عن سبب امتيازها هذا ليفي شتراوس أيضا : و على الرغم من أهمية البنية و دورها في منظومته فإنه لا يحدد أصلا لهذه البنية و لا يوضح لنا كيفية وجودها على ما هي عليه [01].

---

[01] ول ديورانت ، " قصة الفلسفة (من أفلاطون الى جون ديوي)" ، ص : 336 ، 337

[02] ينظر الزواوي بغورة ، " المنهج البنيوي " ، ص : 136 و ما بعدها.

[01] عمر مهيبل ، " البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر "ص :47.

و بناء على هذه المعطيات يمكنني القول أن كانط و شتراوس بما قدماه من بناءات فكرية للفلسفة العقلية و الأنتربولوجيا البنيوية على التوالي ، لم تكن إلا لتخدم غرض تحقيق مبدأ الدقة و الصرامة العلمية التي تود الفلسفة النقدية الوصول إليه .هذه الفلسفة التي دعم أسسها كانط عندما حاول بناء صرح جديد للميتافيزيقا يقوم على أساس المبدأ العلمي الصحيح و التخلي بالتالي على مرتكزاتها التقليدية ، و هذا نفسه ما حاولت البنيوية تحقيقه في القرن الماضي عندما حاولت تطبيق منهج علمي صارم على العلوم الإنسانية و الاجتماعية و كذلك الفلسفة.

وبذلك فقد شارك البنيوية حلمها في تحقيق هدفها العلمي الصارم العديد من الفلاسفة ، يأتي على رأسهم فيلسوف المثالية والنقدية الكبير كانط . غير أن ثمة نقطة خلاف هامة بين كل ليفي شتراوس وكانط نتعلق بمبدأ " الذاتية المتعالية " عند كانط فأنا أذكر جيدا قول المفكر الفرنسي بول ريكور " بأن بنيوية شتراوس كانطية دون ذات متعالية " . فهو يقصد بذلك أن شتراوس قد شارك كانط الحلم عندما حاول جعل الفلسفة علما صارما له قواعده التي يرتكز عليها لكنه خالفه في مبدأ الذاتية المتعالية فكيف ذلك ؟

لقد أكد كانط في أكثر من مناسبة ، بأن أساس المعرفة موجود داخل العقل البشري أو الفردي وفي هذا التصريح تأكيد على الذات (التمركز الأوروبي)، « وفي الواقع إن زوال الذات عن فلسفة كانط يحدث تغيره منهجية ومعرفية في مذهبه المتكامل الحلقات ، ولكن إذا تقلنا هذه النزعة من الفلسفة إلى الأنتربولوجيا فإن استبعاد الذات عنه لا يصبح ذا أهمية كبرى ، بل إن ذلك يساعدها على بلوغ الدقة العلمية التي ينشدها ليفي شتروس» [(02)] ، فقد أعاد المنهج البنيوي – كما أراده ليفي شتراوس – الاعتبار إلى المجتمعات البدائية من خلال نقده للمركزية الغربية ، وذلك عندما أثبت بأنه من أجل الوصول إلى تحقيق الصرامة العلمية والموضوعية يجب التضحية بالذات ، من أجل بلوغ الحقيقة أي يجب حذف الوعي من أجل اللاوعي ، ودليل ذلك رفض شتراوس التاريخ وإقصاءه له من جهة ، وكذلك إصراره في أكثر من مناسبة « على التذكير بأن البنيوية منهج وليست فلسفة بل على التنبيه بأنه لا يكاد يقرأ الفلسفة»[(03)].

وبذلك فإنه لا يمكنني أن أجزم بأن هدف ليفي شتراوس في أبحاثه الأنتربولوجية كان هدفا فلسفيا ويكفيني القول أن البنيوية تدعو إلى ثورة كوبرنيقية مثل تلك التي دعا إليها كانط ، وقد يكون هذا هو أحد الأسباب الهامة التي جعلت الدكتور فؤاد زكريا وغيره من الباحثين يعترفون بوجود أصل فلسفي للبنيوية على الرغم من إنكار شتراوس نفسه لهذا الأصل .

---

(02) المرجع نفسه ، ص : 47 .

(03) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي والمعني الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الاخر – مدخل الى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 59 .

2-4- البنيويـــة من أين ؟ و إلى أين ؟ (موقف من البنيوية) :

يمكن العودة ببدايات التعريف بالبنيوية إلى الثورة المنهجية الجديدة التي دشنها الشكلانيون الروس ، ودي سوسير ، و مرورا بحلقة براغ و اللسانيات الأمركية و البنيوية التي استقام شأنها على اعتماد النموذج اللساني معيارا لها في الوصف و التحليل ، وصولا إلى السيميولوجيا التي أشرت الأزمة الداخلية في النموذج اللغوي الذي تبنته البنيوية ، وانتهاء بالتفكيك الذي توج اتجاهه بتجاوز المعيارية ، مطورا السيميولوجيا إلى آفاق جديدة في الكشف والاكتشاف ، واستكناه ماهو مغيب في الخطاب الفلسفي والأدبي والتاريخي [01] .

يسمى بعض النقاد البنيوية بالثورة النظرية أوالمنهجية ، نظرا لأنها ليست سوى منهج من المناهج الحديثة التي برزت إثر الثورة المنهجية الحديثة . ولأنها تؤمن باللغة وتثق فيها وفي إمكانية التحليل الموضوعي . فالبنيوية قد أعادت الاعتبار للغة ، حيث لم تعد اللغة وسيلة سلبية لنقل الأفكار والمفاهيم القبلية وإنما هي الأساس الفاعل المنتج لهذه المفاهيم التي تنتقل بواسطتها . وفي الواقع فإن اللغة كانت ولاتزال تلعب الدور الحاسم في عمليات الوصف والنظر في منظومة الأفكار المتداخلة .

وبما أن نظريات " ما بعد البنيوية " تمثل في آن واحد استمرارية للبنيوية ورفض لها ، فإن أنصار "ما بعدالبنيوية " ولا سيما التفكيكيون يمشون على خطى أهل البنيوية ويركزن على اللغة باعتبارها وسيلة تواصل هامة ، وكونها تحدد الفروض الدقيقة وتصف البراهين والنتائج ، فقد أصبحت اللغة هي " القدوة " و " النموذج" لمختلف العلوم ، وخاصة الإنسانية منها .

والبنيوية منهج قد استفاض وبسط جناحية خلال العقدين الماضيين من القرن العشرين على كثير من العلوم الانسانية التقليدية ومجالات النشاط الإنساني ، وتمكنت من التزاوج مع طرائق التفكير النقدية الأخرى فتبلورت بنيوية شكلانية ، وبنيوية نفسانية وأخرى واقعية ماركسية ... وبذلك « فإن البنيوية وهي تقتحم منهجيا سبل المعرفة المعاصرة ، كأنما وجدت نفسها في ظرف تاريخي محمولة حملا على أن تبلور لنفسها محتوا فكريا ، وعلى أن تقدم نفسها كفلسفة مضادة وأن تنتصـــب في موقع النقض بدل طريق الاسترسال » [01].

هكذا ، وعلى هذا الأساس ، بات من الواضح أنه لزاما على الباحث العربي من أن يقف على المناهج أو المشاريع النقدية الحديثة بما فيها البنيوية ، وقفة جادة ، تقوم على الحوار البناء وتحمل

---

[01] عبد الله إبراهيم ، سعيد الغانمي ، عواد علي " معرفة الآخر – مدخل الى المناهج النقدية الحديثة " ص : 05 .
[01] عبد السلام المسدي ، " قضية البنيوية " – دراسة و نماذج " ، ص : 23 .

على عاتقها مهمة التوضيح المفهومي لا للبنيوية وحسب ، بل لكثير من العلوم والمعارف الذي تدخل مجالنا الثقافي والتي يتعامل معها فكرنا ... وهذا لن يتحقق إلا عن طريق ممارسة نقدية حقيقية للوقوف على كفاية هذه المناهج في حقولها ... وهذا العمل يقف بدوره وراء عملية إعادة النظر في العلاقات التي تربط الثقافة العربية بأصولها الموروثة من جهة وبالثقافة الغربية من جهة ثانية ، فهو يمثل دعوة ملحة للقضاء على ثقافة **المطابقة** [*] – بتعبير الدكتور عبد الله إبراهيم وبعض نقادنا المعاصرين – لما فيها من تبعية ورضوخ للغرب الذي أصبح حاضرا في ثقافتنا ومهيمنا على معطياتها ، « إذ لا يمكن أن تكون معرفة الآخر معرفة مفيدة إلا إذا تم التفكير بها نقديا والاشتغال بها بعيدا عن سيطرة مفاهيم الإ ذعان والولاء والتبعية ، وبعيدا أيضا عن أحاسيس الطهرانية الذاتية وتقديس الأنا »[02].

وهذا يعني أنه لا بد من الوقوف وقفة حوارية حيال هذه المناهج الحديثة ، وعدم الانبهاربها وعدم مبايعتها على أنها الخلاص ، بل ينبغي اعتبارها مساهمة جادة يمكن التواصل معها بالتفاعل والمثاقفة والدرس الخصب .

وهذا هو لب الممارسة النقدية التي تسعى إلى توسيع مجال **الإختلاف** ، وتوفير إمكانية تتجاوز بها الثقافة العربية عامة ضروب التماثل والتطابق التي تعيق حركتها . ويعرف الدكتور **سعد البازغي** نوعية العلاقة بين الشرق والغرب قائلا : « إنه من الممكن وصف التفاعل مع الغرب على أنه نوع من الاستقبال بالمعنى المزدوج للاستقبال : استقبال بمعنى التلقي والسعي إلى التفاعل البناء ، واستقبال بمعنى اتخاذ المكان أو الجهة قبلة ، أي بالمعنى الذي يبرز خضوع الكثير من نقدنا العربي لمقولات ونظريات ومناهج ليست مناسبة دائما ، أو بالشكل الذي استقبلت به ، ولم تستوعب في الغالب كما ينبغي » [03] .

يشير هذا التعريف على أن واقعنا الثقافي العربي يشهد حضور تيارين متصادمين : تيار يدعو إلى الاندماج التام والكلي في ثقافة الغرب من خلال التأثر به والأخذ عنه بل الذوبان فيه ، وتيار آخر يدعو إلى الحوار مع الأخر والتفاعل معه بدل الاعتصام بالذات والوقوف عند ثقافة الأصول . برغم

---

[*] **المطابقة** : تبعية الثقافة العربية وو لائيتها لثقافة الأخر ، أكثر من انصرافها إلى واقعها التاريخي ، وعكسها ثقافة **الاختلاف** وهي دعوة إلى صنع ذات هي مجموع ذوات كفؤة وقادرة على إنتاج الفعل والتفاعل مع الأخر على نفس المستوى من المقدرة والإمكانية (ينظر عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية (إشكالية التكون والتمركزحول الذات ص : 05 وما بعدها).

[02] المرجع نفسه ، ص : 09 .

[03] سعد البازغي ، " استقبال الآخر – الغرب في النقد العربي الحديث " ، المركز الثقافي العربي ، ط (01) ، الدار البيضاء (المغرب) ، و بيروت (لبنان) ، 2004 ، ص : 05 .

ذلك فإن الحضور الفعال كان للتيار الأول ، التيار الذي لازال يسعى إلى هضم وتمثل كل ما هو آت من الغرب من دون حيرة أو انزعاج بما قد ينتاب ثقافتنا العربية وخصوصيتها من سوء التهالك على النظريات والمناهج الغربية والاستعجال في تمثلها وذلك من دون استحضار واع للموقف الفكري المؤسس على الإيمان بحتمية وحيوية التفاعل والمثاقفة مع الأخر .

وأكرر القول بأن البنيوية هي الوجه الأخر للغرب ، فهي تعبر عن مدى التناقض الذي يحمله الفكر الغربي في أعماقه ، أي أنها تعبر عن المفارقة التي تنطوي عليها الثقافة الغربية المتمركزة حول نفسهـــا « أ و قل هو انغلاق للعقل الغربي وتمركزه حول ذاته فهو لا يؤمن بغير مرجعيته الفكرية – التي ورثها من الإغريق قديما إلى أوربا حديثا – مرشدا ومعينا في البحث ، هو العقل الذي لا يكاد يقف عند منهج في التفكير إلا أعلن الثورة عليه ، وأزاحه معلنا ميلاد مشروع بديل وهو إذ يفعل ذلك ، يروم المحافظة على ديمومته ومركزيته ، وما البنيوية والأمر كذلك إلا جزء من أجزاء المعادلة ، يتوسل بها في البدء كمنهج للاكتشاف وطريقة في البحث والمعاينة ثم تزاح ، بل إنها تعلن بنفسها عن البديل ، أي تخرجه من عباءتها ليكون حضوره سبب في عيابها وتواريها إلى غير رجعة ، جريا على سنن الطبيعة » [01].

وما تجدر الإشارة إليه ، أننا قليلا ما نتساءل عن حقيقة الغرب ، أو بالأحرى حقيقة التمخضات التاريخية الخاصة بالأخر ، فما هو الغرب ؟ ماهي أوروبا ؟ وما الذي يعنية هذان المفهومان المتلازمان ؟ يقول الدكتور عبد الله إبراهيم : « يتعذر بالضبط تحديد اللحظة التي ولد فيها مفهومان متلازمان هما :

" أوربا" و "الغرب " ، والواقع إنهما من تمخضات تلك الحقبة الطويلة والمتقلبة التي يصطلح عليهـــا ب " العصر الوسيط" التي طورت جملة من العناصر الاجتماعية والدينية والساسية والثقافية ، فانمدمجت لشكل " هوية " أوربا ، وبانتهاء تلك الحقبة : ظهر إلى العيان مفهوم " الغرب " بأبعاده الدلالية الأولية وسرعان ماركب من المفهومين المذكورين مفهوم جديد هو " أوربا الغربية "» [02].

لقـــد سرد لنا صاحب النص المراحل التاريخية التي مربها هذين المفهومين ،" أوربا" و " الغرب " ذاكرا بأن تمخضات العصر الوسيط أوعصر الظلام – كما يسميه بعض النقاد – هي التي أفرزت لنا مفهوم الغرب و هوية أوربا..... و باندماج هذين المفهومين ركب ما يعرف الأن بأوربا

---

[01] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني والمعني الفلسفي " ، " المبرز " ،فيفري 2002 ، ص : 126 .

[02] عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 13 .

الغربية.... مع أن هذا المفهوم الجديد ذو **الدلالات المتموجة** – بتعبير الدكتور عبد الله إبراهيم – لا يقصد منه الرقعة الجغرافية لأوربا ، و إنما يدل على مجموعة من العناصر الاجتماعية و الدينية و الثقافية و السياسية التي قام الغرب بتثبيتها ، إضافة إلى مجموعة من الصفات و الخصائص العرقية و الحضارية و الدينية على أنها ركائز قارة تشكل أسس هويته... وأدى هذا بدوره إلى بروز مفهوم حديث ههو **المركزية الغربية** فما الذي يعينه إذن ، مفهوم المركزية الغربية ؟

قد يبدو هذا المفهوم مبهم في بداية الأمر ، لأن كلمة **مركزية** Egocentricity كثيرا ما نجدها في الدراسات النفسية تتصل بعالم الطفولة . لأن الطفل يعيش في مرحلة من مراحل نموه أنانية مفرطة تجعله يركز كل شيئ في أناه ، لأن وجدانه لا يتفتح على الأخرين إلا بالمقدار الذي يجعلهم فيه مجموعة من العناصر التي تقع في منطقة تملكه أو استملاكه [(01)] ... و فعلا هذه هي حقيقة الغرب الذي يرى نفسه الجوهر الوحيد في العالم و المورد الذي لاينضب و كل الثقافات الأخرى أعراض . و كما يقول الدكتور **سمير أمين** ، فالمركزية الغربية « قد قامت على افتراض وجود مسالك تطور خاصة لمختلف الشعوب لا يمكن ارجاعها إلى فعل قوانين عامة تنطبق على الجميع . و هي في الوقت الذي لا تهتم فيه بكشف القوانين التي تحكم تطور المجتمعات ، تقترح على الجميع محاكاة النمط الغربي بوصفه الاسلوب الفعال و الوحيد لمواجهة تحديات العصر» [(02)].

و الغرب قد قام بتثبيت بعض العناصر و الخصائص العرقية و الدينية و الحضارية على أنها ركائز قارة تشكل أسس هويته ، لأجل ذلك ضع جذورا خاصة به ، و جعلها المرجعية الأساسية لتحديد أهمية كل شيئ و قيمته ، في حين يؤكد المفكر و الفيلسوف الفرنسي **روجيه غارودي** في أكثرمن مناسبة أن كلمة الغرب " كلمة رهيبة " عندما قال : « الغرب عرض [(*)]، وثقافته شوهاء ، إنها انعزلت عن أبعاد جوهرية . وهي تدعي ، منذ قرون تحديد ذاتها بتراث مزدوج : اغريقي – روماني ، ويهودي – نصراني وقد ظهرت أسطورة " المعجزة الإغريقية " في الغرب ، لأنه اجتث عند عمد ، جذور حضارته الشرقية » [(01)] .

قد نستغرب الأمر بداية ، كيف أن مفكرا بحجم غارودي تدفعه الدوافع والحيثيات بل ترغمه إلى إصدار هذا الحكم ، لكن ستتوقف دهشتنا إذا فهمنا موقفه إزاء قضية التمركز الغربي التي يرى فيها

---

(01) ينظر عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 13 ، 14.

(02) سمير أمين ، " نحو نظرية للثقافة " ، ص : 75.

(*) عرض : أي طارئة و ليست أصلية، (ينظر روجيه غارودي ، " وعود الإسلام " ، تر : مهدي زغيب ، الدار العالمية للطباعة و النشر و التوزيع ، ط (01) ، بيروت – لبنان ، 1984 ، ص :13).

(01) . روجيه غارودي ، " وعود الإسلام " ، تر : مهدي زغيب ، ص : 13

نوعا من الانعزال الجوهري عن أصول حقيقية له ، والادعاء بالتالي الانتماء إلى تراث إغريقي ، « فوجهة نظر غارودي تتمثل في أن أصول الغرب يجب البحث عنها في بلاد الرافدين ومصر ، أي في آسيا وأفريقيا لأن هذه المراكز الحضارية هي التي غذت كل الحضارات اللاحقة بتصوراتها وأفكارها » [02] . فغارودي يرفض فكرة الأصل الإغريقي الخالص للحضارة الغربية ، هذا الأصل الذي ابتدعه الغرب من أجل تحديد أهمية كل شيئ وقيمته وإحالة الأخر إلى مكون هامشي ، لا قيمة له ، إلا إذا نهل من فيض عطاء الغرب وكريم فضله يقول غارودي : « إن الغرب يعتبر خلال ألف سنة مصت أكبر مجرم في التاريخ ، إنه اليوم وبالنظر إلى سيطرته الاقتصادية والسياسية والعسكرية – بلا مزاحم – يفرض على العالم كله نموذجه التنموي الذي يؤدي –في الوقت ذاته – إلى انتحار عالمي ، لأنه يولد تفاوتات متصاعدة ويسلب المعوزين كل رجاء وينضج انتفاضات اليأس ، في الوقت الذي يضع معادل خمسة أطنان من المتفجرات على رأس كل ساكن في هذا الكوكب » [03] . فما يهدف إليه النمط الغربي –حسب غارودي – هو جمع العالم الإنساني كله تحت سماء واحد ، أي مجتمع واحد كبير ومترامي الاطراف ومحاولة السيطرة عليه وفرض نظامها عليه .

وما أريد قوله – والحال هذه – أن البنيوية ماهي إلا الوجه الآخر للغرب ، مادام أن النسق الذي يؤسس البنيوية يبقى ثابتا ثبات النسق (النموذج التنموي) الاقتصادي والسياسي والثقافي بل (العالمي والشامل) الذي يدعو إليه النمط الغربي هذا من جهة ، ومن جهة أخرى أجد أن تنحي البنيوية عن مكانها لتحل محلها نظريات " ما بعد البنيوية " وأولها " نظرية التفكيك " يعني أن البنيوية قد زالت كمنهج ، إما لأنها بلغت الذروة التي أرغمتها على التنحي تلقائيا من مكانها ليحل محلها منهج نقدي جديد ، أو أن تعترف بالعودة إلى ذاتها .

وهذا ما حاول الدكتور **شكري عياد** التعبير عنه في محاولة نقدة البنيوية ، أوبالأحرى نقد التناقص الذي يحمله منهجها قائلا : « ولعل التناقض الأساسي في البنيوية هو التناقض الأساسي في هذه الحضارة نفسها حيث نجد سعيا مستمرا التحويل كل عمل من أعمال الإنسان إلى نظام آلي يقوم به الكمبيوتر ، وفي مقابل ذلك انهيار لكل الضوابط التي كانت إلى عهد قريب تضبط سلوك الإنسان

---

[02] عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 23.
[03] روجيه غارودي ، " وعود الإسلام " ، تر : مهدي زغيب ، ص : 22.

نفسه . ويتمثل ذلك في البنيوية التي حاولت أن تقنن الأدب كنظام عقلي مجرد ، ولكنها اصطدمت بالأدب كإنتاج يعبر عن حالة نفسية لإنسان العصر » [01].

يشير صاحب النص إلى أن البنيوية تعبر عن مدى التناقض الذي يحمله الفكر الغربي في أعماقه أي أنها تعبر عن المفارقة التي تنطوي عليها الثقافة الغربية المتمركزة حول نفسها والتي عملت على إزاحة الإنسان من قاموسها الدلالي (العلمي والفلسفي) ليحل محله الإنسان الآلي (Robot). فالبنيوية ليست مجرد منهج للبحث عن الإنسان في العلوم الطبيعية والإنسانية لأنها أزاحته من طريقها وعوضته بمجموعة من الانساق أو الانظمة ذات البنى الثابتةة ، التي أسكنته وصارت الناطق باسمه ، والمعبر الوحيد عنه بأوجه متعمددة منها : الاديولوجي ، والسيكولوجي ، والاقتصادي ... وبذلك أصبحت البنيوية عبارة عن مذهب متماسك الأطراف ، قد يصفه البعض بأنه علمي نظرا الاعتماده على نتائج نظرية وعملية بحته ، وقد يصفه البعض الأخر بأنه فلسفي لاشتماله على نظرية منظمة عن الإنسان والعالم ...

لكن أمر البحث والاستمتاع قد توقف بالبنيوية أخيرا عند الأدب الذي لم يرى فيها سوى نظرية وليست منهجا أو أداة عملية يقول **جورج واطسن** : « لقد كانت البنيوية بالنسبة للأدب دائما نظرية ولم تكن أداة عمليه ، فهي كما يقول أحد المعجبين بها ليست منهجا لإيجاد تفسيرات جديدة ومدهشة للأعمال الأدبية وإنما هي باب من التفكير يتساءل كيف يمكننا الوصول إلى دلالات الأعمال الأدبية ؟ ومع ذلك فمزاعم البنيوية عظيمة جدا إذ كانت تدعي أنها تفسر جميع الحقائق البشرية أو على الأصح أنها على وشك تفسير كل شيئ. وكان هذا هو سرجاذبيتها » [02].

وفي اعتقادي أن الوصفة الموضوعية المجردة التي سقطت في جوفها البنيوية ، نتيجة اعتمادها " النموذج اللساني " الواحد ومحاولة تطبيقة على مختلف مستويات البحث في حقولها المعرفية – بما فيها الأدب –هي التي جعلت البنيوية وكذلك مختلف المعارف والدراسات من أن تفقد خصوصيتها وتوهجها عندما أصبحت نتائج التحليل فيها تتطابق مهما اختلفت حقولها تعلن عن افلاسها في نهاية الستينات .

الحداثة الغربية و بعض التحولات الفكرية الكبرى المصاحبة لها :

1- الحداثـــة الغربيـــة :

---

(01) سعد البازغي ، " استقبال الآخر – الغرب في النقد العربي الحديث " ، ص : 177 .

(02) عبد السلام المسدي ، " قضية البنيوية – دراسة ونماذج –" ، ص : 124 .

يعتبر مصطلح " الحداثة " من المصطلحات التي كثر فيها الجدال وتداخلت فيها الايديولوجيات ، ولذلك صارت قضيتها (إشكاليتها) من القضايا التي تحتمل الكثير من وجهات النظر المختلفة ، غير أن هذا لا يعفيني البحث والتوصل إلى جانب خاص من جوانب القضية . يقول الدكتور **خليل الموسى** في عرضه للحداثة في الحياة والأدب : « ومصطلح " الحداثة " "Modernité " من المصطلحات التي كثر فيها القول والجدل ، وإن الحداثة والحداثوية مولدتان من كلمة " حديث " ، وهما مترادفتان احيانا ومنتاقصتان مع القدم والكلاسيكية والتقليدية ، وهما متعددتا المعاني والدلالات حسب آراء عدد من المبدعين . منهم " بلزاك" (Honore de Balza c) (1799– 1850) و " بودلير "(Charles Baudlaire) (1821 – 1867) و "هيوسمن "(Joris Karlhuysrians) (1848–1907) »[(01)].

وليس هدفي من هذا المبحث ، إبراز تاريخ الحداثة العام ، بدءا من عصور الانفتاح والتقدم الصناعي في أوربا إلى عصرنا الحالي ، بقدر ما كان غرضي إثبات نسخة الحداثة الغربية الأصلية وكذا الجذور المعرفية (الفلسفية) القائمة عليها . يقول الدكتور **عبد العزيز حمودة** : « إن منطلق الحداثة الغربيـــة و المدارس أو المشروعات النقدية التي أفرزتها هو أزمة الإنسان في العصر الحديث بعد أن فقد القدرة عن التحكم في عالمه ، و بعد أن أصبح مهموما يوما بعد يوم بمشكلة تحديد موقعه في العالم الجديد»[(02)] .

من الملاحظ أن صاحب النص لم يعطينا تعريفا محددا للحداثة الغربية ، بقدر ما ربط منطلقاتها بأزمة الإنسان الغربي في العالم المعاصر ، نظرا لإشكالية الحداثة من جهة ، تلك الإشكالية الناجمة عن عجز الناقد العربي في التعامل مع الدراسات البنيوية و فهم أهدافها الحقيقة ، بل فهم وظيفة النقد ذاته في ظل المصطلحات النقدية المترجمة و المنقولة من جهة أخرى ، و التي قد تعود إلى تداخل مفهوم الحداثة مع مفاهيم أخرى مثل مفهومي المعاصرة و التجديد.

يوضح الدكتور خليل الموسى هذه الظاهرة قائلا : « و يختلط مفهوم الحداثة بمفهوم المعاصرة ... (ContemPoranette). فالعصر لغة ، مرحلة زمنية منسوبة إلى حكم رجل أو سيادة دولة أو إلى ظاهرة اجتماعية أو علمية أو نحو ذلك (..) و يبدو أن المعاصرة أحد شروط الحداثة و لكنها ليست

---

(01) خليل الموسى " الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر " ، مطبعة الجمهورية ، ط (01) ، دمشق – سوريا ، 1991 ص : 08 .

(02) عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)"، "عالم المعرفة" ، افريل 1998 ، ص : 66.

الشرط الوحيد فهي لاتتطابق و الحداثة و إن كانتا تتلاقان في بعض معانيها ، و بخاصة إذا كان القصد من المعاصرة المدلول التقني و يجوز عند ذلك أن يكون المعاصر حداثيا » [01] .

وفيما يخص اختلاط مفهوم الحداثة بمفهوم التجديد فيقول: « فالتجديد " (Renouvellement) " إصلاح وتحسين ، وجدد الشيئ جعله جديدا ، والجديد عما سبقه بنسبة ما ، وهو يقدم إضافة إبداعية ولكنه ينطلق من صورة مألوفة (...) ويبدو أن خطي التجديد والحداثة يتلاقيات ويتباعدان ، فالتجديد أحد شروط الحداثة ولكنه ليس شرطها الوحيد وهو جزئي»[02].

ما أمكنني ملاحظة من هذين التعرفيين هو أن الحداثة هي الاترباط بأحداث العصر وقضاياه والاستفادة من الخبرات السابقة في تشكيل المفهومات الجديدة ، وعموما فمنطلقات الحداثة الغربية قد تعود إلى وضعية الإنسان الغربي في القرن العشرين – كما صرح بذلك الدكتور عبد العزيز حمودة – ذلك أن القرن العشرين يمتاز بالتطور العظيم الذي شمل مجالات الحياة كلها من سياسة وفلسفة وعلوم إنسانية وفنون ... تطورت كلها نتيجة لتطور العلم في هذا القرن ، فقد تقدم العلم في الكشف عن أسرار الموجودات تقدما مازال سيتمر في ميادين المعرفة كلها ، ذلك أن الإنسان انخذ من الخبرات التجربية التي اعتمدتها التقنية في نشأتها موضوعا للتفكير وراح ينظم نتائجها الثابتة ويصوغها في قوانيين ، فنشأ العلم الذي تغلغل في جميع ميادين الحياة الإنسانية . « والغريب أنه رغم ارتباط الحداثة الغربية تاريخيا بالنصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فإنها ظلت محتواة إلى حد كبير حتى الخمسينيات من القرن العشرين ، أي لمدة قرن كامل » [03] .

وربما كانت ثمة عوامل أخرى قد مهدت لظهور أو حصول الحداثة الغربية ، ومنها الأحداث البارزة التي شهدتها الساحة الأوروبية في فترة ما قبل القرن التاسع عشر ، وأعتقد أن أولى هذه الأحداث هي قيام الثورة الصناعية سنة 1769 وقيام الثورة الفرنسية سنة 1789 ، والتي كان من نتائجهما ظهور بعض المذاهب الفكرية والسياسية والاجتماعية وبروز الاحزاب السياسية ، أو بمعنى أخر حصول نوع من الحريات الفردية والجماعية.

ومن الملاحظ أيضا أن الحداثة الغربية كانت قد فتحت الباب على مصراعيه أمام المشاريع النقدية مثل البنيوية ونظريات مابعد البنيوية إبان القرن الماضي . فمدة قرن كامل كانت كافية لحصول

---

[01] خليل الموسى ، " الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر " ، ص : 14.

[02] المرجع نفسه ، ص :16 ، 17.

[03] عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك – " ، " عالم المعرفة " ، أفريل 1998 ، ص 87 .

الجديد ، أو بالأحرى لاستنطاق الجديد الذي كان مغمورا منذ مئات السنين ... حتى وجد الناقد الغربـــي – وكذلك العربي – نفسه أمام كم هائل من المفردات والمصطلحات النقدية الفلسفيـــة البداية و المنتهـــي – بتعبير حمودة – « وبدلا من التعامل مع مفردات كالمحاكاة ، والتقليد ، والنقد التاريخي ، والنقد الاجتماعي والنقد النفسي ، والأدب بين الذاتية الموضوعية ، بل حتى المعادل الموضوعي والوعي الجمعي الذي يحدد وظيفة الأدب وجدنا أنفسنا نتعامل مع الميتا لغة والميتا نقد ، مع الداخل والخارجي ،مع المعرفة مع الوجود ، مع التأويل والظاهراتية ، مع الانقطاع المعرفي ، مع ازدواجية أو ثنائية الحقيقة ، مع النصية(Textualitey) والبينصية(intertextuality) ، مع الشك واليقيين ، مع الفجوة بين تطور القيم وتطور التكنولوجيا ، مع الذات في تأكيدها ومع الذات في تفتتيها ، مع الحقيقة والاحقيقة . وجدنا أنفسنا باختصار شديد ، بعد أن كنا نتعامل مع الشعراء والنقاد ، نقتاد عنوة رغم إردتنا إلى عوامل بيكون ولوك وهيوم وكانط وهوبز وبركلي وينتشه وهيجل وهو سلر و جا دمار وبقية القائمة الطويلة من الفلاسفة الذين يمثلون تاريخ الفلسفة العربية في القرن الثلاثة الأخيرة » [01].

تلك هي الحداثة الغربية في نسختها الأصلية والتي تعود تاريخيا إلى مجموعة من الفلاسفة والمفكرين ممن قدموا لنا مجموعة من المصطلحات والمفردات المركبة والمتداخلة والمتناقضة ، وهي مفردات ظهرت بالتحديد مع البنيوية . فما علينا فعله حقيقة هو قراءة الأعمال الحداثية قراءة جديدة في بنيتها ، ولكنها قراءة غير منفصلة عن البيئة التي أنتجتها ، وليست قراءة مشروطة ببيئة غربية خارجة عن تفكيرنا ، منطقنا وعاداتنا . بمعنى أنه يجب علينا أن لا نلهث دائما وراء كل ما يجد في الغرب دون أن ننظر إلى الـــوراء أو ننظر إلى أنفسنا أو نفعل شيئا سوى التبعية .

1- الركائز الفلسفية للنزعة العلمية والعقلية عند الغرب :

2-1- الطابع العام للحياة الفكرية في العصور الوسطى :

يبدو من الناحية التاريخية أن مصطلح العصور الوسطى « قد أطلقه الغربيون على السنوات التي تفصل بين انهيار المدينة الرومانية وبين ما تراءى لهم من فجر مدينة العصر الحديث (...) والمعروف أن العصور الوسطى امتدت منذ خلع " **روميلوس أوغسطلوس** " آخر الأباطرة الرومان

---

[01] عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك – " ، ص :88-89 .

عن العرش سنة 476 إلى حوالي سنة 1500 ، إذ اعتبر هؤلاء المؤرخون النهضة الأوروبية بدء العصر الحديث واعتبروا القرن الرابع عشر بداية لها في إيطاليا » [01]

هذا يعني أن مصطلح العصور الوسطى قد أطلق في الحضارة الغربية على الفترة الزمنية الممتدة من 476 م وإلى 1500 م (أي من القرن الرابع إلى القرن الرابع عشر الميلادي) ، أي منذ انهيار الامبراطورية الرومانية إلى بداية عصر النهضة الأوروبية ، وهناك العديد من المظاهر التي ميزت مرحلة القروسطية ومن أهمها مايلي :

1)- ظهور المسيحية بوجه جديد، ذلك أن أوروبا قد أسفرت عن الدين المسيحي ردا وتحديا للدولة العربية الإسلامية التي ورثت معظم التركة الرومانية التي كانت قد انتقلت إلى الإمبراطورية البيزنطية . وهذا ماجعل الفيلسوف الفرنسي **ميشال دوفيز** يقول في كتابه " أوربا والعالم في نهاية القرن الثامن عشر " :« إن أروبا تتطابق في الهوية أكثر فأكثرمع المسيحية... إن أوربا هي حامل الراية وجنـــدي المسيح » [02].

و قد أدى انتشار المسيحية حين ذاك في كل أنحاء أوروبا إلى تأثر اتجاه التفكير الإنساني بهذا الدين الجديد و محاولة رجاله استخدام الفلسفة في تأكيد عقائده و تثبيت مقدساته في النفوس **2)**- ظهور طبقات حاكمة لها الميول و الأذواق نفسها.

3)- البعثات الأولى إلى الشرق الأقصى في أواخر القرن الثالث عشر ، و ذلك محاولة للتعرف على الآخر [03]

4)- و في اعتقادي ، أن أهم ما يميز مرحلة القروسطية – و لا سيما العصور الستة الأولى و التي عرفت بعصور الظلام – هو سيطرة آباء الكنيسة أو رجال اللاهوت على الفكر الغربي عامة في محاولة لدحض التفكير العلمي و جعل الأساطير و الخرافات أساس التفكير و المصدر الذي يجب اتباعه في تفسير الحقائق. يقول الكتور **عبد الله إبراهيم** موضحا هذه الحقيقة التاريخية :«.. كان على الكنيسة أن تحتفظ بالسلطة العليا في جميع المسائل الخاصة بالعلاقات الاجتماعية و السياسية ، فإذا كان يراد أن تكون أوربا مسيحية حقا كان يلزم أن تكون تحت سلطة حكام مسيحيين ، هذا ما أعلنه البابا "غريغوار السابع 1073-1085 " الذي دشن التاريخ الرمزي الذي بسطت بعده الكنيسة نفوذها في المجتمع و

---

[01] السيد الباز العريني ، " الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى " ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ق [01] ، ط [02] ، بيروت – لبنان ، 1968 ، ص: 01 .

[02] ينظر عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 15 .

[03] المرجع نفسه ، ص :15 ، 16.

ذلك لأنها منذ تلك الفترة توصلت إلى قيادة المجتمع الأوروبي إن لم يكن السيطرة المطلقة علـــــيه و خلال ذلك كان الاهوت قد ثبت دعائم الكنيسة الاهوت الذي استمد مقوماته من أصول غير دينية »[04].

و هذا يعني اعتماد التفكير الديني و التفكير الفلسفي على تعاليم و معتقدات المسيحية ، و هذا ما جعل خضوع المعرفة بمختلف فروعها للدين و الاهوت المسيحي ، خضوعا ليس لذاتها ، و إنما لغاية روحية لاهوتـــية . و ظلت الفلسفة حبيسة النظرة الميتافيزيقية في حين كان عليها الاستمرار في دورها الرائد في مجال الأفكار و القيامب واجبها العام الذي يتمثل في بناء أنماط تصورية تفسر الخبرة و توضحها .

و عموما فقد تميز الطابع العام لفلسفة العصور الوسطى المسيحية بمظهرين أو دورين هما :

الدور الأول : و يطلقون عليه اسم " فلسفة أباء الكنيسة " و يتميز بالتخصص بالدراسات الاهوتية الدائرة حول العقيدة كما جاء بها الوحي ، أو بعبارة أدق كما صورها رجال الكنيسة ، دون أن يسمح بتعليم أي شيئ أخر بجانبها إلا القليل – و القليل جدا – من أراء الفلاسفة مما قد يكون ذا صلة ضرورية بالدين سواء كانت الصلة مباشرة أو غير مباشرة ، و من أبرز فلاسفة هذا الدور " القديس أورليوس أوجستين " [01].

الدور الثاني : و يطلقون عليه اسم " الفلسفة المدرسية " ، و يتميز بشيوع دراسة العلوم والإقبال عليهـــــا و التوسع إلى حد كبير في دراسة الفلسفة الحرة ، و تأسست فيه أكثر من مدرسة لتدريس مختلف العلوم في الكنائس . و إن ظل تدريسها على يد رجال الدين و الرهبان . و لهذا سمو الدور باسم الفلسفة المدرسية و أبرز الفلاسفة الذين يمثلون هذا الدور هما : " ألبرت الكبير " و القديس " توما الأكويني " الذي تأثر إلى حد كبير بفلسفة " ابن رشد " – الفيلسوف الإسلامي المعروف – و الذي شهد مؤرخوا النهضة الحديثة في أوربا بما كان لآرائه الفلسفية و تراثه الفكري من أثار بالغة الأهمية في نهضة أوربا وتطور حضارتها [02].

قد يشير هذا التقسيم إلى الصراع القائم بين النظام الكنسي و النظام العلمي (العلماني) من خلال السيطرة المطلقة التي مارستها الكنيسة خلال فترة القرون الوسطى ، نظرا لإقامتها بناءا سياســـــــــيـــا

---

(04) المرجع نفسه ،ص : 285.

(01) محمد عبد الرحمان بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة و المعاصرة " ، ص : 12.

(02) المرجع نفسه ، ص : 13.

و اقتصاديا و فكريا يلقي بالتفكير العقلي و العلمي ضرب الحائط ، و الذي أدى – بدوره – إلى انعدام النشاط الفكري نتيجة انشغال الفلسفة في الدفاع عن العقائد الدينية المسيحية ، أو بالأحرى الدفاع عن مصالح الكنيسة في الوقت الذي كان عليها إقامة بناءات فكرية جادة لمخاطبة الناس .

يقول الفيلسوف الإنجليزي **برتراند رسل :** « و ما " الكنيسة " إلا نظام اجتماعي قام على أساس عقيدة ، بعضها فلسفي و بعضها خاص بالتاريخ المقدس ، و لقد ظفرت الكنيسة بالسلطان و بالثراء بفضل مالها من عقيدة ، و أخفق الحكام العلمانيون الذين ما افتكوا في صراع معها ، و جاء إخفاقهم ذلك نتيجة لاعتقاد الكثرة الغالبة من الناس – بما في ذلك معظم هؤلاء الحكام العلمانيين أنفسهم – اعتقادا جازما بصدق الديانة الكاثوليكية ، و كان لا بد للكنيسة أن تقاوم طائفة من التقاليد الرومانية و الجرمانية (....) على أن هذه التقاليد أو تلك قد لبثت قرونا طوال عاجزة عن مقاومة " الكنيسة " مقاومة مثمرة ، و تعليل ذلك هو إلى حد كبير ، أن تلك التقاليد لم تتبلور في فلسفة تعبر عن مكنونها كله » [(01)].

5) – و قد نتج عن تمسك الناس بالمسيحية و تعاليمها في فترة القرون الوسطى ، ظهور أدب لاتيني مسيحي يناهض الأدب الإغريقي الوثني ، فقد كان هدف أوربا في تلك الحقبة – هوإعلاء شأن الاتنية لأنها لغة الحقيقة ، لغة الإنجيل ، لغة الاهوت و لغة الكنيسة ، « و قد تحدثت بعض الروايات عن ظهور ممارسات عدائية ضد اللغة الإغريقية و ضد اللذين يعلمونها و يتعلمونها . ففي أثينا مثلا قام يوســـــتينين (Justinian) في عام 529 م بإغلاق أبواب كل المدارس الفلسفية لأنها لا تتماشى في رأيه مع الديانة المسيحية» [(02)].

6)– و من الظواهر التي ميزت مرحلة القرون الوسطى – أيضا – ظهور مبدأ " **الثنائيات** " التي أصبحت الشغل الشاغل للفلسفة و اللاهوت معا . يقول **برتراند رسل :**« لو قارنا العالم الوسيط بالعالم القديم ألفينا الأول متميزا بألوان مختلفة من الثنائية ، فهناك ثنائية رجال الكنيسة إزاء العلمانيين ، و ثنائية اللاتينيين إزاء التيوتون ، و ثنائية مملكة الله إزاء ممالك هذه الدنيا ، و ثنائية الروح إزاء الجسد .....» [(03)]. فالبرغم من أن لبعض هذه الثنائيات جذور قديمة قد تعود إلى أفلاطون و تلميذه أرسطو (مثل ثنائية الروح و الجسد) إلا أن أولى هذه الثنائيات انتشارا في العهد الوسيط « هي القول بمصدرين للحقيقة

---

(01) برتراند رسل ، " تاريخ الفلسفة الغربية " ، تر : زكي نجيب محمود ،مرا :أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف و الترجمة و النشر ، ط (02) ، القاهرة - مصر ، 1968، ص : 01 ، 02 .

(02) أحمد مومن ، " اللسانيات – النشأة و التطور – " ، ص :29 ، 30.

(03) برتراند رسل ، " تاريخ الفلسفة الغربية " ، تر : زكي نجيب محمود ، ص : 03.

: أولهما النص الديني المقدس و الأخر الخطاب الفلسفي . و يعتبر **فيلون** المدشن أول من قال بهذه الثنائية » [04].

7) – و قد تأثرت الدراسات اللغوية في مرحلة القرون الوسطى بالأفكار الفلسفية اليونانية القديمة – و منها المنطق –« و قد ظل تأثير الإغريق قائما في عصور المسيحية الأولى ، فقد اقتفى الرومان خطوات الإغريق في إقامة قواعد الاتينية ، و ظهرت أولى الدراسات في هذا الموضوع في القرن الرابع بعد المسيح ثم في القرن السادس ثم تطورت اللاتنية القديمة في القرون الوسطى إلى الفرنسية و الإسبانية و غيرها .....»[05].

8)– ويواكب هذه الفترة أيضا ازدهار الحضارة الإسلامية وبلوغها أوجها ، حيث كانت شعاعا للأروبيين و لا سيما في المرحلة المتأخرة من العصر الوسيط ، أين تعرفوا عليها و تأثروا بها ، و نشأت لديهم الفلسفات العقلية و الاتجاهات العلمية، و اهتزت السلطة الدينية و العقائدية .

تقول المستشرقة الألمانية المعاصرة " **هونكه** " في كتابها : " شمس العرب تسطع على الغرب " :

« استيقظ الفكر الأوروبي من سباته الذي دام نحو عشرة قرون أو يزيد على صوت قدوم العلـــــــوم

و الأداب و الفنون الإسلامية ...» [01]. ويقول المفكر **غوستاف لوبون** في كتابة " حضارة الغرب" معبرا عن هذه الحقيقة التاريخية : « أوربا مدينة للعرب بحضارتهم ، فالعرب هم اللذين فتحوا لها ما كنت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية ، وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق وكشف ماضيه ، فأخذ ينقب عنه » [02] .

2-2 العلم التجريبي والتفسير الخارجي (المادي) :

لقد شكلت الكنيسة طوال حقبة العصور الوسطى سلطة قاهرة حسبت الحقيقية ومعها الإنسان في التفسير اللاهوتي (الغيبي) ، حيث أنها شكلت ما يعرف **بالسجال** أو **النموذج الاهوتي** [03] الذي

---

[04] عبد الله إبراهيم ، " المطابقة و الاختلاف : المركزية الغربية " ص : 286.

[05] إبراهيم السامرائي ، " التطور اللغوي التاريخي " ، دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع ، ط (03) ، لبنان ، 1983
ص : 16 ، 17 .

[01] محمد عبد المنعم خفاجي ، " دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه " ، دار الجيل ، ج (01) ، ط (01) ، بيروت – لبنان ، 1992 ، ص : 08.

[02] المرجع نفسه ، ص : 09 .

[03] ينظر عبد الله إبراهيم ، المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 57 .

كان مسيطر على الفضاء العام الفكري ، والذي تصلب أكثر فأكثر لتشكيل ما يعرف بالفلسفة المدرسية التي كانت قائمة على فلسفة أفلاطون وأرسطو... دونما اهتمام بالأبعاد الواقعية والتاريخية للفكر الديني والاجتماعي ، « لكن غير رجال الكنيسة من أهل العصور الوسطى قد أقاموا بناء سياسيا واقتصاديا يضرب بالحـــــــياة القوية أقاموه على مهل ، وإن يكونوا قد خبطوافيه خبط عمياء بمعنى من معاني الكلمة ، كذلك شهد الجزء الأخير من العصور الوسطى أدبا علمانيا هاما يختلف جد الاختلاف عن أدب الكنيسة » [04] .

فقد اقتضى أمر التخلص من الفكر الاهوتي في تفسير الحقائق – والقول للدكتور عبد الله إبراهيم – إلى ضرب من النقد العميق الموجه للأطر والموجهات التي خضع لها التفكير الغربي في العصور الوسطى ، أي إلى هدم النموذج الكنسي (الكهنوتي) للتفكير ، وذلك عن طريق ما عرف بالتفكير العلمي الحديث : الذي يقوم على الملاحظة والتجربة والمنهج الاستقرائي ، مضافا بالطبع – إلى المنهج الاستنباطي الذي كان قد استخدمه مفكروا العصر الوسيط ، بل وبالغوا فيه .

ولقد عرفت هذه الفترة من التاريخ الأوروبي بفترة الإصلاح الديني وعصر النهضة (بداية الوعي الأوروبي) والتي يوجز الدكتور **حسن حنفي** تعريفها قائلا : « وهي محاولة لتأريخ الفكر الأوروبي إبان الاصلاح الديني وعصر النهضة في القرنيين الخامس عشر والسادس عشر . وفيها تمت ، بعد عصر الإحياء في القرن الرابع عشر ، أول محاولة لرفض سلطة القديم في العصر المدرسي ، واحتكار الفكر. ورفض السلطة الدينية ، وبداية إثبات الحرية ، والعقل ، والإنسان كحقائق أولية ، وبداية كشف الإنسان يجهده الخاص للعلوم والفنون والصناعات ورفض تغليف الواقع باسم الدين أو باسم السلطة .ولكنها أيضا هي الفترة التي بدأت فيها أوروبا في الخروج عن حدودها والاستيطان على سواحل آسيا وإفريقيا وأمريكا وماسمته الكشوف الجغرافية ، وهي بالنسبة لنا بدايات الاستعمار الاستيطاني » [01].

يحوي هذا التعريف الموجز لفترة النهضة الأوروبية العديد من العناصر هي :

1)-تعرف هذه المرحلة من التاريخ الأوروبي بمرحلـــــــــة **النهضة(** Renaissance) أو الإصلاح الديني والتي انبعثت من إيطاليا مهدا الحضارة الرومانية وذلك في سنة 1500 م (أي القرن الرابع عشر الميلادي ثم انتشرت بسرعة كبيرة في باقي الدول الأوروبية

---

[04] برتراند رسل ، " تاريخ الفلسفة الغربية " ، ص : 02 و 166.

[01] حسن حنفي ، " التراث والتجديد – موقفنا من التراث القديم " ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع ، ط (05) بيروت – لبنان ، 2002 ، ص 182 .

إلى غاية سنة 1800 (أي القرن السابع عشر للميلاد) وتميزت هذه المرحلة بازدهار العلوم والفنون وظهور المفاهيم الكلاسيكية [02] في حين تقلص دور الكنيسة في فرض سلطانها ومركزيتها على تفكير الناس ومصادرة كل مايتصل بالتفكير العلمي جاعله من الأساطير والخرافات أساس التفكير ، والمصدر الفكري الذي يجب اتباعه في تفسير الحقائق... فثمة حركات إصلاحية دينية وعلمية قد عمت أوربا خلال هذه الفترة وشكلت أحد العوامل المتعددة التي كانت سببا في نهضة أوروبا آنذاك ، ومنها : « حركة الإصلاح الديني التي قام بها " **مارتن لوثر**" في ألمانيا وعمت بعد ذلك جميع أرجاء أوروبا ، وكان من نتيجتها ثورة الناس على الكنيسة وسلطتها والمطالبة بتقرر حرية الفرد واستقلاله في اتصاله بالله مباشرة من غير واسطتها » [03] .

ففي هذه الحركة الإصلاحية الدينية دعوة إلى نبذ التصورات الكهنونية التي لا قيمة لها – في نظر العقل ،ولا في نظر العلم الصحيح – وبالتالي تحرير الفضاء العام الفكري من سيطرة رجال الكنيسة اللذين عملوا على توجيهه حسب حاجاتهم ، حيث جعلوا المعنى الديننى للحياة هو الموضوع الشائع وبخاصة تنظيم العلاقة بين الله والمسيح والمؤمنيين ، أي اعتمادهم مبدأ الوساطة الدينية .

---

[02] ينظر أحمد مومن ، " اللسانيات – النشأة والتطور " ، ص : 46.

[03] محمد عبد الرحمن بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ص : 14 .

2) لقد دخلت أوربا العصر الحديث محاولة أن تجد لنفسها مكانة هامة بين شعوب العالم ، فقامت بتوحيد مجموعة من العوامل التي قد تظهرها بوصفها مكونا متجانسا ومؤثرا في الآخر ، مـــن أبرز هذه العوامل : بعث الأداب القديمة وإحياءها ، ولا سيما الأدب الإغريقي ، والديانة المسيحة ، واللغة الاتينية باعتبارها لغة الكنيسة وكـــذا الوسيـــــــط أو الحامل للنظم الرمزية السابقة « مما أدى إلى ثورة ترمي إلى التحررمن الجمود الذي أصاب العقول و إلى منح الفكر الإنساني روح القوة الحيوية ، وقد طلبت أسباب ذلك كله في العودة إلى فسفة اليونان والآداب الرومانية التي حال رجال الدين المسيحي بينهم وبينها من قبل » [01] .

3)- لقد نظمت أوربا خلال هذه الفترة رحلات إلى الشرق في محاولة للتعرف على الآخر ،وبغية الكشوفات العلمية وتنشئه العلوم الطبيعية ... غير أن الوجه الحقيقي لأوروبا- والقول للدكتور عبد الله إبراهيم – قد كشف عن نفسه في نهاية القرن الخامس عشر ، وذلك عن طريق ظاهرتين مهمتيين هما:

2-2-1- الكشوفات الجغرافية الكبرى : يبدو أن نزعة الذاتية وحب التملك التي يحملها الغرب في داخله قد بدت وتبلورت أكثر ، إثر الكشوفات الجغرافية الكبرى التي حققها الغرب في العديد من المناطق في العالم ومنها : إفريقيا وأسيا بالأخص فتح أمريكا عام 1492 ،حيث أصبح هذا التاريخ أنسب بداية لتمييز العصر الحديث .

وتم التعرف على عدة أنواع من المخترعات والأجناس البشرية والأقاليم الجغرافية الجديدة ، والتي كانت أثرا هاما من أثار هذه النهضة ومؤثرا قويا كذلك في دفعها إلى الأمـــــــام « فمنذ أن وطأت أقدام الأميرال الإسباني " **أميركو فيسبو تشي** " الأرض الجديدة أخذت اسمه وأعلنت نسبتها إليه ، ألغي وجودها وتاريخها الذاتي ، وأعلنت ملكيتها " بالتسمية " وأصبحت علاقة هذه الأرض بكل ما فيها أشبه بعلاقة النوع بالجنس في الفلسفة القديمة (...) والواقع أن تلك التسمية الاستملاكية قد عمدت بالدم شأنها في ذلك شأن أي اغتصاب ، غايته الاستحواد والإخضاع » [02] .

وبذلك كشفت أوربا عن وجهها الحقيقي المتمثل في فرض الذات بالقوة واكتشاف الآخر بالعنف الذي يماثل الاغتصاب . وفوق كل هذا ، فإن هذه الكشوفات الجغرافية الغربية قد تمت تحت غطاء ديني

---

[01] محمد عبد الرحمن بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ص : 14.

[02] عبد الله إبراهيم : " " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 16 .

فبعض المكتشفين كان يبحث عن الثروة ويسعي إلى الحصول عليها بأي وسيلة كانت ، في حين كان يحمل البعض الآخر الإنجيل ويعمل على بث الحيوية الروحية – المزعومة – في ذلك الخمول الوثني .

يقول **روجيه غارودي** : « إن رجالا هم اللذين صنفوا مجتمعاتنا ، منذ ستة آلاف سنة ولأجل رجال وأغفلوا أو تجاهلوا مركبتها الأنثوية ، وإن الغرب الذي يشكل جزءا من البشرية هو الذي صنع التاريخ منذ قرون وبخاصة منذما يسمى بعصر " الانبعاث " و أهمل و احتقر أو هدم مركبتـــه الشرقية » [(01)].

يرى **غارودي** من خلال هذا التصريح أن الغرب قد عمل منذ ألاف السنين على تمجيد مبدأ الفردانية الذي يبترمن الإنسان أبعاده الإنسانية وأولها روح التسامي والتعاون مع الآخرين (الجماعة) انطلاقا من مبدأ المسؤولية اتجاههم ، لكن الغرب عمل على فرض سيطرته وملكيته من خلال " انبعاثه" مبتعدا عن كل ماهو " آخر " باعتباره متوحشا وهمجيا . وأول ما قام به الغرب لأجل تحقيق أهدافه تلك هو رفض الحضارة الشرقية – أو التراث الثالث بتعبير غارودي – وفرض سلطانه بالتالي على شعوب العالم من خلال ادعائه مغامرات وفنون النماء والحضارة .

2-2-2- الثورة الفكرية والعلمية : تعود الثورة الفكرية والعلمية أو ما عرف بالعلم التجريبي إلى نهاية القرن السادس عشر ، حيث انتهى العصر الوسطوي ، عصر التحجر العقلي والقيد الفكـــــري وبدأت حياة جديدة لنظام فكري وعلمي جديد ، اتخذ من الكون بأسره موضوعا جديدا ، ولا سيما جانبه الطبيعي أو المادي . فكونت الفلسفة بذلك ما يعرف **بالمذهب الطبيعي أو المادي** الذي يرى « أن المادة هي الواقع الوحيد الموجود في العالم – وللماديين مفاهيم مختلفة حول خصائص هذه المادة – وأن النشاط الذهني الذي يسمح للإنسان بأن يشعر بهذه المادة ، بل أن يعرف قوانينها تدريجيا ليس بمستقبل عن المادة ، بل إنه ، إن جاز القول ، منبثق عنها ، ويمثل علاقته بها – كما يقول الفلاسفة الأقدمون – كمثل علاقة اللهب بالحطب » [(02)] .

وهذا يعني العودة إلى الطبيعة لا لتماس الحلول التجريبية القائمة على الملاحظة والتجربة بدل التحجر العقلي وسجن المعتقدات الكهنوتية التي لا قيمة لها في نظر العلم الصحيح .

---

(01) روجية غارودي ، " وعود الاسلام " ، تر : مهدي زعيب ، ص : 24 .

(02) فرانسوا غز يغوار ، " المشكلات الميتافيزيقية الكبرى" ، تر : نهاد رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة ، (د-ط) ، بيروت – لبنان ، (د-ت-ن) ، ص :29.

وقد قام بعض الفلاسفة والعلماء والمفكرين بدور بارز في هذه الفترة العصبية ، ومن أبرزهم : **فرانسيس بيكون** (1561–1626) ، **وغاليلو** (1564–1642) ، **وجون لوك** (1632–1704) **ودفيد هيوم** (1711–1776) الذين قاموا بدحض أباطيل الكنيسة وترهاتها القائمة على التفسير الأسطوري اللاهوتي للطبيعة وحل المضمون العقلي والعلمي محل هذه التفسيرات بهدف السيطرة على العالم .

ويقول **ديكارت** : « إن البناء العلمي الذي تشيدة أوربا هومن أجل العالم كافة ومنفعة التفلسف لها أهمية كبيرة لأنها وحدها تميزنا من الأقوام المتوحشين والهمجيين » [01].

فقد انتقل الناس في عصر النهضة إلى نوع أخر من التفكير ، وأوله التفكير المادي المتجه نحو الطبيعة لا ستيعا بها ، ونحو العالم المادي لدراسته وتكوين أحكامه في مجموعة من النظريات ، أطلق عليها اسم " العلم "، وهذا يعني « بدء حياة جديدة لفلسفة جديدة اتخذت لها موضوعا جديدا هو الكون بأسره وعلى الاخص جانبه الطبيعي ومنهجا جديدا للبحث هو المنهج التجريبي العلمي المبني على الملاحظة والتجربة » [02] .وإنه من مميزات هذه الفترة مايلي :

1– الاتجاه إلى الطبيعة لدراستها ، واتخاذ مادة الاستدلال ومقدماته ، مما يثبت فيها عن طريق التجربة أو ملاحظة ظواهر العالم الخارجي .

2– إقرار فردية التفكير ، وفردية الحكم على الأشياء .

3– التصالح بين الاتجاهين المادي والعقلي في التفكير [03].

من أبرز علماء هذه الفترة الفيلسوف الإنجليزي **فرنسيس بيكون** الذي لقب " بالفيلسوف المجرب" أو " الفيلسوف الواقعي " نظرا لما قدمه من إسهامات في وضع الفلسفة الواقعية ككل موحد ،وفي التقين الدقيق للعلم التجربي كوحدة مكتملة [04] .

فقد استطاع بيكون أن يدخل الاستدلال الرياضي حقل الدراسات التجريبية على اعتبار أن الرياضيات وهي فن البرهان ، تجعل الحكم على الشيء منطقيا يخضع للاستدلال والبرهان ... ولكنها – أي الرياضيات – تبقى قاصرة في الوصول إلى اليقين الذي يثلج الصدر ، لأنها لا تتبع جزئيات الأشياء هذاما يدعو إلى استكمال هذا القصور بإدخال التجربة

---

(01) عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 17 .
(02) محمد عبد الرحمن بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ص : 15 و 26 .
(03) محمد عبد الرحمن بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ص : 26 .
(04) ينظر : المرجع نفسه ، ص :28 .

والملاحظة مع الرياضيات فيكتمل العلم وقتها ويصبح تجريبيا بالاستدلال الذي يقدم النتائج وبالتجربة لإثبات صحة هذا الاستدلال [05] .

وهذا يعني أنه لا يمكننا الوصول إلى تكوين " علم تجريبي " إلا عن طريق التجربة القائمة على حصد النتائج التي تصل إليها العلوم بالاستدلال واستكشاف الحقائق الجديدة .« وهكذا فإن المذهب التجريبي على خلاف المذهب العقلي يجعل للذهن دورا ثانويا هو إقرار النظام بين الانطباعات والأفكار والنسق المنظم هو ما نسميه بالمعرفة » [01] . وهكذا فالفلسفة التجريبية لا تلغي دور العقل أو الذهن ، بل يصبح هذا الدور ثانويا ويتمثل في تنظيم المادة التجريبية .

أما **غاليلو** فيعده الباحثون الشخصية الرئيسة في مسرح الثورة العلمية [02] ، ذلك أنه بحث في جزئيات المادة بطريقة عقلية وواقعة أساسها الدقة والملاحظة ، حيث انطلق في تفسيره للطبيعة من خلال فضحه لمختلف التناقضات الداخلية للمنهج الأرسطي في استنطاق الطبيعة ، وذلك باتباعه نوع من النقد الفلسفي القائم على العقل والتجربة لأنه اعتبر الطبيعة – عكس أباء الكنيسة – كتاب الكتب الأكثر وضوحا والذي سيحل محل الكتاب المقدس لأنه أسبق منه [03] .

وما تجدر الإشارة إليه ، أن ثمة ما يجعل العلم التجريبي ممهدا للدراسات النقدية الموضوعية (البنيوية) ،أن العلم التجريبي قد جعل من الإنسان مالكا للطبيعة مسيطر عليها، حتى أصبحت بالنسبة له كتابا مفتوحا ، بعدما كانت الطبيعة مجموعة من الأشكال والمواد ، أي مجموعة من الموضوعات الماثلة دائما لذاتها والمرتبة في نظام تصاعدي من الأدنى إلى الأعلى .

بل أصبحت الطبيعة مجموعة من الظواهر الخاضعة لقوانين ، فكانت وسيلة العالم في ذلك هي الاستقراء أو الانتقال من الخصوصيات إلى العموميات (التركيب) و لهذا سمي المنهج التجريبي (بالاستقراء التجريبي) هذا من ناحية ، و من ناحية أخرى قد ثار علماء هذه الفترة – بما فيهم غاليلو – على التفسير الأسطوري اللاهوتي للطبيعة الذي كان يبالغ في الاهتمام بالحقيقة المطلقة دون الحقائق الجزئية و تمكنوا من دحض أباطيلها . يقول الدكتور عبد الله إبراهيم : « يرى غاليلو أن

---

[05] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص : 58 .

[01] عبد القادر بشته ، " الفلسفة والعلم – من كانط ونيوتن إلى الوضعية وحدود المعرفة الإنسانية " ،دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط(01) ، بيروت – لبنان ، ص : 97 .

[02] عبد الله إبراهيم ،" المركزية الغربية " ،ص :62.

[03] المرجع نفسه ، ص : 62،63 .

الإنسان خادم للطبيعة ،و مفسر لها ، و خاضع لنظامها ، وخدمة الإنسان للطبيعة هي التي تؤدي إلي إدراك قوانينهـــــــا و سيادة الإنسان عليها فيما بعد . أي استكشاف كل ما يتصل بها» [04] .

يبدو من هذا التصريح أن الأساس الذي قام عليه العلم التجريبي هو جعل الإنسان سيدا على الطبيعة لا خاضعا لقوانينها ، و لذلك فإن الشعار الأول " شعار خدمة الإنسان للطبيعة " لم يكن في البداية إلا مجرد حيلة للسيطرة على الطبيعـــة عبر السيطرة على الإنسان ،و أعتقد أن شعـــار " موت الإله " الذي أعلنه **نيتشه** فيما بعد ، وكذلك شعار "موت المؤلف " الذي أعلنه فوكو و بارث لم يكن إلا تعميقا و استنطاقا لما أعلنه غاليلو في القرن السادس عشر [01] . و كذلك فعلت البنيوية حينما جعلت الإنسان حبيس النسق أو النظام اللساني .

و ثمة من فلاسفة و مفكري الحقبة التجريبية من مهد الطريق لاختبار العقل ووضعه على محك النقد الموضوعي قبل كانط بسنوات كثيرة . و منهم : لوك و هيوم و بركلي ، فقد قدم دفيد هيوم يوما رسالة عن طبيعة البشر ، قضى فيها على العقل ، و هز من خلالها العالم المسيحي – كما يقول ول ديورانت – و هو لا يزال في السادسة و العشرين قائلا :« إننا نعرف العقل فقط كما نعرف المادة عن طريق الإحساس ،على الرغم من أنه داخلي في هذه الحالة . إننا لا ندرك بالحواس العقل اطلاقا كذات مستقلة وكل ما ندركه أو نشعر به هو مجرد آداة منفصلة و ذكريات و مشاعر إلى آخرما هناك ..إن العقل ليس جوهرا ، أو عضوا له آراء ، إنه إسم مجرد فقط لسلسلة الأراء . إن المشاعر و الذكريات و الاحساسات هي العقل . وليس هناك نفس منظوره وراء عملية الفكر » [02]

و هذا التصريح يدل على أن هيوم قد ألغى العقل من الوجود ،و نفا أن يكون إدراك الحقيقة نابعا من العقل و الخبرة الاستبطانية التي تنشأ عن التأمل الداخلي لدى الإنسان لكل ما حوله،أي أن الحقيقة كامنة في العقل ، وهذا ماقال به أصحاب الفلسفة العقلية (المثالية) .

وعموما فقد اعتبر المنهج التجريبي العملي أساسا للفلسفة الواقعية خاصة ، ومصدرا هاما للفلاسفة المحدثين بصرف النظر عما قد يكون بين أحدهم والآخر من فوارق تكبر أو تصغر تبعا لنزعاتهم العقلية و أساليبهم العملية . فقد غير العلم التجريبي من نظرة الناس إلى الفلسفة والعلوم من حولهم ، فبعدما كانوا يقرون أن العلم الكامل هو علم اللاهوت ، أصبحت الدعوة ملحة إلى النهوض بالعلم عن

---

[04] المرجع نفسه ، ص :64.

[01] يظر عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني و المعنى الفلسفي " ، " المبرر" ، فيفري 2002 ، ص : 131.

[02] ول ديورانت ، " قصة الفلسفة (من أفلاطون إلى جون ديوي) " ، ص : 321.

طريق القضاء على كل ما وجد في فلسفات العصور الوسطى من أفكار و معتقدات و إنهاء حالة الركود و الجمود التي أحدثتها أنماط التفكير لدى كبار الفلاسفة اللاهوتيين .

و الملفت للانتباه حقا أن العلم التجريبي قد ولد نوعا من المعرفة التقنية التي لا تؤمن إلا بالملاحظة والتجربة في تطبيقاتها العملية " « و التي جعلت العلم التجريبي خادما للإنسان خاضعا لسلطانه ، أما المسكوت عنه هو أنها سالبة لحريته بعدما سجنته في نسق معادلتها » .[01]

و لقد استطاع العلم التجريبي ترسيخ هذه المفاهيم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وإعطاء التجربة الحسية مركزية إدراك المعرفة .وظل الأمر على حاله إلى أن جاء القرن التاسع عشر بفلسفة الشك في هذا اليقين الموضوعي ، وتم ذلك على يد كل من **أنشتـــين** بفلسفة النسبية **وها يزنبارغ**(Heisen ber)بفلســـفة أو فيزياء الكوانتا التي تقول بنهاية الحتمة [02] .

فالعقل الغربي ينتقل في مسيرته الفكرية من العقل إلى ا للاعقل ، أو من النقيض إلى اللانقيض فبعدما أعطى للتجربة الحسية مركزية إدراك المعرفة في عصر النهضة أو الانبعاث ، قام بعد ذلك – وتحديدا في القرن التاسع عشر – بسحب هذه المركزية والقول بمبدأ الشك وباختصار المسائل الفلسفية إلى مجرد قضايا لغوية عند فلاسفة التحليل اللغوي مثلا ، أي الشك في كل ما قيل سابقا . لكي أقارب المسألة مقاربة حقيقية وأطرحها طرحا سليما لابد من العودة مرة ثانية إلى استنفاذ العلاقة بين اللاهوت (الميتافيزيقا) والطبيعة (المادة) وإعادة وضعها على بساط البحث ، ليس لأن الفكر الغربي ألغى الإله من مرجعتيه وعقيدته وجعل الإبن يحل محله، بل لأن العقل الغربي هو وحده المسؤول عن الصراع بين المقدس (اللاهــوت/ الله)والدنيوي (المادة / الإنسان) .

2-3- الفلسفة العقلية (المثالية) والنسق المغلق :

أكرر القول بأن دراستي هذه ليست دراسة للفكر الفلسفي الغربي على أساس من التتبع التاريخي التقليدي لأهم منجزاته من خلال ما حققه هؤلاء الفلاسفة مثل بيكن وغاليلو وهيوم وغيرهم لكنها دراسة تعمدت فيها التوقف عند المحطات الرئيسة للتحولات المعرفية القائمة في تاريخ الفكر الغربي عبر ما يقرب من ثلاثمائة عام ، وإن كنت قد بينت سالفا أولى ارهاصات أو بوادر التفكير العلمي عند الغرب وذلك في العصور الوسطى ، مرورا بالحديث عن العلم التجريبي في

---

[01] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين المنهج اللساني و المعنى الفلسفي " ، "المبرز "، فيفري 2002 ، ص : 132

[02] المرجع نفسه ، ص: 132 .

الفكر الفلسفي الغربي ، والذي يمثله –كما رأيت – أنصار الفكر الواقعي الذي يعتمد التجربة الحسية كأساس للمعرفة الإنسانية و هذا ما يعرف بقطب الخارج في الفكر النقدي الحديث ، المقابل لقطب الداخل ، أي الفلسفة العقلية (المثالية) .

التي تضع أسس المعرفة داخل العقل البشري ،وبين هذين القطبين يتحرك عدد من رواد الشك الذي يرون استحالة المعرفة اليقينية سواء انطلقنا من الداخل أو من الخارج .

ويمثل النموذج العقلي (المثالي) ، في الفلسفة الغربية – باعتباره أحد التحولات المعرفية لهذا الفكر – عدد من رواد الفكر والفلسفة ، وهم على التوالي : ديكارت ، كانط ، هيغل .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن مصطلح " العقل " المتداول بين الفلاسفة اليوم تختلف دلالته عن المصطلح الذي شاع استعماله قبل أرسطو وأفلاطون أي عند الحكماء الطبيعيين . لذلك كان علي بداية الوقوف عند مصطلح " العقل " الذي يدور حوله الجدل الفلسفي الغربي ، حتى إن فلاسفة ما بعدالحداثة مثل دريدا وفوكو ، وحتى نيتشه وهيدغر وجدوا أن العقل هو المدخل الملائم لتفكيك صرح فلسفة الحداثة (الفلسفة العقلية ، المثالية) [01]

و يعرف الدكتور مراد وهبة في معجمه الفلسفي " العقل " قائلا : « العقل قوة في الإنسان تدرك طوائف من المعارف اللامادية يدرك العقل أولا ماهيات المدايات أي كنهها لاظاهرها ، ويدرك ثانيا معاني عامة كالوجود والجوهر والعرض ، والعلية والمعلول ، والغاية والوسيلة ،والخير والشر والفضيلة والرذيلة ، والحق والباطل ، ويدرك ثالثا علاقات و نسب كثيرة ، ويدرك العقل رابعا مبادئ عامة في كل علم و في العلوم إجمالا ، و يدرك خامسا وجود موجودات غير مادية » [02] .

يبدو من هذا التعريف أن العقل قوة في الإنسان تمكنه من التمييز بين الصواب والخطأ في عالم الوقائع ، وهو قوة مجردة في النفس الإنسانية تمكن الإنسان من إدراك الموجودات غير المادية .

ومن الواضح أن دلالات العقل قد اختلفت من زمن لآخر ، فمصطلح العقل كان يعني في اللغة اليونانية " اللوغوس Logos " ، وهو يتكون من جذر لغوي هو فعل " ليغن Legein" الذي كان يعني " يتـــكلم أو يخاطب " عند أفلاطون وأرسطو ، ومنه اشتق المصدر : " كلام وخطاب " إذا

---

[01] ينظر عبد الغني بارة ،"البنيوية بين المنهج اللساني و المعنى الفلسفي " ، "المبرز "، فيفري 200 ، ص : 133

[02] مراد وهبة ، " المعجم الفلسفي " ، ص : 275 .

فاللغوس عند أرسطو وأفلاطون هو الكلام والخطاب الذي يعمل على توجيه الإنسان توجيها سليما لإدراك الحقيقة وتطور مع أرسطو بأن أصبح منطقا ، فما عرف بالمنطق الأرسطي ليصبح الخطاب أو الكلام بذلك منطقا (Logoss Logique) .

أما هذا المصطلح عند الحكماء الطبيعيين فقد كان يعني : " يجمع " أو " يضم " ومنه اشتق المصدر : الجمع او الكل لأن الطبيعة عند هؤلاء كانت تعني الكل أو الكلية(Totalite)، التي تجمع الكائنات كلها بغض النظر عن اختلافها بين الآلة والبشر ، والكائنات الحية والجامدة [01].

يبدو من هذا التصريح أن مصطلح " العقل " قد اختلفت دلالته بين الحكماء الطبيعين والمناطقه (أفلاطون و أرسطو) ، فقد تغير مفهوم العقل من اللوغوس (الطبيعية / المادة) إلى الخطاب (المنطق) ، وهذا التغير هو في حقيقته انتقال من الطبيعة المادية (الفيزيائية) إلى العقل المنطقي . وهذا هو فحوى الصراع بين الفلسفة التجريبية (الواقعية) والفلسفة العقلية (المثالية) .

قد يعكس هذا الصراع تعارضات ثنائية في معتقدات الفكر الفلسفي الغربي وأولها ثنائية الداخل والخارج – التي تحدثت عنها في مستهل هذا المبحث – التي تعكس الصراع القائم داخل الفكر الغربي الذي قد يبدو للعيان أنه متلاحم ولكنه في الحقيقة متناقض تناقض الثنائيات المتشابكة التي يقوم على أساسها . يقول الدكتور عبد العزيز حمودة : « إن الفلسفة الغربية بصفة عامة تأرجحت عبر ما يقرب من ثلاثة قرون بين الخارج و الداخل، ابتداء ب " هيوم " و " لوك "و انتهاء ب" هيجل" و" نيتشة " (...) التأرجح المستمر بين الخارج والداخل يمثل محور الاختلاف بين فكر واقعي يعتمد التجربة الحسية كأساس للمعرفة الإنسانية. وفكر مثالي يضع أسس المعرفة داخل العقل البشري » [02].

وهذا يعني قيام الفلسفة العقلية (المثالية) على حبس الحقيقة (المعنى) داخل سور منيع عرف باسم " سجن العقل " ، فبعد العصر الكلاسيكي للفلسفة بدأت عمليات انسحاب المعرفة إلى داخل العقل البشري فظهر ما يعرف بالفلسفة العقلية / المثالية التي جاءت لمحاربة العلم التجريبي داعية أنه قد قلل من قدرة العقل في البرهنة على وجود الحقيقية ، و بذلك فهي ترى أن الحقيقة

---

[01] ينظر عبد الغني بارة ، " البنيوية بي النموذج اللساني والمعني الفلسفي " ،" المبرز " ، فيفري 2002، ص : 133،134.

[02] عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك " ، " عالم المعرفة " ، أفريل 1998 ، ص : 111.

موجودة في العقل البشري (الداخل) وبالتالي فهي تدعو الذات العارفة إلى الانفصال عن الجسد، ذلك أن الحقيقة موجودة في داخلها.

وقد برز في سماء الفلسفة (المثالية) ثلاثة مفكرين، ساهم كل منهم بنصيب وافر في هذا الفكر الحداثي ، إذ لا يكاد الجدل الفكري للفسفة الغربية يستقيم إلا إذا كان فلاسفة العقل حاضرين، فمن ذا من الباحثين إذا ذكر العقل لم يستحضر " الكوجيتو الديكارتي " أو " التعالي الكانطي " أو " النسق الهيغلي "

2-3-1 الكوجيتو الديكـــارتي وبـــذور الـــــذاتية الغـــربيـــة :

اتفق تقليديا على اعتبار ديكارت (1596-1650) كمؤسس (بمعنى غير إرادي) للمثالية الحديثة [01] . ذلك أنه من أبرز دعاة المثالية في العصر الحديث يتخذ من المبادئ العليا والحقائق الميتافيزيقية فيما وراء الطبيعة أساسا لبناء فلسفته ، واعتمد على العقل أولا بالذات في منهجه الفلسفي ، خلافا لما جرى عليه سابقوه من اتخاذ الجزئيات المادية أساسا لبناء فلسفتهم و الاعتماد على المنهج التجريبي الاستقرائي القائم على الملاحظة والتجربة .

فقد امتاز أسلوب ديكارت الفلسفي باستعمال الشك للتحقق من كل ما يتجلى له عن طريق النور الفطري والطريقة المنهجية الراشدة ، وقد شرح هذا بنفسه قائلا : « ولما كنت راغبا في التفرغ للبحث عن الحقيقة رأيت ... أن أعتبر كل ما أستطيع أن أتوهم فيه أقل شك باطل على الإطلاق » [02] فالشك الديكارتي شك منهجي ، مبالغ فيه ، لا يقوم على الحواس أو الملاحظة المباشرة بل يقوم على العقل لاستنطاق الحقائق « و هكذا فإنني لما رأيت أن حواسنا تخدعنا أحيانا أردت أن أفرض أن لا شيئ هو في الواقع على الوجه الذي تصوره لنا الحواس »[03] .

وإنه من أبرز دعاة المثالية في العصر الحديث هو الفيلسوف ديكارت، فالفلسفة المثالية تقوم – كما رأيت – على حبس الحقيقية (المعنى) داخل سور منيع عرف باسم " سجن العقل " ، حتى إن الذات الإنسانية لم تعد في هذه الفلسفة سوى ماهية مفكرة، عرفت بالذات المفكرة أو الكوجيتو – بتعبير ديكارت –فما المقصود بالكوجيتو إذن ؟

صحيح أن فلسفة ديكارت ، فلسفة عقلية (مثالية) راسخة الأركان و تقف موقف الشك إزاء العديد من القضايا والمسائل الفلسفية، « و لكن وسط هذا الشك الكلي تراءت له الحقيقة التالية : إن مجرد شكنا يترتب عليه بالضرورة القول بوجودنا (إنهـــــا العبارة الشهيرة: أفكر، إذن أنا موجود Je Pense , donc je suis) هذا هو أول يقين متاح للإنسان : وجوده الخاص بما هو كائن ذو تفكير، إلا أن الطريق تصبح أيضا مفتوحة أمام المثـــالية ، إذ يتبين مما سبق أن الحقيقة الوحيدة التي نبلغها بصورة يقينية هي حقيقة تفكيرنا »[04].

---

[01] فرانسوا غريغوار ، المشكلات الميتافيزيقية الكبرى " ، تر : نهاد رضا ، ص : 52 .

[02] الربيع ميمون ، " مشكلة الدور الديكارتي " ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، ط [01] ، الجزائر ، 1982 ، ص : 28.

[03] المرجع نفسه ، ص: 28 .

[04] فرانسوا غر يغوار ، المشكلات الميتافيزيقية الكبرى " ، ص : 52 .

تقوم فلسفة ديكارت في مجملها على البرهنة أولا أن الذات الإنسانية جوهر مفكر ، وهذا يقتضي أن يكون ثمة خالق لها ، يتصف بالديمومة والكمال ، وهو الله عزوجل ، والذي تهتدي له هذه الذات بواسطة العقل يقول ديكارت : « إذا أردنا أن نفرغ لدراسة الفلسفة دراسة جدية والبحث عن جميع الحقائق التي في مقدرونا معرفتها وجب علينا أن نتخلص من أحكامنا السابقة ، و أن نحرص على اطراح جميع الأراء التي سلمنا بها من قبل وذلك ريثما تتكشف لنا صحتها بعد إعادة النظر فيها ، وينبغي أيضا أن نراجع ما بأذهاننا من تصورات ، و ألا نصدق منها إلا التصورات التي ندركها في وضوح و تميز ، وبهذه الطريقة نعرف أولا أننا موجودون باعتبار أن طبيعتنا هي التفكير ، و نعرف في الوقت نفسه وجود إله نعتمد عليه ، وبعد أن ننظر في صفاته نستطيع أن نبحث عن حقيقة الأشياء الأخرى جميعا نظرا إلى أنه هو علتها » [01] .

تكشف هذه الخلاصة فلسفة ديكارت التي تعتمد على الحدس والبداهة العقلية بهدف إثبات الذات أولا – باعتبارها ذات مفكرة – ثم إثبات الله ثانيا –باعتباره علة كل شيئ في الوجود – وأخيرا إثبات العالم و إدراكه ، فمن بين صفات الإنسان الكثيرة مثل : المشي والتغذية والاحساس ... يرى ديكارت أن أهم صفة يحملها و يعتز بها هي صفة التفكير قائلا : « وهذه هي الصفة التي أشعر بأنها تخصني، و أن الفكر وحده هو الذي يلازمني ولا ينفصل عني بحال من الأحوال مهما شككت في وجود الأشياء جميعها » [02].

ولذلك أطلق ديكارت قولته الشهيرة : مادمت أفكر فأنا موجودة ، و كانت النقطة التي بدأ منها ديكارت فلسفته لإثبات " الذات " أو " الأنا" ، ليقيم عليها صرح فلسفته و ليرتب عليها كل نظرياته و آرائه سواء في فلسفته الطبيعية أوما وراء الطبيعية. يقول الدكتور عثمان أمين في كتابه " رواد المثالية " – باعتباره أحد المناصرين المتحمسين للديكارتية– : « ... من هذا اليقين الأول ، اليقين بوجود الذات المفكرة – أو ثبوتها بتعبير أدق – استخلص التمييز الحاسم بين النفس و الجسم ... و استخلص أن جوهر النفس هو الفكر ، و ان جوهر الله هو الكمال ، و أن جوهر الجسم هو الامتداد ، و بذلك سار الفيلسوف من النفس إلى الله مباشرة و بغير واسطة ، لم يرد أن تكون معرفتنا بوجود الله عن طريق العالم – كما صنع غيره من الفلاسفة واللاهويتين – بل رأى على العكس من ذلك أن المعرفة بوجود الله هي التي تفتقر إلى وجوء الله سندا لها ...» [03].

---

[01] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص : 75 .
[02] محمد عبد الرحمن بيصار ، " تأملات في الفلسفة الحديثة والمعاصرة " ، ص : 70.
[03] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص:78،79

يبدو من هذا التصريح المقر بفضل الكوجيتو الديكارتي على الفلسفة الحدثية– أن الإنسان عند ديكارت نفس (ذات) وبدن (جسم) وحتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى الحقيقة عليه أن يفصل الذات عن البدن ذلك أن معرفة الإنسان لنفسه أكثر من معرفة لجسمه أو بدنه ، لأنها منبع التفكير بكل مافيه من عمليات الشك الفهم ،التصور ، الإثبات، النفي ،الإرادة ،التخيل ، الشعور ..... ومن ثم فالبدن يعد واقعا ماديا ملموسا أما الذات فهي مفكرة ،ولذا فعليها البقاء داخل العقل (النسق) .

ويرى العديد من المفكرين أن الكوجيتو الديكارتي ليس إلا موقفا تقليديا معروفا في الفلسفة المدرسية التي قامت على مذهب روحي يتصل بميتافيزيقا اللاهوت وفي مقدمتها براهين وجود الله « وهو الدليل الأنطولوجي الشهير الذي صاغه القديس أنسلم في القرن الحادي عشر » [01] ، والذي وجهت له انتقادات كثيرة من قبل العديد من الفلاسفة ، وعلى رأسهم الفيلسوف الألماني كانط الذي قال فيه « إننا لانستطيع أن ننتقل مما هو موجد في فكرنا لإثبات شيئ في الواقع ، وبما أننا لانستطيع التفكير في الله ككائن غير موجود لايبرر لنا إثبات وجوده ، ذلك أن إثباتنا الوجود لله لا يدل على شيئ لأن الوجود وضع وإثبات ، أي لفظ يدل على أن شيئ ما له قوام ، ولا يدل على صفة زائدة فيه أو على كمال لأنه لفظ لا يمكن اعتباره محمول من المحمولات . فإذا قلت : الله حكيم ، وعالم ورحيمموجود فإنني لا أستطيع أن أعتبر لفظ موجود مثل الألفاظ التي قبله لأنها ممحمولات وهو غير محمول » [02] .

فالمنهج الفلسفي الذي اعتمده ديكارت كان يهدف إلى تنقية العقل من تصوراته الموروثة ومثل ذلك إثبات وجود الله ، وما يلاحظ على هذا المنهج أنه هو نفس الذي شغل اللاهوت في العصور الوسطى ، وعلى هذا الأساس يرى ديكارت بأن فلسفته – ليست بفلسفة عادية – وإنما هي فلسفة يغذيها ويضمنـــــها الله أو بأحرى هي إلهام من الله عز وجل « ... وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يمكن القول بأن ديكارت يطابق اللاهوتين في فهمهم للدين تمام المطابقة في الواقع إنه أكثر تطورا منه بالمعنى الفلسفي لأن فكره بدأ يتصل بنموذج أخر لتفكير إلا أنه ما زال متعلقا بالنموذج القديم أيضا » [03].

فالاهوتيون كانوا يرون بأن العالم ممتزج من فعل الله و فعل الإنسان ذلك لأن الله نفسه قد أصبح إنسانا بعدما امتزج لاهوته مع ناسوته (المسيح) ، ومن ثم فهم يردون وضع الإنسان أمام عالم

---

[01] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص : 79.
[02] الربيع ميمون ، " مشكلة الدور الديكارتي " ، ص : 57 .
[03] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص : 72.

يحكمه الإنسان – غير أن هذا الإنسان الحاكم لا بد وأن تتوفر فيه شروط الإيمان والمقصود هنا هو البابا بالطبع – لكن ديكارت يقول بخلاف ذلك فهو يريد وضع الانسان أمام عالم يحكمه الله تعالى ، لأن الله هو خالق الإنسان والحقيقة وكل شيئ . ولذلك كانت الدعوة إلى كل البشر لأجل تحكيم العقل في ذلك ....

ومن هنا يمكنني القول أن الكوجيتو الديكارتي ليس سوى تأكيد على مبدأ انتقال الحقيقة (المعنى) من الطبيعة (الخارج) إلى العقل (الداخل) ...فديكارت بدأ يركز موضوعاته حول اللاهوت أو إثباتها على أمل إثبات العالم الموضوعي – عالم الله أو عالم الحقيقة الذي هو متعال عن عالم الإنسان استنادا إليها وهذا ما جعله يقسم فرضية إلى ثلاثة أقسام :

1- إثبات الذات المفكرة / 2 – إثبات الله خالقها /3 – إثبات العالم .

وعلى هذا الأساس يرى الدكتور عثمان أمين« أن فلسفة ديكارت قوضت مذهب أرسطو وقضت على علم العصر الوسيط ، وأيدت سلطان العقل الناضج ، وناصرت قضية الحرية المستنيرة وهيأت النفوس للثورة الإنسانية الكبرى ... » [01] ، وإن العقل الغربي بانتقاله من العلم التجريبي القائم على الملاحظة و التجربة إلى استعمال العقل في البرهنة على وجود الحقيقة لدليل قاطع على مأساته وتقلبه في البحث عن السعادة والديمومة في هذا الكون ، بحث طويل جعله يتقلب بين قطبي الخارج والداخل أوقطبي الشك واليقين الموضوعي ، وهو ما يؤكد ماقيل عن ثنائية الجوهر المفكر والجوهر المادي في الفكر الغربي ، وإن البنيوية بتركيزها على النسق أو النظام اللساني تمثل اليقين الموضوعي الذي أثبته العلم التجريبي ، كما تتقاطع أيضا مع الفلسفة العقلية / المثالية في مبدأ النسق.

2-3-2- كانط : مشروع التوفيق والمعرفة المتعالية :

كنت قد رأيت في مبحث سابق من الفصل الماضي كيف أن كانط قد حاول التوفيق بين المشروعين الرئيسين في الفلسفة الغربية ، ألاوهما التيار العلمي التجريبي الذي نظم أطره الفلسفية لـــــوك وهيوم ... والتيار العقلي الذي نظم أطراه ديكارت ومضى فيه سبينوزا ولاينتز إلى أقصى أبعاده الميتافيزيقية . فقد هاجم كانط النزعة العقلية المتطرفة وقال بجدوى إخضاع العقل نفسه للنقد والتمحيص ، وقدم بذلك أول خطوة لقيام الفلسفة النقدية ، تلك الفلسفة التي قدمت مثلا صارخا توجز فيه التناقض الإنساني القائم والمتجذر في الوجود ، كالتناقض بين الذات والموضوع ، وبين الظاهر والشيئ في ذاته ...

---

[01] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص: 82.

وما تجدر الإشارة إليه أن كانط –باعتبار فيلسوفا نقديا – لم يلغي الفلسفة التجريبية بل أثر التحفظ على فكرة أن إدراك الحقيقة / المعنى يكون بواسطة التجربة والملاحظة أي خارج العقل ... وكذلك قال باستحالة اللجوء إلى الواقع الخارجي للبرهنة على قواعد العقل ،فهذا الأخير يملك من القوانين التي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تقبل غير صورتها مفسرا للأشياء .

فهي بذلك تغلق العقل على نفسه كملكة قادرة على إدراك الحقيقة / المعنى دون الإستعانة بما هو خارجة ... وكان هذا هو أساس فلسفة كانط المثالية التي تخالف التصورات المثالية الأخرى التي ترى أن العالم الخارجي ليس له وجود في ذاته ، وإنما وجوده في الأذهان ، فمثاليته لاتنكر الأشياء كذوات يمكن إدراكها بل أعطاها حق الوجود والإستقلال . وبهذا استطاع أن يتغلب على التعارض القائم بين العقل والتجربة في الفلسفات السابقة ، ففي نظره لم يعد هنالك عقل في جانب وتجربة في جانب آخر ، بل إن العقل عنده أصبح " مباطنا" للتجربة " كامنا" فيها ، وشروطها [01] .

ما أمكنني ملاحظة ، من خلال ما قام به كانط من توفيق بين مشروعي الحداثة الغربية على الرغم من الصراع الحاد الذي قام بينهما لعدة قرون وعلى الرغم أيضا من مرتكزات الفكر الغربي على الثنائيات الضدية التي لا يقوم إلا عليها ، فهو مذهب لايأبى غير الصراع الثنائي مذهبا في الوجود باعتباره فكرا متناقصا مع نفسه ، لا يستطيع الباحث فيه الخروج بنتائج قارة ، لأنه ما يلبث فيه الوقوف عند منهج في البحث والتفكير إلا أعلن الثورة عليه ، وأزاحه معلنا ميلاد مشروع بديل ، وهو إذ يفعل ذلك يروم المحافظة على ديمومته ومركزيته .

وهذا ماحصل بالفعل مع الفلسفة الواقعية التجريبية ، إذ تم إزاحتها بهدف حصر المعرفة داخل العقل البشري، وكانت الفلسفة النسبية استجابة لهذه الرغبة ، وكذلك فعل الغرب للفلسفة العقلية المثالية أين تم إزاحتها عندما بدأت مرحلة الشك في القدرات المحدودة للعقل ، وبدأت الثقة الزائدة في الذات ،خاصة حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، ولا سيما عندما ظهرت أراء داروين حول النشوء والارتقاء ... ثم توطدت رحلة الشك أكثر مع نيتشه الذي سجن العقل تمهيدا بذلك لسجن اللغة ، فأين هو مبدأ تحرير الذات وأين هي حريتها ؟

---

[01] ينظر عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ، ص : 91.

2-3-3- النسق الهيجلي وبناء التمركز الغربي :

تعتبر الفلسفة الهيغلية من أكثر الفلسفات أهمية في بناء الوعي الغربي الحديث ، وقد استندت الهيغلية في عملها هذا على قطبين أو دائرتين ، فأما الدائرة الأولى ، فتمثلت في الفلسفة المثالية الألمانية التي أرسى دعائمها كل من كانط ، فخته ، شلنج ، ويتمثل القطب الثاني في دائرة الفلسفة الغربية عامة من أصولها الإغريقية مرورا بلاهوت القرون الوسطى وصولا إلى التيارات العقلانية والتجريبية التي ازدهرت في القرن الثامن عشر . ولعبت هذه الدوائر دور المنظم العام لنسق الفلسفة الهيغلية [01].

ولقد ابتدع هيجل نسقا فلسفيا خاصا انطلاقا من نقدة اللاذع للفلسفات التي سبقته وردها إلى مجرد عناصر ومكونات في نسقها العام ، فهي فلسفة تدعي الشمول والكلية ولما كانت الثنائيات الضدية الموجه الأساسي في فلسفات القرنين السابع عشر والثامن عشر فإن فلسفة هيغل قامت بتوحيد تلك الثنائيات عن طريق **الجدل** ومحاولة تجاوز هذا الجدل وإدخال علاقات جديدة بين هذه الثنائيات [02] .

ومثال ذلك نقد هيجل للفلسفة الكانتية ، فالبرغم من اعترافه بدور الكانتية المهم والذي لا يمكن رده في محاولة التوفيق بين قضية التجربة والعقل ، إلا أن الكانتية قد ملأت بالثنائيات الضدية التي كانت سببا في تمزيق نسيج وحدتها ومن هذه الثنائيات أذكر : ثنائية الظاهر والباطن ، وثنائية الطبيعة والواجب وثنائية الحساسية والعقل وثنائية الضرورة والحرية ... ولذلك أعلن هيجل فلسفة الجدل « والتي من خلالها تمكن من تجديد الفلسفة العقلية وجعلها أكثر صلابة من ذي قبل ،إذ أقر مبدأ مركزية مرجعية الذات الإنسانية في إدراك الحقيقة الذي قال به ديكارت وكانط » [03].

فتصـــور هيجل الفلسفي كان بمثابة طريق ثالث حاول الجمع بين أنصار الوجود وهم الطبيعيون(الواقعيون) وأنصار الماهية وهم المثاليون (العقليون) ، أي حل التناقص القائم بين " الكيف " الذي تقول به المثالية ، و " الكم " الذي تقول به التجريبية . وفي " الكيف" نجد أن الموجود لذاته هو الطريق الثالث الذي يحل التناقض بين " الوجود " الذي تقول به المثالية ، و " الموجود " الذي تقول بـــه التجريبية [04]. وهذا يعني أن هيجل قد استطاع النفاذ بالذات إلى خارج العقل أي إلى الموضوع وهذا نوع من تحقيق للحرية الفردية . ذلك أن تجاوز التناقصات يتم ليس بجدلات المفاهيم والمقولات وإنما بتغيير الشروط المادية والتاريخية والاجتماعية التي أفرزت هذه التناقضات في العالم وفي فكر « فما يميز

---

[01] عبد الله إبراهيم ، " المركزية الغربية " ،ص : 103 ،104 .
[02] ينظر إمام عبد الفتاح إمام ، " المنهج الجدلي عند هيجل " ، ص: 102 ،103
[03] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز" ، فيفري 2002 ، ص :135
[04] عبد الله إبراهيم ،" المركزية الغربية " ، ص : 140.

فلسفة هنجل هو أنه مع دعوته إلى سجن الذات داخل مفهوم النسق ، إلا أنه من خلال مبدأ الجدل مكن الذات من تحقيق حريتها ، إذ تستطيع أن تتحول إلى نقيضها ، أي إلى الموضوع . إلا أن إغلاقه النسق من خلال توقيف الجدل بين الذات والموضوع يكون قد أوقف تواصل الذات مع الآخر ، وهذا ما أستند عليه فيما بعد ماركس في نقد فلسفة هيفل ، واعتبر ان الجدل الهيفلي مقلوب على راسه » [(05)] .

بعد هذه الجولة السريعة والمقتضبة في الفكر الفلسفي الغربي ، وتحديدا في المحطة الثانية لهذا البحث والمتمثلة في النموذج العقلي (المثالي) والتي تعد من أبرز علامات الطريق في هذه الرحلة ، أستطيع أن أفترض ودون كبير جرأة أن الكوجيتو الديكارتي ، أو التعالي الكانطي ، أو النسق الهيغلي ليس سوى تأكيد على مبدأ انتقال كفة الصراع بين قطبي اليقين / الشك أو الداخل / الخارج ، فمن الوجود أو الكم الذي يقول به أنصار الفلسفة الطبيعية تم الانتقال إلى الماهية أو الكيف الذي يقول به أنصار الفلسفة العقلية (المثالية) .

فالفكر الغربي يقوم– كما رأيت – على مبدأ الازدواجية أو الثنائيات الضدية باعتبارها الموجه الأساسي في الفلسفات الحديثة ، و هو فكر لايأبى غير الصراع الثنائي مذهبا في الوجود ، وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على تعاسة الذات الإنسانية ، تعاسة الفرد الأوروبي الذي ما انفك يتخلص من السجن الرياضـــــــي الميكانيكي (التجريبي) ليجد نفسه في نسق (سجن) العقل . مع أن كلا المشروعين قاما بهدف تحرير الذات الإنسانية. فأين هي حريتها ؟

إن التعارض الذي قد يلاحظ من خلال الصراع بين العلم التجريبي والفلسفة العقلية ، يخفي وراءه تجاسسا بينهما : إذ قام كلا هما بإعطاء الاحكام المنطقية مكان الصدارة في محاولة لإزاحة الفكر الغيبي الأسطوري ، مع ما يوجد من تقارب بين المنطق الأرسطي والفلسفة العقلية ، كما أنهما تعرضـــــــــــا لنفس النقد : العلم التجريبي بحلول النسبة محله ، والفلسفة العقلية (المثالية) بظهور فلسفة الشك مكانها . وهو ما يجده الدارس اليوم في عالم النقد الأدبي : إذ تعرضت البنيوية وريثة العلم التجريبي والفلسفة العقلية للنقد من قبل أنصار المشروع التفكيكي ، بدعوى أنها بالغت في استخدام المنهج العلمي على العلوم الإنسانية محاولة علمنه النقد وإدخال الموضوعية العلمية في تحليلاتها ، وأثبتوا عجزها في الوصول إلى الحقيقة التي يرون على يد زعيمهم " نيتشه " بأنها وهم

[(05)] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النوذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز " ، ص : 135

من أوهام العقل، فقالوا بتعدد القرءات ، ولانهائية الدلالة ، مثلما فعلت النسبية مع العلم التجريبي ، وفلسفة الشك مع فلسفة العقل [01].

ما أمكنني ملاحظته من خلال هذا النص التحليلي ، أن ثمة علاقة وطيدة بين الفلسفة الغربية والفكر النقدي واللغوي المقابل لها ، **فجون لوك** مثلا – باعتباره أحد أنصار الفلسفة التجريبية – يقول بوجود الحقيقة (المعنى) الخارجية سواء عبرنا عنها لغويا أم لا . وهذا ما يذكرنا أو يعيدنا إلى أحضان نظرية المحاكاة الأرسطية رغم الاختلافات الشائعة بين المذهبين ، وكذلك القول بأن أساس المعرفة (الحقيقية) موجود داخل العقل البشري أو الفردي – كما يقول أنصار المثالية – يذكرنا بالنزعة الرومانيسة التي تدعو إلى تأكيد الذاتية الفردية ، « وإن كانت " النزعة الرومانطيقية " في الأساس رد فعل ضد تأويل الخبرة البشرية تأويلا ضيقا بمصطلح العقل وحده ، كانت نوعا من التأكيد على ذلك الجانب الأقل حظا من العقل في الطبيعة البشرية ، وعلى كل ما يميز الإنسان من آلة التفكير الحاسبة الباردة وكانت بالتالي ثورة ضد النظر إلى العالم كنظام آلي واسع فحسب ... كانت تعبيرا عن الاعتقاد بأن الحياة أوسع من الذكاء ، وبأن العالم أكثر مما في وسع الفيزياء أن تجد فيه . كانت انصرافا إلى خبرة الإنسان بكل اتساعها وشمولها بدل الاقتصار على العلم وحده » [01] .

وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على الارتباط الحميمي بين العملية النقدية الحداثية وجذورها الفلسفية فالقضايا الأساسية التي شغلت النقاد منذ القرن السابع عشر حتى الآن عن معنى النص ووظيفة اللغة وحضور الذات أو غيابها ، سواء كانت ذات المبدع أو المتلقي ترتبط ارتباطا وثيقا بتطورات الفلسفة الغربية فاللاسفة لم يتحركوا في دوائر مغلقة عن الفكر النقدي ، بمعنى أنهم لم يكونوا بمنأى عند اللغويين والنقاد – كما قد يعتقد البعض – بل إنهم كانوا منظرين للنقد والدراسات اللغوية ، حيث أن مناقشة الأمور الفلسفية كانت تقودهم إلى الحديث عن الإبداع الأدبي والفني ووظيفة اللغة « ولهذا فإن دراسنا للمزاج الثقافي الغربي ممثلا في الفلسفة الغربية والفكر النقدي واللغوي المقابل والموازي تؤكد اشتراك المصطلح الفلسفي والنقدي في الدلالة . فالمصطلح النقدي واللغوي الجديد لا ينحت من عدم أوينشأ من فراغ ، لكنه عادة مايكون امتداد لنفس الدلالة الفلسفية التي تنسحب على الدلالة النقدية واللغوية من غير انقصام . وليس من قبيل المبالغة القول بأن تطور الفكر النقدي حول الدلالة أو المعنى وحول وظيفته اللغة وعلاقاتها بالخارج والداخل هو

---

(01) عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النوذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز " ،فيفري 2002 ،ص : 137 .

(01) جون هارمن راندال ، " تكوين العقل الحديث " ، تر : جورج طعمة ، مرا: برهان دجاني ، تق : محمد حسين هيكل مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، ج (02) ،ط (02) ، بيروت – لبنان ، 1966 ، ص :25 .

نفسه تطور الفكر الفلسفي حول هذه المفاهيم ، بمعنى أن الفيلسوف الغربي كان أيضا نا قدا أدبيا في معظم الحالات » [02].

وما يؤكد اتفاق مصطلحات بل عوالم والنقد الأدبي الحديث مع الفلسفة الحداثية الغربية ، ما يلاحظ من تشابه بين العلم التجريبي الذي شاع في القرن السادس عشر – كما رأيت – وفلسفة الشك التي جاءبها نيتشه والتي ظهرت بالموازاة مع الفيزياء النسبية ،إذ قام كلامها بالتأكيد على قصور العقل في الوصول إلى الحقيقة أو اليقين المطلق الذي قال به ديكارت وكانط في القرن السابع عشر.

وهذاما شهدته البنيوية في القرن الماضي ، باعتبارها الوريث الشرعي للعلم التجريبي إذ تم نقدها والشك في قدرأتها العلمية والمنهجية من قبل أنصار التفكيك ، وهذا إن دل على شيئ فإنما يدل على الصراع القائم والدائم في مسيرة العقل الغربي عبر التاريخ ، فهو عقل يدعي بلوغ الحقيقة بل الكمال ،في الوقت الذي يعيش فيه الصراع ، و اللامعنى بين أحشائه .

2-4- نيتشه وفلسفة موت الحقيقة / الإله / العقل :

في بحث مهم للدكتور فؤاد زكريا ، يقر بأن الجذور الفلسفية [*] للبنائية تمكن في الفلسفة الكانتية ، نظرا لما قامت به هذه الفلسفة من ثورة كوبرنيكية على الأنظمة التجريبية القائمة آنذاك ، ومحاولة فرض نظام عقلي / مثالي قائم بذاته واتخاذه نموذجا ترتكز عليه كل العلوم الأخرى . يقول الدكتور زكريا : « كذلك تدعو البنائية بدورها إلى نوع من الثورة الكوبرنيكية مماثل لذلك الذي دعا إليه كانت ،إذ تؤكد أهمية العلاقات الداخلية والنسق الكامن في كل معرفة عملية ، وتسعى إلى تجاوز المظهر الذي تبدو عليه المعرفة من أجل النفاذ إلى تركيبها الباطن ، وهي بدورها تترفع على النظرة التجريبية وتؤكد أن تقدم المعرفة لا يتم عن طريق وقائع تجريبية يضاف بعضها إلى لبعض ، و إنما يتم عن طريق إعادة النظر قي قوالب أو صور أو عمليات موجودة بالفعل ، ولكنها تتخذ مظهرا جديدا في كل عصر ...» [01].

يبدو من هذا التصريح أن الفلسفة الكانتية كانت بمثابة الأصل الأساسي – وليس الوحيد – للبنيوية ، نظرا لبحثها عن الأساس الشامل اللازماني الذي ترتكز عليه مظاهر التجربة من جهة.

---

[02] عبد الغزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنوية إلى التفكيك – " ، "عالم المعرفة " ، أفريل 1998 ،ص : 113، 114 .

[*] إن معنى كلمة جذور كما يستعملها الدكتور زكريا هو " الأصول وبالتالي فإنه يسند اكتشافات البنيويين من شتراوس إلى فوكو إلى أصول ومبادئ فلسفية (ينظر سعيد الغانمي ،" البنيوية : النموذج اللغوي والمعنى الفلسفي "، ضمن كتـــاب : " معرفة الآخر – مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 62.

[01] المرجع نفسه ،ص :61 ، أخذا عن : فؤاد زكريا ،" الجذور الفلسفية للبنائية " ،ص : 08 .

وتأكيدها وجود نسق أساسي ترتكز عليه كل المظاهر الخارجية للتاريخ من جهة أخرى ... غير أن المسكوت عنه في هذا التصريح هو أن للبنيوية – مثلها مثل بقية المشاريع النقدية الحداثية – جذورا فكرية أخرى قد تعود إلى أبعد من الفلسفة الكانتية بكثير ، قد تعود إلى الفلسفة التجريبية على يد **لوك وهيوم** ، مرورا إلى الفلسفة العقلية (المثالية) على يد **ديكارت وكانط وهيغل** ... بل إن من المفكرين من أرجع أصول الحداثة الغربية إلى أفلاطون وأرسطو حيث يعود صراع ثنائية الداخل / الخارج – مثل ما فعل دريدا – غير أن أمر التبدل والاستكشاف في العالم الغربي لم يتوقف عند هذا الحد ، بل ظهر فيلسوف ألماني قلب الموازين ،ودعى إلى تعرية الفكر الفلسفي الغربي من الخرافات التي أقامها العقل / المثال بدعوى أنه يملك الحقيقة .

لقد جاء نيتشه (Nietchge) بفلسفة الشك ، « التي تمتاز بالثورية الشاملة والطموح الجامع ، في ثقافة عصره ، وهي ثقافة تقوم على الإيمان بقيم كان نيتشه يدعو معاصريه إلى أن يتخلصوا منها وأن يستبدلوا بها ما هو خير منها ، لأنها في نظره ، قيم انحطاط وحياة تميل إلى الانطفاء .وهي قيم النصرانية ، والتشاؤم والعلم ، واخلاقية الواجب ، والعقلانية ، والاشتراكية ، والديمقراطية ، وغيرها»[(02)].

بعد ما جاء الفكر الفلسفي العقلي / المثالي الذي ادعى أن العلم التجريبي قد قلل من قدرة العقل في البرهنة على وجود الحقيقة وسجن معه الذات في المعادلات الرياضية ،جاء نيتشه بفلسفة الشك ،وكان بذلك « أول الداعين إلى نقض العقل الغربي ، وتعرية أنساقه وتقويضها قصد تحطيمها وإثبات قصورها في بلوغ الحقيقة / المعنى ... فقد رحل عنا في بداية القرن العشرين ، تاركا وراءه أراء عدها النقاد بمثابة الخيوط الرئيسة لا ستيراتيجية التفكيك التي تزعمها دريدا فيما بعد. كما أنه بفلسفته يكون قد أسهم في ميلاد النقد البنيوي ، إذ لم تصبح نظرية الأدب مع البنيوية نظرية في الحياة وإنما أصبحت نظرية في ظواهر الإبداع الأدبي من منظورها اللغوي والجمالي ، تندرج ضمنا لذلك ضمن الفلسفة العامة التي تأسست عليها تيارات العلم الحديث ومشت موازية لها وهي فلسفة " الظاهراتية " والتي تتميز بحذفها للجانب الميتافيزيقي الغيبي في دراسة الأشياء والتركيز على الجوانب التي تتجلى للإدارك ... البنيوية استندت على هذا الجدار الفلسفي المتين ... كان الغطاء النظري للبنيوية هو الظاهراتي . لكن بنك المصطلحات التي استقت منه أدواتها كان " علم اللغة " » [(01)] .

---

(02) الربيع ميمون ،" نظرية القيم في الفكر المعاصر " ،ص :88.

(01) عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللغوي والمعنى الفلسفي " ، " المبرز" ،ص :140 -141 ، نقلا عن : صلاح فضل ،" مناهج النقد المعاصر " ، الهيئة المصرية للكتاب ، القاهرة ،1996 ،ص :69 – 70 .

لقد جاء نيتشه بفلسفة الشك ،داعيا إلى تعرية الفكر الفلسفي الغربي من الخرافات التي أقامها العقل / المثال حوله بدعوى أنه يملك الحقيقة ،بل هي موجودة لقيم دليلا أطلق عليه الفلسفة الظاهرتية التي تؤمن إلا بالظاهر في إدراك الأشياء . قبل بيان هذا الموضوع ، سأتوقف أمام نيتشه نفسه ، فمن هو نيتشه ؟ وأي اتجاه أو منحنى فلسفي قد اتبعه في حياته وفي فلسفته ؟

نيتشه فيلسوف ألماني ،عاش حياة متمردة ضد ثقافة عصره ، تلك الثقافة التي كانت تقوم على مجموعة من القيم والمبادئ الخاطئة – في نظره – ومن أبرزها : النصرانية ، العلم ، الاشتراكية العقلانية الديمقراطية، أخلاقية الواجب ، التشاؤم وغيرها من القيم التي كثيرا ما حاربها نيتشه ودعا معاصريه أيضا نبذها والقضاء عليها « و لا سيما قيم النصرانية التي تخلى عنها وهو لا يزال شابا لم يتجاوز العشرين من عمره في أزمة روحية حادة أعلن فيها " موت الله" ، وكان يرى فيها أكبر جريمة ضد الإنسانية كما كان يرى في إلحاد عصره أهم أحداث التاريخ البشري لأنه قلب في نظره وجود الإنسان رأسا على عقب » [(02)]. يقول نيتشه « أين الله ، سأحدثكم عنه ، لقد قتلناه أنا وأنت . فنحن كلنا قتله . إن أسمى وأقدس ما كان للعالم قد صرعته سكاكيننا ، فمن الذي ينظفنا من لطخة الدم هذه ؟ أليست عظمة هذا الفعل تفوقنا بكثير ؟ وهل لا يجب علينا أن نصير آلهة ؟ ألا فليكن ذلك حتى نثبت أننا أهل لقيامنا بالفعل الذي قمنا به »[(03)].

قال نيتشه هذه الكلمات المجنونة في كتابه " المعرفة المرحة (Le gai savoir)، وفيما يبدو فإن نيتشه يجهل ما هي المشاكل العقلية الخالصة و لا يسجل في كتاباته سوى ما كان منه وجرى له في حياته ، لذلك فإنه يدافع عن أفكاره بحماس ومن غير تدليل عليها لأن إيمانه بها جازم مثل إيمانه برسالته كفيلسوف .فهو أول من جاء بفكره أو نظرية " الإنسان الأعلى (Le surhomme)لك أن إيمانه بأفكاره ومعتقداته هو الذي دفعه إلى التبشير بظهور الإنسان الأعلى [(01)].

فقد جاء نيتشه إذن ، ليغير نظرة الناس إلى العالم من حولهم ، وقال بأن الفلسفة العقلية ليست علما لأنها تستعمل في بحثها عن الحقيقة العقل وحده، بينما يربط العلم بين مجال الملاحظة الحسية وميدان العقل ، كما شكك في قدرة اللغة في الوصول إلى الحقيقة من خلال تشكيكة في قدرة العقل ذاته في الوصول إلى الحقيقة أو اليقين المطلق الذي نادى به أنصار الفلسفة العقلية / المثالية .

---

(02) الربيع ميمون ،" نظرية القيم في الفكر المعاصر " ، الشركو الوطنية للنشر والتوزيع ، (د-ط) ، الجزائر ،1980،ص : 88- 89 .

(03) المرجع نفسه ،ص : 89.

(01) ينظر الربيع ميمون ،" نظرية القيم في الفكر المعاصر " ،ص :89 .

وكما ذكرت سالفا فإن الرومانسية كانت قد أعطت الذات مكانة مميزة ومتفردة ، في حين أن الحداثة بما فيها من نظريات ودراسات قد أعطت ضربة عنيفة للذات ،حين أخرجتها من دائرة التفاؤل الرومانسي لتدخلها دائرة الشك في قدراتها ، « فقد أدت تجريبية القرن السابع عشر إلى إعادة التوازن بين طرفي ثنائية (العلم / الذات) وأبعدت الذات التي لا يمكن إثبات وجودها بإعمال الحواس إلى منطقة هامشية في تحقيق المعرفة ، فإن تجريبية القرن العشرين توصلنا مرة أخرى إلى نفس النقطة – مع تغيير جوهري هذه المرة – وهو اكتشاف أنه لا العلم بتجريبية وتطبيقاته التكنولوجية ، ولا الذات بمعرفتها الحدسية قادران على تحقيق معرفة نهائية أو يقينية » [02].

فهكذا بدأت مرحلة الشك في كل شيئ في هذا العالم ، أصبحت الحقيقة وهما والحضور غيابا واليقين شكا . ولم يكن نيتشه وحده من ثار على التقاليد الغربية الحداثية بل إن المفكر الفرنسي **ميشال فوكو** كان واحدا من اللذين تبنو موقف نيتشه الفلسفي « فنظرة فوكو للفكر الفلسفي الغربي تبدأ من نقده للفسفة الإنسانية (Humanism) والعلم والعقل ومعظم مؤسسات الثقافة الغربية بالشكل الذي اتخذته منذ عصر النهضة »[03] وينطلق فوكو في نقده للثقافة الغربية من قضية " الأزمة" التي يعيشها المجتمع الغربي ثقافيا ،« و هذه أزمة تتعلق بذلك التأمل المتعالي الذي ربطت الفلسفة نفسها به منذ كانت» [04].

ولقد تبين فوكو في كتابه " الكلمات و الأشياء" كيف أن تغير العلاقة بين الكلمات و الأشياء و كذلك عدم قدرة الكلمات على تمثيل الأشياء هي التي كانت سببا من بين أسباب ميلاد الحداثة النقدية في الغرب ، فاللغة لم تعد المعبر الوحيد عن الأشياء والأفكار ، و لم تعد تلك الوسيلة الشفافة لنقل الأفكـــــار و المعاني من المبدع (المؤلف) إلى القارئ ، أصبحت اللغة لاتقول الأشياء ، بل تقول رؤاها للأشياء –

و هذا يعني أنها لا تعكسها و لا تنعكس فيها – و شتان بين الأمرين... « ففوكو لا يثق بقدرة الكلمات على تمثيل " الأشياء " و" الأفكار"» [01] .

---

[02] عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك " ، " عالم المعرفة " ، أفريل 1998 ،ص :105 .

[03] جون ستروك ، " البنيوية وما بعدها – من ليفي شتاروس إلى دريدا " ،" عالم المعرفة " فبراير 1996 ،ص : 99. .

[04] المرجع نفسه ، ص: 99 .

[01]) جون ستروك ، " البنيوية وما بعدها – من ليفي شتاروس إلى دريدا " ، " عالم المعرفة "، فبراير 1996 ، ص : 109

و ينظر عبد العزيز حمودة

فقد تمزقت العلاقة بين الكلمات و الأشياء ،وأصبحت اللغة لا تقول الأشياء ، بل هي غير قادرة حتى على التعبير ... و لذلك تغيرت نظرة الناس إلى النقد ،فبعدما كان النقد قديما ينطلق من النصوص ، مثله في ذلك مثل القراءة العادية (الشفافة أو البريئة)– بتعبير عبد العزيز حمودة – التي انطلقت من النصوص القديمة التي كانت تتمتع بالشفافية في معانيها بالرغم من احتوائها على بعض الإستخدمات البلاغية و المجازية للغة .

غير أن القراءة عند الحداثيين اكتسبت معنى آخر ، فالتفكيكيون مثلا يلغون المؤلف ، ثم النص ، لأن وجود المؤلف يعني وجود معنى نهائي للنص ، و هذا ما لايقبله الحداثيون ، و لذلك تجدهم يكررون عباراتهم الشهيرة : " لا يوجد معنى " ، " كل قراءة إساءة قراءة " و غيرها من العبارات التي تعبر عن فكر نقدي جديد يقول بتعدد قراءات النص الواحد . و بالتالي فإن فوضى القراءة هي التي قادتنا إلى الشك في كل شيئ في نهاية الأمر، فقد أصبحت المعرفة بذلك كلها مشكوك فيها (أي ذات طبيعة افتراضية) نتيجة لغياب اليقين الكامل في عقل كل عارف [02] .

لقد تغيرت العلاقة بين النص (اللغة) و القارئ ، فلم يعد النص ملكا لصاحبه فقط ، بل أصبح للقارئ دور في الإدلاء بشهادته على كيان النص والخروج به من وحدته بعد أن توفي صاحبه . يقول بارث (Barthes) – البنيوي الذي مهد الطريق للتفكيك – « إن موت المؤلف يعني رفض فكرة وجود معنى نهائي أوسري للنص ، بل رفض وجود الله ، ذاته و ثالوثه : العقل و العلم و القانون» [03].

إذن ، فلقد تبدلت نظرة النقاد إلى القارئ ، فبعدما كان مجرد مستهلك للنصوص (الكلمات) أصبح يشغل الدور الهام في اللعب بالكلمات ، عندما صار مبدعا ثانيا يملأ الفراغات التي يتيحها له النص ، لكن يا ترى ما سبب هذا التغيير كله ؟

أعتقد أن الفضل في ذلك يعود إلى الفيلسوف نيتشه الذي غير من منظور الحقيقة و قال بالشك في كل يقين موضوعي ، ليس يقين النصوص (اللغة) فحسب ، بل ويقين كل موجود على هذه الأرض ، كيف لا و بداية دعواه كانت عن " موت الإله " . يقول روجيه غاوردي : « و لعل الذي جعل هذا الفيلسوف يحظى بمكان الزعامة في مسرح الفكر الفلسفي للقرن العشرين ، هو نزعة الشك التي اتصفت بها افكاره و مفهومه للحقيقة ، و دعوته إلى تفكيك العقل الغربي القائم على اللوغوس ،و

" المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك –"، ص : 182 ، 183

[02] ينظر المرجع نفسه ، ص : 105 ، 106

[03] المرجع نفسه ، ص :105.

إعلانه عن " موت الإله" كتمهيد لإعلان " موت المؤلف " فيما بعد عند فوكو و بارث في إطار فلسفة " موت الإنسان "» [01].

وكذلك فعلت البنيوية – حسب رأيي – عندما رأت أنه من العلمية القضاء على الإنسان من أجل تأسيس علوم الإنسان ، والقضاء على الوعي من أجل إقامة البنيات اللاواعية ، ورأت في العقل ساحة للاستقبال وشيئ كبقية الأشياء ، تحدث فيه أحداث وتتبدل ، فهو مجرد مكان لاغير .

3- البنيوية والنموذج اللساني : (سجن اللغة / النسق)

لقد صار من البديهي القول أن البنيوية قد تكونت في مجال اللسانيات أو علم اللغة الحديث ثم امتدت إلى مجالات معرفية متعددة منها : علم الاجتماع ، الأنتربولوجيا ، النقد الأدبي ... أي ما يسمى عادة بالعلوم الاجتماعية ومرة بالعلوم الإنسانية . وكان أهم مجال في ذلك هو النقد الأدبي ، حيث دخلت البنيوية الدراسات الأدبية النقدية في أواسط القرن العشرين قادمة – كما ذكرت – من اللسانيات و الأنتربولوجيا لتلتبس بأحد طرق التفكير النقدية السائدة مثل : الشكلية ، والواقعية ، والماركسية ... لتشكل في الأخير مايعرف بالبنيوية الشكلية ،أو البنيوية الماركسية ، أو البنيوية النفسية ... التي تدخل كلها ضمن إطار النقد البنيوي ، ذلك « أن الحديث عن النقد البنيوي هو وقوف عند أول معلم من معالم الحداثة النقدية ،هو حديث عن نظرة نقدية مكتملة الآليات اتخذت من اللغة أساسا لها في البروز على الساحة النقدية ، ليس اللغة كأداة للتواصل والتعبير بل هي هنا غاية في حد ذاتها لا تحيلك إلا على معجمها الداخلي كنظام من العلامات تنتج الدلالة من خلال العلاقات القائمة فيما بينها » [02].

ومما لا شك فيه أن النقاد الفنيون و الأدبيون كانوا يفسرون عمل الكاتب من خلال تاريخ حياته ويبنون نظرتهم إلى الفنان على وقائع نفسية أو اجتماعية أو سياسية لها كلها موقع محدد في التاريخ « فقد كان النقد قبل مجئي البنيوية عملا يهتم بالظروف الخارجية فيتناول الواقع النفسي أو الوجداني الذي يعبر عنه الأديب أو يتناول العصر أو المجتمع اللذين وجد فيهما الناص .

---

[01] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز" ،ص : 141 ،نقلا عن : روجيه غارودي " البنيوية فلسفة موت الإنسان " تر : جورج طرابيشي ،دار الطليعة ، ط (02) ، بيروت ، 1981 ،ص : 28.

[02] المرجع نفسه ،ص : 145.

وهذا ماجعل الدراسات النقدية تبدو بعيدة عن الفهم الحقيقي للعملية الإبداعية ، إذ من المفروض أن يهتم النقد بالنص ،لأنه الذي يسوغ أي اهتمام نبديه بصاحب النص ، أو بعصره ، فالنص ذاته يكشف عن صاحبه لا العكس » [01].

ظهرت البنيوية إذن كمنهج للبحث والاستكشاف بتأثير من العلامة دي سويسر في بداية القرن العشرين وإن لم يعثر في كتابه على كلمة " بنية " إلا أنه استطاع أن يغير نمط الدراسات اللغوية عما كانت عليه من قبل ، فقال بان اللغة يجب أن تدرس كعلم مستقل بذاته ولخدمة ذاته ، لا أن تدرس لذات علم آخر ولكي يتحقق ذلك كان لزاما دراسة علاقاتها الداخلية دراسة عميقة تشكل في مجموعها الدلالات الكلية المحققة لقيمها الكلية أو المقصودة . ولذلك فقد انطلق سوسير في دراسة اللغة من مجموعة من الثنائيات أسس بها صرح المنهج البنيوي ، ومنها : ثنائية اللغة / الكلام ، والدال / المدلول ، والتزامن / التعاقب .

فالبنيوية مد مباشرة من اللسانيات ، ويقف دي سوسير على صدارة هذا التوجه النقدي ، عندما حولت أفكاره الدراسات اللغوية نحو نفطة لاعودة منها لسابق عهدها ، وكانت أفكاره نفسها صاحبه الدور الأكثر فعالية في بلورة البنيوية و اتجاهاتها ، وخاصة منذ أن أخذ بتعريف اللغة على أنها نظام من الإشارات ، وهذه الإشارات هي أصوات تصدر من الإنسان ، ولا تكون ذات قيمة إلا إذا كان صدورها للتعبير عن فكرة أو لتوصيلها ، « وهو بهذا يكون قد مهد لمبدأ تعدد الدلالات ولانهائية التفسير الذي قال به التفكيكون : إذ المدلول كصورة ذهنية لا يمكن تحقيقه في الواقع لأنه متصور غائب عن لحظة الكلام وغيابه دليل على حضوره ،ويبقى دائما وأبدا مؤجل الحضور »[02].

ولقد حاول بعض النقاد استخدام المنهج البنيوي على النصوص الأدبية بغية الاقتراب من مبدأ العلمية والموضوعية على عكس المناهج النقدية السابقة له ، والتي يغلب عليها طابع الأحكام الذاتية والانطباعية ... وهذا مالاحظته مع الشكلية الروسية التي حاولت إرساء دعائم الدراسة الادبية على قاعدة مستقلة فبدلت مركز الاهتمام من الشخص إلى النص. وكان أهم سؤال بالنسبة لها ليس كيفية دراسة الأدب وإنما الماهية الفعلية لموضوع بحث الدراسة الأدبية . « فالنقد الشكلاني نقد لغوي محض يستهدف الاحاطة بمستويات النص النحوية والصرفية والصوتية والمعجمية ، كما

---

[01] خثير ذويبي ، " البنيوية والعمل الأدبي – دراسة بنيوية شكلانية (لمرتبة مالك بن الريب) – " ، مطبعة موساوي ط [01] سطيف –الجزائر ،2001 ،ص: 14.

[02] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز" ، فبراير 1996 ، ص: 145 .

اشتهر هذا المنهج بإقصائه المنهجي للرؤية النفسية والتاريخية ، والاجتماعية ،إقصاء مطلقا ،على اعتبار أن هذه الرؤى من اختصاص علوم إنسانية أخرى . وقد تسبب ذلك في عداء شديد بين البنيويين الشكلانيين ، وبين أصحاب المناهج النقدية السالفة الذكر » [01].

فالمنهج البنيوي عكس المناهج الخارجية الأخرى ، كالمنهج التاريخي والنفسي ... التي تدرس الظاهرة الأدبية من خارجها ،وتفسر العمل الأدبي إما برده إلى الشروط التاريخية أو إلى العوامل الباطنية للمؤلف ،وذلك أن السياق الفكري الذي ترعرت فيه هذه المناهج سادت فيه النزعة التاريخية ، حيث كانت تفسر كل الظواهر من خلال التاريخ ، فالسابق دائما يتحكم في اللاحق ، وظل الأمر على حاله ،إلى أن ظهر النقد الشكلاني الذي يشبه كثيرا النقد البنيوي في مبدأ الاستعانة بنتائج العلم التجريبي في دراسة النصوص الأدبية ، فهاهو **رومان جاكبسون** يطلق عام 1919 قولته التي أصبحت فيما بعد كبيان يختزل عمل الشكلايين والشعريين والبنيويين ، حيث قال : « ليس موضوع علم الأدب هو الأدب وإنما الأدبية أي ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا »[02].

وإنه من أهم إنجازات المدرسة الشكلية هو مفهوم الأدبية أو الشعرية « الذي نعني به الوظيفة الخالصة للأدب ، والتي تميز النص الأدبي عن غيره من النصوص ، أي ما يجعل من نص مانصا أدبيا » [03]، أوالتي تدل حسب التوجه السائد «على مجموعة المبادئ الجمالية التي تقود الكاتب في عمله الأدبي »[04].

ولذلك فقد أضفى مفهوم الأدبية أو الشعرية على النظرية الشكلانية طابع العلمية والنسقية والاهتمام بالخصائص الشكلية للأدب ، وأسهم في إيجاد أجوبة حول القضايا التي تخص الأدب من الخارج.

يقول الدكتور **عبد العزيز حمودة :** « إن البنيوية الأدبية في جوهرها ، تركز على " أدبية الأدب (Literariness) " وليس على وظيفة الأدب أو معنى النص .أي أن الناقد البنيوي يهتم في المقام الأول بتحديد الخصائص التي تجعل الأدب أدبا ، التي تجعل القصة أو الرواية أو القصيدة نصا أدبيا . ولكي يحقق ذلك عليه أن يدرس علاقات الوحدات والبنى الصغيرة بعضها ببعض داخل النص في محاولة للوصول إلى تحديد النظام أو البناء الكلي الذي يجعل النص موضوع الدراسة أدبا . وهو

---

(01) خثير ذويبي ، " البنيوية والعمل الأدبي – دراسة بنيوية شكلانية (لمرثية مالك بن الريب) – " ، ص : 34 .
(02) صلاح فضل ، " نظرية البنائية في النقد الأدبي " ، ص : 60.
(03) خثير ذويبي ، " البنيوية والعمل الأدبي – دراسة بنيوية شكلانية (لمرثية مالك بن الريب) " ، ص : 34 .
(04) وائل بركات ، " مفهومات في بنية النص " ، ص : 55.

نظام يفترض الناقد البنيوي مقدما أنه موجود ، وبعد ذلك يحاول تطبيق خصائص النظام الكلي العام على النصوص الفردية معطيا لنفسه حق التعامل بحرية مع بنى النص الصغرى ووحداته » [05] .

ومن المفترض أن ثمة نقاط تماثل وتقارب عديدة بين المدرستين الشكلية والبنيوية ، ولعل أبرزها : التماثل في مفهوم " الشكل – البنية" و " النظام – النسق " كما استعمله دي سوسير ، وكذلك الاشتراك في المصدر اللساني ، باعتبار أن الشكلانيين قد وجهوا أبحاثهم نحو اللسانيات التي كانت تلائم نظرية الشعر في الدراسة إضافة إلى فرضهم موقف علمي موضوعي من خلال « رفض المبادئ الجمالية الذاتية التي روج لها كتاب النظرية الرمزية، والتحرر – بالتالي – من المقولات الفلسفية والتأويلات النفسية والإيديولوجية »[(01)].

ولكن أهم نقد قد يوجه إلى المدرسة الشكلية – والذي يعد في حد ذاته نقطة اختلاف هامة بينها وبين المدرسة البنيوية – فيتمثل في تركيزها على جانب الشكل دون الاهتمام بالغاية من العمل الأدبي وبمحتوى الأدب وهذاما عبر عنه " شلوفكسي " – أحد مؤسسي هذا الاتجاه – في صورة نقد ذاتي قائلا : « لقد شغلت في دراساتي النظرية بالقوانين الداخلية للأدب ، وإذا كان لي أن أستخدم عبارة مأخوذة من المجال الصناعي فإنني كنت مثل من لا يشتغل بوضع القطن ومنتجاته في الأسواق العالمية والسياسة الاحتكارية المتبعة فيه وإنما يركز اهتمامه على مشاكل الغزل والنسيج من الوجهة الفنية » [02].

يدل هذا الاعتراف من أحد أقطاب الشكلية أنفسهم ، على أن ثمة نوع من القصور المنهجي في هذه المدرسة ، نظرا لتركيزها على الجانب الشكلي دون غيره من الجوانب الفنية الأخرى مثل المضمـــــــون أو المعنى ، ذلك أن الدراسة النقدية الجادة هي تلك الدراسة المترابطة والمتكاملة الأبعاد والوجهات الفنية . لذلك فإن البنيوية باقترابها من مجال النقد الأدبي ، إنما تسعى « التخفيف من سطوة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ على مجال النقد ، في محاولة لتحقيق التوازن ، وهو أن تطبق منهجا علميا على مجال غير علمي (العلوم الإنسانية) حتى تتخلص من المفاهيم النقدية القيمية التي أرهقت كاهل النقد وجعلته مجرد مخبر لتجارب هذه العلوم » [03] .

---

[05] عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك –" ، ص : 181 ، 182 .

[01]) صلاح فضل ، " نظرية البنائية في النقد" ، ص : 55.

[02] المرجع نفسه ، ص : 103 .

[03] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز "، فبراير 1996 ، ص : 146 .

وكما هو معلوم فإن المنهج البنيوي ظهر كتيار فكري في نهاية الخمسينيات ليتجاوز النزعة التاريخية والفلسفات التي تعتمد الذات كخلفية مثل الوجودية أو الظاهراتية ، مستعينا في ذلك بنتائج العلم التجريبي ، فقد اعتمد خلفية عملية وفلسفية أكسبته نسقية منهجية وشمولية ميدانية . وكما هو معلوم فالبنيوية قد ثارت على الفلسفات السابقة لها ، ولا سيما الفلسفات الوجودية الظاهراتية والماركسية ، التي سادت فرنسا في فترة ما قبل البنيوية متخذة من الآثار السيئة للحرب العالمية الثانية وكذلك الممارسات الديكتاتورية والغير ديمقراطية التي سادت العالم الغربي خلال هذه الفترة ذريعة هامة وحاسمة للدخول ساحة المعارك الأدبية والعلمية .

فبعد أن فقد الإنسان الغربي ثقته في هذه الفلسفات كانت الساحة شبه فارغة لمجيء النقد البنيوي وحمله راية الدفاع عن الإنسان المهزوم ، « لكن عبثا يحاول فالإنسان الغربي وإن أبدى ترحيبا بالبنيوية بديلا عن الوجودية ، إلا أنه يعلم أنها ثمرة من ثمار العلم الذي زرع الخوف وجلب اليأس له في الحرب الكونية الثانية وليس أدل على ذلك من القنبلة الذرية في اليابان ، فقط هو يريد أن يجد بديلا يقاوم به فشله في تحقيق السعادة ولو إلى حين ، وهذاما يفسر المدة القصيرة التي بقيت فيما البنيوية » [(01)].

فقد شاعت في منتصف الستينات ومابعدها بضعة شكوك في الكفاية المنهجية للبنوية بشتى حقولها الأنتربولوجية ، والنفسية ، والأدبية ، والمعرفية ، تقول **جوناتان كلر** : « إن اعتماد البنيوية على النموذج اللغوي في الدراسات الأدبية جعلها تنطلق من نظرة سابقة أصلا للعلمية الإبداعية » [(02)] .هذا يعني أنه وبما أن البنيوية ظلت أسيرة النموذج اللغوي فقد وقعت في مأزق الوصفية والمعيارية الجامدة وأصبحت نتائج التحليل فيها تتطابق مهما اختلفت حقولها ... ولكن سرعان ماتحولت هذه الشكوك في نزاهة البنيوية إلى تيار نقدي يحاول نقد الوصفية البنيوية المجردة ونموذجها اللغوي الذي عممته على العلوم الإنسانية ، وقد تم هذا الخروج من أقطاب البنيوية أنفسهم : بارث ، تودوروف ،ألتوسير ، فوكو دريدا ... وبدأت أولى هذه الارتدادات حين ألقى دريدا سنة 1966 في جامعة " هوبكنز" بالولايات المتحدة الأمريكية محاضرة حول التفكيك ، ثم جاءت ثورة الطلبة الفرنسيين سنة 1968 تأكيدا لأفول شمس البنيوية وكل ماتمت به من صلة إلى الموضوعية

---

(01) عبد الغني بارة ،" البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، "المبرز" ، فيفري 2000 ، ص :146 ، 147 .

(02) عبد الله إبراهيم وأخرين ،" معرفة الآخر – مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة " ، ص : 21 .

[03]. ولعل الانتقال من البنيوية إلى السيميائية لأبرز دليل على انهيار الوصفية الموضوعية التي أرستها البنيوية .

وكما هو معلوم ، فإن البنيوية قد اعتمدت مبدأ النموذج اللغوي وطورته ليصبح أساس المقاربة النقدية (البنيوية) للنصوص الأدبية ، متخذة من الرياضيات المثال المحتذى ، ذلك أن الرياضيات لا تحتاج إلى تحقيق خارجي للتدليل على صحة قضاياها . ويوضح الدكتور شكري عياد العلاقة الوطيدة بين البنيوية والنقد الأدبي قائلا : «... إن الحديث عن البنية أو البناء قد صاحب كل حركة نقدية عنيت بالتحليل الفني للنصوص الأدبية ، مخالفة للاتجاه الذي ظل سائدا حتى أوائل هذا القرن وهو الاتجاه السائد في جامعاتنا نحو نحو التفسير التاريخي (...) والشبه واضح على الخصوص – بين النقد الجديد الذي سيطر على الدراسات الأدبية في أمريكا في الأربعينات والخمسنيات والنقد البنيوي الذي انطلق في فرنسا في الستينات ، بل إن النقد البنيوي سمي أيضا بالنقد الحديد .

كما أن اصطلاح البنية ظل شائعا بين النقاد الجدد في أمريكا ، ولا يكاد القارئ يشعر بفارق بين دلالة البنية عند هؤلاء وهؤلاء سوى تأكيد البنيويين جانب الاصطلاح في الأدب من حيث هو مؤسسة ذات مواضعات فنية ،على حين يؤكد النقاد الجدد ، مخلصين لتراثهم الانجلوسكسوني الذي يهتم بالواقع المحسوس المجرب ، جانب النص الأدبي كعمل له تفرده و ذاتيته قبل أن يصبح في الإمكان النظر إلى السمات المشتركة بين مجموعة من الأعمال الأدبية أو بين الأعمال الأدبية كلها ، و لكـــــن هؤلاء و هؤلاء يتمسكون باستقلالية الأدب كمؤسسة أو كأعمال متميزة عما يسمى بالواقع الخارجي أو الحقائق الفكرية »[01].

وفي هذا التصريح ما يؤكد مقولة الدكتور عبد العزيز حمودة ، من أنه يستحيل أن يوجد في تاريخ النقد الأدبي مدرسة جديدة بالكامل[02] ، فلو تتبعنا التحولات المعرفية الكبرى في الثقافة الغربيـــة – و لا سيما القرون الثلاثة الأخيرة – لوجدنا أنها قد مرت بأطوار زمنية و فكرية متعددة ، تقوم على نوع من الإستمرارية و التواصل الفكري النقدي ، فكل مشروع جديد كان يلفظ

---

[03] ينظر المرجع نفسه ، ص:21 ، و سعد البازغي ،" استقبال الآخر –الغرب في النقد العربي الحديث –" ص : 176 ،177 .

[01] عبد السلام المسدي ، " قضية البنيوية – دراسة و نماذج –" ، ص : 94.

[02] ينظر عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك -" ، أفريل 1998 ، ص : 100و 195.

المشروع البديـــــل (أو السابق له) و يخرجه من عباءته ، و بالتالي فإن مقولة الحداثيين الغرب بأنهم إبتعدوا مدرسته فكرية نقدية جديدة إسمها البنيوية ، ليس له أي أساس من الصحة .

لكن ما تؤاخذ عليه البنيوية الأدبية حقيقة هو إهتمامها بالجوانب الداخلية للنص الأدبي بعيدا عن كل ما يمت بصلة للنص من الخارج ،« تكون قد أعادت فكرة " سجن النسق " من جديد : إذا جعلت اللغة غاية في حد ذاتها ، بل إن الإنسان يولد فيها ، فهي بيت الوجود كما يقول هيدغر، و ما الإنسان كاتبا أو حتى قارئا لا يملك إلا أن يستجيب لأنساقها الداخلية الثابتة ، فليس له الحق أن يأتي بشيئ من عند ياته ليجد نفسه في سجن اللغة بعدما فر من سجن القوى الإقتصادية الماركسية » .[03]

فالبنيوية ما هي إلا تعبير عن تناقض في الحضارة التي أنتجتها ، فبالرغم من أن البنيوية قد ثارت – كما ذكرت – على تلك المنطلقات الماورائية و الماهيات المتعالية و الكليات المجردة كالواحد و الذات و الحقيقـــــة و الوجود و العقل ، إلى أن المحجوب في هذا العمل هو أن البنيوية لم تنشأ إلا في أحضان الفلسفة العقلية المثالية ، فلسفة الذات العارفة (الكوجيتو) عند ديكارت ، و المتعالية عند كانط و التي إدعت الثورة عليها .

صحيح أن الفيلسوف الفرنسي **بول ريكور** قد صرح يوما بأن البنيوية كانطية دون ذات متعالية ، غير أن المحجوب في هذا التصريح ، هو أن البنيوية النقدية قد قامت سجن الذات في النسق أو النظام و الذي يتمثل عندها في اللغة ، في حين كان يتمثل في الفلسفة المثالية في سجن العقل / المثال.

و لقد أصبح النقد البنيوي في الواقع عبارة عن نوع من الممارسة النقدية للنص باعتباره يشكل منطقة من مناطق عمل الفكر ، فلم يعد النص مرآة للواقع ، و لا ترجمة ذاتية لسيرة صاحبه ، أو حالة المجتمع . و إنما أصبح التركيز في النقد منصبا على مشروعية و كينونة النص ذاته .

يقول الدكتور **علي حرب** موضحا هذه الحقيقة : « ففي منطق النقد يستقل النص عن المؤلف كما يستقل عن المرجع لكي يغدو واقعة خطابية لها حقيقتها و قسطها من الوجود . طبعا ليس كل خطاب يشكل نصا فالنص هو خطاب تم الإعتراف به و تكريسه. إنه كلام أثبت جدارته واكتسب فرادتـــــــه

---

[03] عبد الغني بارة ، " البنيوية بين النموذج اللساني و المعنى الفلسفي " ، " المبرز " ، فيفري 2000 ، ص :147.

و أصبح أثرا يرجع إليه . إذن فالنص ، لا الواقع ، هو الذي يعدو المرجع ، بمعنى أنه يفرض نفسه علينا و يدعونا إلى الرجوع إليه و قراءته بإستمرار (...) فنقد النص ينكشف عن نقد للحقيقة وإستكشاف للكائن إنه فتح علاقة مع الحقيقة من شأنها أن تغير مفهومنا لها و أن تبدل طريقة تعاملنا معها . ففي منظور النقد ليست الحقيقة جوهرا يتعالى على شروطه أو يوجد بمعزل عن الخطاب ، و إنما هي ما يخلقه النص نفسه . بكلام آخر : النص من هذه الوجهة لا يبحث عن الحقيقة بقدر ما يفرض حقيقته » [01].

قد يعني هذا التصريح أن النص لم يعد أداة للمعرفة ، بل أصبح هو نفسه ميدانا معرفيا مستقلا لذلك أصبح الاهتمام موجها نحو اللغة ،لغة النص ، لذلك فقد عملت البنيوية على إبعاد كل العوامل الخارجية التي تؤثر على الدلالة في النص ، وبات مركز الاهتمام منصبا على النص (اللغة) وحده باعتباره مجالا الإنتاج معرفة تجعلنا نعيد النظر في ما كنا نعرفه عن النص والمعرفة في آن... مثل ماقامت به الفلسفة العقلية / المثالية من فصل بين الذات والبدن بدعوى أن البدن يمثل الخارج الذي يعرقل عملية الوصول إلى الحقيقة ،والذات تعبر عن الداخل ،لذا فشبقى قابعة فيه لبلوغ الحقيقة أو اليقين المنشود .

من هنا فإنه يمكنني القول ب" سجن اللغة" ، نعم ، فقد زجت البنيوية الإنسان الغربي مرة أخرى وفي سجن من نوع آخر ،إنه " سجن اللغة" ،وهذا مايفسر –حسب ظني – تفشي الجانب " غير الإنساني " في الأسس الفلسفية للمنهج البنيوي – باعتباره أحد أهم المناهج الحداثية الغربية – الذي ألغى مفهوم " الإبداع " من قاموسه الدلالي ،بعدما كان هذا المفهوم مسيطرا على الفكر الرومانسي الغربي لفترة غير وجيزة . يقول الدكتور **سعد البازعني** موضحا ذلك : « فالبنيوية مثل النقد الأسطوري .غير معنية بالجانب الإبداعي في النصوص الأدبية ،وانشغالها الأساسي ينصب على الأدب بوصفه نظاما شاملا من أنظمة الثقافة التي يموت فيها المؤلف أو الإنسان المبدع ، وما على الباحث إلا اكتشاف القوانيين والعلاقات التي تربطة ببعضه البعض تمهيدا لاستكناه ما تنطوي عليه من دلالات » [01].

---

[01] علي حرب ، " النص و الحقيقة I – نقد النص – " ، المركز الثقافي العربي ، ط (03) ، الدار البيضاء (المغرب) – بيروت (لبنان) ،2000م ، ص :12-13.

[01] سعد البازغي ، " استقبال الآخر –الغرب في النقد العربي الحديث –" ،ص : 184.

وفي هذا العمل مايفسر بعض التناقصات في الاستقبال العربي للنقد الغربي – ولاسيما البنيوي – لما فيه من نزعة غير إنسانوية ، في حيث مازال نقدنا العربي ذو مزعة إنسانية تتمركز أبحاثها حول الإنسان فالإنسان هو ضحية المشروع البنيوي ، مثلما كان الضحية الأول والأخير لمختلف مشاريع الفلسفة الحداثية الغربية التي جذرت فكرة موت الإنسان وأقرتها مبدأ ساريا في كل المشاريع الفكرية والنقدية .

4- البنـــــيوية وما بعدها:

يذهب الكثير من النقاد إلى القول بأن البنيوية مرحلة مضت وانقضت، فلم يعد الناس يتحدثون عن البنيوية في باريس مثلا ، ،إلا حين يشيرون إليها بوصفها من بقايا نظرية بالية. و لاشك أن مثل هذه المقولة هي أمنية واهمة لا حقيقة واقعة، إذ ما زلنا نجد أن البنيوية متعلقة لا تنفك عن ما بعدها أي " ما بعد البنيوية" و التي هي في الواقع إستمرار لمنظور البنيوية الضد إنسانوي .

ومن أهم الاتهامات التي وجهت للبنيوية في مرحلتها الأخيرة،ما قاله دريدا[*] و التفكيكـــيون معه « أن البنيوية محكومة بالغائية، وأنها تعتاش على الاختلاف بين أمنيتها و متحققها ، وسواء أتعلق الأمر بالبيولوجيا أم بعلم اللغة أم الأدب ، كيف يمكن تصور كلية منظمة دون الإنطلاق من غايتها؟ أو من افتراض غايتها على الأقل؟ وإذ لم يكن المعنى ذا معنى إلا داخل كلية ، فكيف تراه ينبثق إذ لم تتجه الكلية إلى غاية تنتهي عندها ، وبقصدية لا تكون بالضرورة والأساس قصدية وعي؟ وإذا كانت هناك بنى فهي ممكنة انطلاقا من هذه البنية الأساسية التي تتفتح بها الكلية، وتفيض بها عن نفسها، لتتخذ معناها في استعجال غاية نهائية يجب أن نفهمها تحت شكلها الأكثر لا تحديدا ولا تعينا » [02].

ما أمكنني ملاحظته من هذا التصريح ، هو أنه بتركيز البنيوية على أهمية البنية ونظامها المتكامل تكون قد دفعت النقاد إلى أن يجدوها حيث لا توجد. بل و بالغ أنصارها في عدم الاعتراف بأن مظاهر البنية المدروسة ليست هي المظاهر الوحيدة ، ولا هي وحدها التي تعمل في نظام مغلق دون أن تتأثر بالعالم الخارجي. و من الملاحظ أيضا أن **دريدا** كان الشخصية الرئيسة و المسؤولة عن تطوير الحركة الفكريـــــة و النقدية الجديدة المسماة " بالتفكيكية" ، حيث لم ينطلق في

(*) **جاك دريدا Jack Derida** : فيلسوف فرنسي ، ولد بالقرب من مدينة الجزائر سنة 1930 ، وتلقى علومه في الإيكول نورمال سوبير بيير في باريس ، و هو يدرس الآن تاريخ الفلسفة هناك (ينظر جون ستروك ، " البنيوية و ما بعدها - من ليفي شتراوس إلى دريدا – " ، ص : 208).

(02) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الآخر " ، ص : 68 .

إرسائه أسس هذه الحركة على نقده البنيوية فحسب ، و إنما نقد العقل الغربي عامة ..يقول **جون ستروك:** « أثبت دريدا بوصفه فيـــلسوفا أو قارئ نصوص فلسفية أن التراث الفلسفي الغربي ظل دائما متشبعا بما سماه"مركزية الكـــلمة (logocentrisn) أو" ميتافيزيقا الحضور Metaphysics of (Presence) و بين أن نظريات الفـــــــلسفة و أطروحاتها المختلفة ما هي إلا صيغ من نظام واحد ، و رغم أننا لا نستطيع الركون إلى أمل التخلص من هذا النظام ، إلا أنه بوسعنا على الأقل أن نتعرف على ظروف الفكر التي يفرضها ،بالإصغاء إلى ذلك يسعى هذا النظام إلى كسبه. ورغم أننا لانستطيع أن نتخيل "نهاية" الميتافيزيقا أو أن نضع لها حدا، فإن بوسعنا أن نعمل على انتقادها من الداخل بالتعرف على النظام الهرمي الذي أقامته، و بقلب هذا النظام رأسا على عقب » [(01)].

لو رجعت إلى الوراء قليلا، وتحديدا إلى الفلسفة / العقلية المثالية التي أرسى دعائمها كل من كانط ديكارت ، وهيغل ، و التي جاءت لتحرير الذات الإنسانية من سيطرة النزعة التجريبية ، فانطلقت هذه الفلسفة من العقل واعتبرته الأساس الوحيد للمعرفة ، بدل الطبيعة واستخدام الملاحظةو التجريب .

وبذلك فالفلسفة العقلية قد نفت أن تكون الحقيقة موجودةفي الطبيعة(الخارج) ، بل هي قابعة في (الداخل) و ما على الذات العارفة أو المتعالية إلا البحث عنها واستنطاقها. وقد يكون هذا– العمل حسب ظني– هو نفس ما ذهب دريدا إلى تحقيقه أو البحث عنه، عندما قال بوجوب ضرب الميتافيزيقا الغربية(أو المركزية الغربية إن صح التعبير)من الداخل وقلب نظامها رأسا على عقب. فهو يرى أن ثمة ميتافيزيقا خفية تكمن وراء تفكيرنا كله. ولذلك فقد « وضع دريدا في تعامله مع النصوص الفلسفية وصفا نقديا بالغ القوة للفكر الغربي» [(02)].

لقد عبر دريدا من خلال دعوته إلى ضرب المركزية الغربية عن بداية النهاية للميتافيزيقا الغربية التي تعود إلى أفلاطون وتصل إلى ديكارت وغيره من الفلاسفة العقليين. غير أنه اعتبر البنيوية مربط الفرس وحجر الأساس في نقده العقل الغربي. ويرى الدكتور سعيد الغانمي أن السبب في ذلك قد يعود إلى « أن البنيوية حين تبدأ من البنية تفترض سلفا نوعا من التزامن اللاهوتي الذي يستنجد بسرمدية الكتاب كما يراه الله ، ولهذا يعنى دريدا بتمزيق البنية وتفكيكها ، فليست ثمة بنية

[(01)] جون ستورك ، " البنيوية و ما بعدها - من ليفي شتراوس إلى دريدا " ، " عالم المعرفة " فيراير 1996 ، ص :179 ، 180.

[(02)] المرجع نفسه ، ص:179 ، 180.

أو مركز، إن المركز عنده خارج النص(أي نص) وداخله ، ،إنه اللعبة المتواصلة بين المركز و اللامركز»[(03)] .

لقد وصف دريدا البنيوية بالاختزالية و التجريد، واتسامها بسمات الثبات الشكلاني ، ووقوعها تحت هيمنة ميتافيزيقا التزامن الآني ... لكن الغريب في الأمرحقا أن البينوية لم تتربع طويلا على عرش الساحة النقدية ، و لم تستطع التبرير ، و لا الرد ، و لا حتى التعامل مع الاتهامات و الانتقادات التي وجهها لها أقطابها أو روادها أنفسهم. فها هو زعيم النيوية و مثلها الأعلى رولان بارث يعلن عام1971 عن رفضه ونفيه لمفهوم العملية البنيوية وكل محاولاتها الوصفية والمعيارية في مستهل دراساته البـــــــنيوية (س/ز). « و إذا كان تودوروف يمتدح خاصية التحول الكامنة في شخصية بارف لقدرته على التحول إلى حيث يرى صواب الأخر، فإن هذا التحول إنما هو في الحقيقة نتاج لعدم الإحساس بالثبات واليقين إلى الأسئلة اللانهائية التي تقدمها الخطابات الإنسانية والتي يستحيل وصفها بدقة إلى لعبة لاغير »[(01)].

بالفعل لقد انتقل بارث من الوصفية والمعيارية إلى البحث عن صيغ أخرى . لقد تحول إلـــى السيميائية (Sémiologie) وراح ينقد البنوية وطرق تحليلها للنصوص ... وبذلك فقد خضع كل شيء للشك وعدم اليقين وإلى التحول والتجديد .. و هذه هي طبيعة الفكر العلمي و الفلسفي ، فهي طبيعة تحيل إلى البحث عن نموذج شامل يعمم على مختلف أنواع المعرفة من أجل توحيدها ، وقد بدى هذا الطموح جليا في المراحل التي قطعها التفكير الإنساني ، بحيث أن كل مرحلة يهيمن فيها نموذج خاص " فالمثالية" اختارت نموذج " المطلق " والنزعة الرومانسية اختارت نموذج "العضوي" ، في حين أن القرن الثامن عشر اختار كلمة "الميكانيك" ، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بدأ النموذج اللغوي يتسرب لجميع فروع المعرفة ... « فلا غرابة أن تنتعش السيميولوجية ومن ثم التفكيك في أعقاب البنيوية . فهذا منطق الجدل المنهجي ، وكفاية طرائق التعبير عن الرؤية بين مرحلة وأخرى وعصر وآخر .فليست السيميولوجية أو

---

(03) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الآخر " ، ص : 68 ، 69

(01) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الآخر " المرجع نفسه ، ص : 25

التفكيك أو الهرمونتيكة بآخر المنهجيات ، فلابد أن تعقبها محاولات أخرى تنهض لوضع الأجوبة الجديدة على ما استعصى على تلك » [02] .

ومن الطبيعـــــي أن عصور الفكر الكبرى ونماذجه لا تعرف نهايات حادة ولا بدايات مفاجئة فأمشاج الماضي تتسرب في تلافيف الحاضر وكثير من مرجعيات الحاضر تستمد نسغها من صلابة النموذج السابق ويصعب تخليص الأفكار الجديدة من التصورات الموروثة إلا بواسطة النقد الجذري والمراجعة المتواصلة وهما أمران يستغرقان وقتا طويلا ... [03] .

فأين هو النقد الحداثي العربي من كل هذا ؟ لقد اكتشف البحث بعد قرائته البنيوية ومحاولته التقرب من قضيتها ثم تقديمها بالشكل الذي ارتضاه ، أن البنيوية لم تمثل سوى الوجه الآخر للغرب / المركز، الذي يرى في نفسه أصلا للحضارة الإنسانية ، ومركزا يشع بالمعرفة بمختلف صنوفها ، و عداه أي الشرق هامش ، وأعراض ... فما البنيوية إلا كل وسيلة من وسائل القمع ، والتقتيل للجانب اللاشعوري الإنساني الذي اعتاد الناقد عليه في دراسته للنصوص ، من خلال ما تطرحه من آليات بحث وإجراءات مقاربة للناقد الغريب عنها ...

ومن خلال ما تتمتع به من قدرة على الإغراء و الغواية . وإن كانت في حقيقتها سوى حالة من حالات التمزق و الصراع الفلسفي الغريبي ، هذا الصراع القائم منذ القديم و الذي يرى بأن الحقيقة وهم من الأوهام التي أقرها العقل في مسيرته من أفلاطون إلى كانط و ديكارت ، بل من أفلاطون إلى بارث ودريدا ... وأكـــرر تسائلي: أين يقف النقد الحداثي العربي من كل هذا؟ ألم يدعي نقادنا الجدد أنهم يملكون آليات و مصطلحات بنيوية يتوسلون بها في مجال النقد ، وأي وسائل هذه؟ أليست لهذه الوسائل أصول غربية بحتة؟ أم هل ستبقى حداثتهم ممسوخة إن لم تتصل بصلة وثيقة مع فنون الحداثة الغربية؟

و أي حداثة هذه؟ ، فالحداثة النقدية الغربية وثيقة صلة –كما هو معلوم– بأصولها الفلسفية و بتراثها الفكري. ألا يقع النقاد الحداثيون العرب في تناقض: إذ كيف يتم إستخدام مصطلحات نقدية فلسفية المرجع مأخوذة من بيئة ثقافية تختلف عن البيئة الحضارية للنص المقارب بل تناقضه؟ أم أن النقد معرفة علامية يمكن إستقطابها و تبني مقولاتها دون أن يكون في ذلك مساس بماضي الشعوب و تراثها. أم ماذا.

---

(02) سعيد الغانمي ، " البنيوية : النموذج اللغوي و المعنى الفلسفي " ، ضمن كتاب : " معرفة الآخر " ، ص : 26 .

(03) ينظر عبد الله إبراهيم ، " المطابقة والاختلاف : المركزية الغربية " ، ص : 71 .

الخاتمة

أصل إلى الخاتمة هذا الموضوع الذي حاولت أن أستجلي فيه قضية – النظرية البنيوية – و هي قضية أثارت الكثير من الجعل بين أهل الدراية من العلماء في مجال النقد و يتعلق الأمر بأصول النظرية البنيوية و على هذا الأساس فقد انطلقت من البحث في الأصول اللسانية للنظرية البنيوية باعتبارها منهج في المعاينة و طريقة في الرؤية و هي وليدة الدراسات اللسانية الحديثة لاصل الى انهم ما حققته اللسانيات البنيوية من خلال ما تركه من ماثر و منجزات سواء في الدراسات اللغوية او في غيرها من النشاطات المعروفة و الفكرية الأخرى و إن كانت المدارس اللسانية الأوروبية و الأمريكية أكبر مترجم عن الهيكل التصنيفي لمذاهب علم اللسانيات الحديث و دون أن أسس البحث في الأصول الفلسفي لها فتوصلت من خلال دراستي إلى عدة نتائج هي :

1- يعتبر مفهوم البنية من المفاهيم التي يصعب تحديدها أو إعطاءها تعريفا شاملا و موحدا و ليس أدل على ذلك من كثرة التعريفات التي نجها متناثرة هنا و هناك .. و لذلك فقد يكون أبسط تعريف للبنية هو القول بأنها كل مكون من ظواهر متماسكة يتوقف كل منها على ما عداه و لا يمكن أن يكون ما هو بفضل علاقتنا بما عداه

2- للبنية مفاهيم عدة كالشق التزامن التعاقب الألية ... و هي نسق أو نظام يعمل رفق قوانين مجتمعة تميزه الكلية و التحويل و الإنتظام .

3- يعد التاريخ أكثر العلوم الإنسانية التي تعرضت للإهانة و التجريح من قبل البنيوية إذ رفضت أن تعطيه الأولوية و الصدارة من خلال رفضها لأن تكون الصدارة للبعد الزمني على البعد المكاني فالبنيوية تؤكد على ضرورة و أولوية الدراسة التزامنية الآنية للأحداث التاريخية على الدراسة التعاقبة كما تعمل على استبعاد التناقضات الجدلية التي تقف وراء العمليات الداخلية للتطور الاجتماعي و هي نفس قوانين التطور التاريخي مثل : الصراعات الطبقية داخل المجتمع .. و عموما فقد اضحت البنيوية نزعة متعالية تلغي التاريخ و تغترب بلانسان في سجون النسق أو النظام .

4- لقد تمكنت البنيوية من خلال سعيها وراء النموا ج اللساني من بناء موقف نقدي جعل منها فكرية واسعة شملت العديد من الميادين و ناقشت الكثير من المواضيع من قبل عدد لا بأس به من المغكريين الباحثين للذين لمعت نجوم اسماءهم في سماء البنيوية و منهم الانتربولوجي كلود ليفي شتراوس الناقد الأدبي رولان بارث عالم النفس الشهير جاك لا كان المؤرخ ميشال فوكو الفيلسوف جاك دريد الأديب لوسيان غولدمان .. و هذا ما يدل على اتساع المجالات الطبيقية و المعرفية البنيوية و ذالك باتساع عدد مفكريها أو المنتمين إليها فلم يعد المذهب البنيوي في الحقيقة ظاهرة منعزلة بل هو آت عن نزعة عامة في التفكير شغلت الباحثين في كل فروع البحث العلمي في العلم و الفن و اللغة و الدراسات الانسانية على السواء

5- اللسانيات هي الدراسة العلمية للغات البشرية و تعني بدراسة الأنظمة اللغوية دراسة أنية وصفية وإن كانت في الحقيقة تتويجا لكل الأعمال السابقة التي عرفتها الفيلولوحيا و النحو التقليدي .. .. دي سويسر الذي يعد مؤسسا لعصر بأكمله من الدرس اللساني قهو مؤسس المدرسة الاجتماعية في دراسات اللسانية و إليه يرجع الفضل في تحديد المنهج الحديث بإبراز تقاصيله و حدوده و إيضاح مبرراته و

امكانات تطبيقه كما انه قام الوضع الاسس النظرية التي مهدت لتحول البحث اللساني من المنهج التاريخي المقارن الى البنيوية فقد طرح في بداية كتاته قضية بينية اللغة و هي قضية لم يعرها الباحثون قبله اهتماما يذكر.

لكنها غدت المكون الأساس للسانيات البنيوية في القرن العشرين باعتبار ان اللغة كيان واحد متكامل يتكون من جزئيات في نظام محكم تحكمه عدة علاقات . فالبنية هي مجموعة العلاقات القائمة بين عناصر النظام . و إضافة إلى ذلك يعتبر ..دي سويسر من اوائل المبشرين بالسيميولوجيا في لعصر الحديث، فقد تطلع غليها بمنظار لساني و ليس بمنظار فلسفي كما فعل الفيلسوف الأمريكي شارل بيرس.

6- و في أوائل القرن العشرين ظهرت مجموعة مدارس لسانية كبيرة في اوروبا تكونت على يد لفيف من اللسانيين الاوروبيين امثال: شارل بالي ،سيشهاي ،جاكسون ،تروبتسكوي ،مارتيني ،هلمسيلف ،و غيرهم ممن قرؤوا محاضرات دي سويسر ،باهتمام ، و أدركوا وجاهة طروحاتها ،و أهمية الثورة اللسانية التي جاءت بها .فتبنوها و سخروا أقلامهم لشرح مقولاتها ، و استثمار مفاهيمها ، و تعريف الدارسين بها ....و من اهم هذه المدارس أذكر :

7- مدرسة جنيف و هي مدرسة ذات اتجاه سويسري ابثقت من الافكار الواردة في محاضرات دي سوسير و تعرف بالمدرسة التقليدية و من اكبر المروجين لها شارل بالي و ابار سيشهاي

8- مدرسة براغ لقد استفادت هذه المدرسة من اراء سوسيري بقدر ما ستغلت منطلقتها النظرية في اعمالها و كونت لنفسها نظرية لغوية ذاع صيتها في ميدان الفونو لوجيا و ركزت في ابحاثها على الجانب الوظيفي الذي يقوم في الدراسات اللسانية الحديثة على ضرورة دراسة اللغة باعتبارها نظاما تتحرك به الالسنة بطريقة معينة لتتمكن من التواصل و على هذا الاساس يجب دراسة هذا النظام في ذاته و لذاته لتغهم كيفية تحقيقه لهذه الغاية و كانت مدرسة براغ منن استعملت كلمة ينية كمفهوم جديد و ذلك سنة 1928 كما استفادت هذه المدرسة من النظرية الظواهرية عند هوسرك و من اقطابها فيلام ما ثيسيوس نيكولاي يروبتسكوي رومان جاكسون اندريه مارتنه

9- مدرسة كوبنهاثن مدرسة دنماركية تمركزت بكوبنهاقن و اقترنت اساسا باسم لويس هلمسليف و برودل و قد عرفت بالمدرسة الغلوسييمية اين حاولت توسيع المفاهيم السويسرية و ذلك لمعالجة الظواهر اللسانية معالجة دقيقة على منوال المنهج التجريبي في دراسة جزئيات اللغة فاعتبرت هذه الدراسة اول تعميق منهجي و علمي لاراء دي سوسير اللسانية و اول عصرنة للدراسات اللغوية باستخدام المناهج العلمية الرياضية كما حاولت دراسة الاصوات من حيث هي صورة و اشكال دون الرجوع اليها كمظاهر مادية و سعت في نظر هلمسيف قابلة للانفصال عما تبينه و لذلك فقد عرفت هذه المدرسة بالمعالجة العلمية الدقيقة للغة من خلال الدراسة المنطقية الدراسة المنطقية المجردة

10- المدرسة الروسية : تعتبر المدرسة الروسية من اهم المدارس التي انبثق عن السويسرية و قد تمثلت في مجموعة من المدراس استطاعت ان تقدم افكارا جليلة و ملاحظات هامة كانت بمثابة المبشر لبعض سمات المنهج البنوي و التي لم يتقطن الدارسون لاهميتها الا بعد انتشار مبادى اللسانيات السويسرية و من اهم هذه هذه

المدراس او النزاعات اذكر منها مدرسة قازان و من اقطابها بودون دي كورتوناي و ميكولاي كروسفكي الذين قاما في السبعينيات من القرن التاسع عشر بتطوير الافكار اللسانية و بلورتها اضافة الى ذلك فقد كون فيليب فورتوناف و في نفس الفترة الزمنية تقريبا مدرسة موسكو التي سميت باسمه اين كشف معاجته لبعض الظواهر اللسانية عن حس متميز باتساع اقاف البحث ... و برغم هذه المحاولات الجبارة في خلق علم لغوي روسي لا قائم بذاته تحتل حركة الشكلايين الروس الصدارة في هذا العمل حيث كان روادها ابرز من تاثره باراء اللسانية لدى سوسير و اجتهدوا في ايجاد علم ادبي انطلاقا من الخصائص الجوهرية للمادة الادبية التي هي المادة اللغوية في حد ذاتها لادراكهم ان يميز النص الادبي عن نص اخر هو اللغة في وظيفتها الجمالية .

11- اما اللسانيات الامريكية فقد تاثرت بالابحاث الحقلية الانتروبلوجية التي قام باجرائها كل من بوواز سابير ووف على اللغات الهندية الامريكية من جهة و بالنشاطات الدينية المسيحية التي قام بها بعض الباحثين من جهة اخرى اضافة الى هيمنة اللسانيات الوصفية البنيوية التي وضع اسسها بلومفيلد على الساحة الامريكية حتى اواخر الخمسينيات ، حيث كان له ابرز الاثر في ذلك . و بعدما كانت علاقات اللسانيات الامريكية باللسانيات الاوروبية تتسم بالضيق و الانغلاق ،لا سيما في تصوراتها المنهجية ، تغير الموقف بعد عام 1950 و بدا الامريكيون في التعرف الى النمط البنيوي لدى حلقة براغ ، حيث اصبحت نظريةالفونام التي تقوم على الكشف عن السمات المائزة اكثر اقناعا من النظرية الامريكية التي تتحرك حركة مغلقة في اطار المعايير التوزيعية ، الكثير من الدارسين من يرى ان النظرية الامريكية ظلت مغلقة في حقل التحليل التوزيعي بالرغم من التعرف على الابحاث اللغوية الاوروبية ، فتبقى النظرية التوزيعية هي نتاج الدراسات الصرفية و السانتكسية في التحليل اللساني ، و ذلك ان المنهج التوزيعي ينطلق من اعتبار الوقائع اللسانية ظواهر سلوكية للافراد بنوع خاص ، مما ادى الى مطالبة المحلل اللساني لمدونة من المدونات ان يعمل على ابراز تلك العلاقة الموجودة بين المجموعة الصوتية المتتابعة في السلسلة الكلامية او الخطاب من جهة و بين الحافز الذي يستدعي الاستجابة او رد الفعل من جهة ثانية.

و بشكل عام ، تعد البنوية الصيحة التي حمعت بين مدارس مختلفة في علم اللغة في لقرن العشرين ، و بهذا المعنى يمكن القول ان المدارس اللسانية الحديثة منذ دي سوسير و حتى تشومسكي تنتمي الى المذهب البنيوي بصورة او باخرى ، لانها جميعها استهلمت منهج دي سوسير في احلال البنيوية محل الذرية ، و النظر الى اللغة على انها صورة لا مادة ، و الاخذ بمبدا النسق الذي يعطي الصدارة للنظام الكلي على اجزائه او عناصره ، و ان اللغة نظام من العلاقات النترابطة التي يتوقف بعضها على بعض .

8-ان المنهج البنيوي منهج قائم بذاته ، يتمتع بالخصائص العامة للمناهج العلمية ، حيث تربطه بالمنهج النسقي علاقة تماثل او تشابه ، نظرا للخصائص الاساسية التي يتمتع بها مفهوم النسق و البنية و كذلك الشرط المنهجي الذي يقتضي وجود البنية داخل نسق معين...فكثيرا ما يقال ان المنهج البنيوي هو المنهج اللساني في صيغته البنيوية ، نظرا لما حققه من تقدم علمي ، ساعد على تحديد مجرى اللسانيات و الابتعاد بها كليا عن مناهج اللسانيات التاريخية نتيجة تمسكها بمبادىء العلوم الصحيحة . و ثمة مجموعة من الاسباب الهامة التي جعلت اللسانيات نموذجا للمنهج البنيوي :(1) اللسانيات هي العلم الوحيد الذي

يمكن وضعه على قدم المساواة مع العلوم الطبيعية و الدقيقة.(2) تدرس اللسانيات موضوعا عاما هو اللغة.اذ لا يوجد مجتمع بشري دون لغة.(03)لان منهجها متشابه، أي انه يمكن اتباع نفس المنهج في دراسة أي لغة ، قديمة كانت او حديثة ن بدائية او متحضرة(04) لان منهجها يعتمد على بعض المبادىء الاساسية التي لا يختلف عليها الباحثون و المتخصصون ....و عليه استطيع القول ان المنهج البنيوي يعد معلما من معالم تطور المناهج العلمية في العلوم الانسانية نظرا لما يتمتع به من خصائص و مميزات و ابعاد نظرية و ايديولوجية . إن المنهج البنيوي يعتبر تجليا للتحول الجذري الذي عرفته العلوم الانسانية في القرن العشرين ، و رؤية جديدة لمراجعة التصورات السائدة و التقاليد التي رسختها الافكار السابقة للقرن التاسع عشر. و لقد اتخذ من صفة البنية ميزته الاساسية التي اكسبته جملة من الخصائص كالكلية و الثبات و العلاقات ، كما يعتمد المنهج البنيوي كغيره من المناهج على جملة من المبادىء و القواعد جعلت منه منهجا قائما بذاته.

9-النموذج اطار نظري لتعريف الوقائع ، و هو اداة للكشف عن البنية ، مع ملاحظة أن البنية المناسبة هي الابسط من غيرها و التي بتفسير اكبر قدر من الظواهر.

10-و لكي استجلي الاسباب المفضية لبروز المنهج البنيوي لا بد من معرفة الاسس الفلسفية التي تمده. ذلك ان المقصود بالجذور الفلسفية للبنيوية ، انما يقصد به المناخ الفكري الذي سبق ظهور البنيوية ، و الذي يعزى اليه فضل المساهمة في تهيئة الاجواء لميلاد هذا المشروع ....فان الميزة الاساسية للفلسفة الفرنسية ما قبل البنيوية هو ولعها بالذاتية ، و بالتحديد بالكوجيتو الديكارتي ، فجاءت البنيوية -بذلك- في فترة متميزة كان فيها التفكيك و الانقسام يلعب دوره الحاسم بين المعارف و العلوم التي كانت تنوي الوصول الى النسق المتماسك.

11-تعتبر البنيوية نزعة علمية سعى الى توحيد جميع العلوم في نظام واحد ، و ان تفسر علميا كل الظواهر الانسانية . و لقد استفادت البنيوية كثيرا من الاتجاهات الفلسفية الجديدة المسماة بالاستمولوجيا ، لانها تندرج معها ضمن التيار العقلاني المعاصر الذي يسعى الى التخلص من المشكلات التقليدية للفلسفة الفرنسية ، والاعتماد -بالتالي -على المعرفة العلمية كاساس لحل المشكلات المعرفية و المنهجية ، كما ان للبنيوية علاقة وثيقة بالفلسفات الهيغلية و الفينومينولوجية (الظواهرية) على الرغم من وجود بعض الاختلافات حول بعض المفاهيم ...في حين تكن البنيوية العداء للفلسفة الوجودية نظرا لعدة اسباب ، لعل من اهمها إلغاء البنيوية لمفهوم الانسان من اعمالها بدعوى انه يعرقل مسيرتها و يتعارض مع منطلقاتها و توجهاتها ، بدعوى تطبيق مبدا الدقة و الصرامة العلمية في مجال الفلسفة و العلوم الانسانية على السواء....في حين اصرت الوجودية الحفاظ على مفهوم الانسان و اعطائه المسؤولية الكاملة .

12- تؤكد الجذور الخفية للبنيوية انها لم تنشا من فراغ ، وانها امتداد للشكلية الروسية بقدر ما هي ثورة عليها ، و تطوير للنقد الجديد بقدر ماهي رفض له، و فوق هذا و ذاك فانها النتيجة المنطقية لانجازات العقل و التفكير العلمي و الفلسفي ، لانها جاءت كتطور طبيعي لنتاج فكري يعود الى نهاية القرن السادس عشر ، أي بدءا من الفلسفة التجريبية على يد لوك و هيوم و بركلي ، مرورا الى الفلسفة الظاهراتية عند ينتشه و هوسلر و هيدغر . بل ان الفيلسوف التفكيكي جاك دريدا يرجع اصول الحداثة الغربية -و البنيوية أحد ابرز مشاريعها -الى افلاطون و ارسطو ،حيث يعود صراع ثنائية (الداخل/ الخارج): بين من يرى الحقيقة

(اليقين /المعنى)موجودة في الخارج (الطبيعة) ، و بين من يراها قابعة في العقل كمركز للادراك و المعرفة .

13- لقد صار من البديهي القول ان البنيوية قد ولدت نتيجة لكشوفات اللسانيات الحديثة في القرن ، فان المحجوب في هذا القول هو انها الوجه الاخر للغرب / المركز الذي يرى يرى الجوهر الوحيد في العالم و المورد الذي لا ينضب و عداه ، أي الشرق ، هامش و اطراف ....فهذه هي خصوصية العقل الغربي ، يظهر غير ما يبطن ، فقد انتقل هذا العقل المتمركز حول نفسه – من علم تجريبي قائم على الملاحظة و التجربة الى استعمال للعقل في البرهنة على وجود الحقيقة ، حيث ان هذا الانتقال دليل قاطع على ماساة الغرب و تقلبه في البحث عن السعادة والديمومة في هذا الكون ، بحث طويل جعله يتقلب بين قطبي الخارج و الداخل او قطبي الشك و اليقين الموضوعي الذي اثبته العلم التجريبي من ناحية و تتقاطع مع الفلسفةالعقلية / المثالية في مبدا النسق كذلك .

14- ثمة جملة من الاسس الثقافية و الفلسفية و الايديولوجية التي اقتضت ظهور البنيوية و التي تبين لنا اكثر من ذي قبل انغراس مثل هذا المنهج في لحمته الثقافية الغربية و صعوبة نقله كما هو الى بيئات ثقافية مغايرة ، و هذا ما حدث فعلا مع نقدنا الحداثي العربي ... فما علينا فعله حقيقة هو قراءة الاعمال الحداثية الغربية قراءة جديدة ، و لكنها قراءة غير منطقية عن البيئة التي انتجتها . بمعنى انه يجب علينا ان لا نلهث دائما وراء كل ما يجد في الغرب دون ان ينظر الى الوراء و ان ننظر الى انفسنا او ان نفعل شيئا سوى التبعية ...

فهرس المـــــــــــراجع

* القـــرآن الكريم برواية حفص .

المراجع العربية :

- إبراهيم زكريا ،" مشكلة البنية - أو أضواء على البنيوية-" ، دار مصر للطباعة والنشر، (د-ط) مصر ،1976م
- إبراهيم السامرائي ،" التطور اللغوي التاريخي " ،دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، ط (03) ، لبنان ، 1983
- أحمد محمد قدور ، "مبادئ اللسانيات " ، دار الفكر ،ط (02) ، سوريا ، 1999 .
- أحمد مختار عمر ، "محاضرات في علم اللغة الحديث " ، عالم الكتب ، ط (01) ، مصر ،1995 .
- أحمد مومن ، " اللسانيات – النشأة والتطور –" ، ديوان المطبوعات الجامعية ، (د-ط) ، الجزائر ، 2002 . أحمد حساني ،" مباحث في اللسانيات " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط (01) ،الجزائر ، 1999
- أحمد عزوز ، " المدارس اللسانية – أعلامها ،مبادئها ،ومناهج تحليلها للأداء التواصلي –" دار الأديب للنشر والتوزيع ، ط (01) ، وهران – الجزائر ،2005 .
- الربيع ميمون :

  " نظرية القيم في الفكر المعاصر " ، الشركة الوطنية للنشر ةالتوزيع ، (د-ط) ،الجزائر ، 1980

  " مشكلة الدور الديكارتي " ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، ط (01) ، الجزائر ، 1982 .
- الزواوي بغورة ، " المنهج البنيوي - بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقات –" ، دار الهدى للنشر ط (01) ، الجزائر ،2001
- السيد الباز العريني ، " الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى " ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ق (01) ، ط(02) ،بيروت – لبنان ، 1968 .
- الطيب دبة ،" مبادئ اللسانيات البنيوية –دراسة تحليلية استمولوجية – "دار القصبة للنشر ،ط(01) الجزائر، 2001.
- إميل يعقوب وميشال العاصي ، " المعجم المفصل في اللغة والأدب " ، دار العلم للملايين ، بيروت – لبنان .
- إمام عبد الفتاح إمام ،" المنهج الجدلي عند هيغل " ، دار المعارف ،(د-ط) مصر ،1969 .
- حسن حنفي ،" التراث والتجديد –موقفنا من التراث القديم – " ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ،ط (05) ،بيروت –لبنان ،2002 .

❖ حنفي بن عيسى ،" محاضرات في علم النفس اللغوي " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط (05) الجزائر ،2003 .

❖ خثير الذويبي ، " البنيوية و العمل الأدبي – دراسة بنيوية شكلانية (لمرثية مالك بن الريب)" ،مطبعة موساوي ، ط(01) ، سطيف – الجزائر ، 2001 .

❖ خليل الموسى ،"الحداثة في حركة الشعر العربي المعاصر" ، مطبعة الجمهورية ، ط(01) ، دمشق – سوريا 1991.

❖ سعد البازغي ، " استقبال الآخر – الغرب في النقد العربي الحديث – " المركز الثقافي العربي ط (01) ، الدار البيضاء (المغرب)، وبيروت (لبنان) ،2004 .

❖ سمير أمين ،" نحو نظرية للثقافة " ، معهد الإنماء العربي ،(د-ط) ،بيروت – لبنان ،1989 .

❖ صلاح فضل ،" نظرية البنائية في النقد الأدبي " ، دار الآفاق الجديدة للنشر ، ط (02) ، بيروت – لبنان، 1980.

❖ عبد الجليل مرتاض ،" مقاربات أولية في علم اللهجات " ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، الجزائر 2002 .

❖ عبد الله إبراهيم،"المطابقة و الاختلاف: المركزية الغربية –إشكالية التكون والتمركز حول الذات " المركز الثقافي العربي ، ط (01) ،الدار البيضاء و بيروت،1997.

❖ عبد الله إبراهيم، سعيد الغانمي ، عواد علي ، "معرفة الآخر- مدخل المناهج النقدية الحديثة"، المركز الثقافي العربي ، ط (02) ، الدار البيضاء و بيروت ،1996.

❖ عبده الراجحي ، "علم اللغة التطبيقي و تعليم العربية " ، دار المعرفة الجامعية ، (د- ط) ،مصر 1992.

❖ عبد السلام المسدي ،" قضية البنيوية – دراسة و نماذج " ، دار أمية للنشر ، ط (01)، تونس، 1991.

❖ عبد القادر عبد الجليل ، "الأصوات اللغوية "، دار صفاء للنشر و التوزيع، (د- ط) ، الأردن 1998.

❖ عبد القادر بشته، " الفلسفة العلم – من كانط و نيوتن إلى الوضعية و حدود المعرفة الإنسانية" دار الطليعة للطباعة و النشر ، ط(01) ، بيروت - لبنان،2002.

❖ عصام نور الدين ، "علم وظائف الأصوات اللغوية – الفونولوجيا –"، دار الفكر اللبناني للطباعة و النشر ، ط (01) لبنان ،1996.

❖ علي حرب ، " النص والحقيقة – نقد النص " ، المركز الثقافي العربي ، ط (03) ، الدار البيضاء و بيروت ، 2000

❖ عمر مهيبل:

-" البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر " ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط (02) ،الجزائر ،1993.

-" من النسق إلى الذات – قراءات في الفكر الغربي المعاصر"، منشورات الاختلاف،ط (01) ،الجزائر 2001.

❖ فاطمة الطبال بركة ،" النظرية الألسنية عند رومان جاكبسون "، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط (01) ، بيروت - لبنان ، 1993.

❖ كريم زكي حسام الدين ،" أصول تراثية في علم اللغة" ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط (02) ، مصر 1985.

❖ كمال أبو ديب ، "جدلية الخفاء و التجلي – دراسات بنيوية في الشعر" ، دار العلم للملايين ، ط(03) بيروت - لبنان 1984.

❖ كمال محمد بشر ، "علم اللغة العام –الأصوات "، دار المعارف للنشر ، ط (01)، مصر ،1971.

❖ مازن الوعر، "دراسات لسانية تطبيقية" ،دار طلاس للدراسات والترجمة و النشر ط(01)،سوريا،1989.

❖ محمد عبد الرحمن بيصار، "تأملات في الفلسفة الحديثة و المعاصرة" ، منشورات المكتبة العصرية ط(03) ، بيروت – لبنان ،1980.

❖ محمد عبد المنعم خفاجي ، "دراسات في الأدب العربي الحديث و مدارسه "، دار الجيل ، ج (01) ، ط (01) بيروت- لبنان،1992.

❖ محمود يعقوبي ، "الوجيز في الفلسفة" ، المعهد التربوي الوطني ،(د-ط) ، الجزائر ،1984.

❖ محمود السعران ،"علم اللغة –مقدمة للقارئ العربي"، دار النهضة للطباعة والنشر، (د-ط) بيروت-لبنان،(د-ت-ن).

❖ محمود فهمي حجازي ، "مدخل إلى علم اللغة" ، دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع ، (د-ط) القاهرة 1998.

❖ مراد وهبة ، " المعجم الفلسفي "، دار مأمون للطباعة و النشر ط(03)، مصر ، 1979.

❖ مصطفى السعدني ، "المدخل اللغوي في نقد الشعر –قراءة بنيوية "، المعارف الإسكندرية للنشر (د-ط)، مصر 1987.

❖ ميشال زكريا ، "الألسنية –علم اللغة الحديث / مبادئ الإعلام " ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ط (02) ، لبنان ، 1983.

❖ نبيل راغب ، " موسوعة النظريات الأدبية " ، مكتبة لبنان ناشرون و الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان (د-ط) ، القاهرة – مصر ، 2002.

❖ نور الهدى لوشن ، " مباحث في علم اللغة و مناهج البحث اللغوي " ، المكتبة الجامعية (د-ط) مصر، 2000

❖ وائل بركات ، " مفهومات في بنية النص " ، دار مهد للطباعة والنشر والتوزيع ، ط(01) ، دمشق – سوريا . 1996

❖ يمنى العيد (د. حكمت صباغ الخطيب)، " في معرفة النص – دراسات في النقد الأدبي – " دار الآداب ، ط (04) بيروت – لبنان ، 1999 .

❖ " تاريخ الأدب الغربي " ، تأليف : نخبة من الأساتذة المختصين ، دار طلاس للدراسات والترجمة و النشر ج (01) و ج (02) ، دمشق- سوريا ، (د – ت- ن).

المراجع المترجمة :

❖ اندريه مارتينه ،" مبادئ اللسانيات العامة " ، تر: أحمد الحمو ، المطبعة الجديدة ،(د-ط) ،سوريا 1985

❖ برتراند رسل ، " تاريخ الفلسفة الغربية "، تر : زكي نجيب محمود ، مرا : أحمد أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط(02) ،القاهرة – مصر ، 1968 .

❖ جان بياجيه ، " البنيوية " ، تر: عارف منيمنة وبشير أو يري ، منشورات عويدات ، ط (01) .بيروت – لبنان 1971 .

❖ جورج مونين ، " تاريخ علم اللغة - منذ نشأتها حتى القرن العشرين – " تر: بدر الدين القاسم مطبعة جامعة دمشق ، (د- ط) ، سوريا ، 1972 .

❖ جون هارمن راندال ، " تكوين العقل الحديث " ، تر: جورج طعمة ، مرا: برهان دجاني ، تق :محمد حسين هيكل مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ، ج (02) ، ط(02) ، بيروت – لبنان ، 1966.

❖ جون ليونز، " نظرية تشو مسكي اللغوية " ،تر وتع :حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية ،ط (02) مصر. 1995.

❖ جيفري ساميسون ، " المدارس اللغوية – التطور والصراع –" تر : أحمد نعيم الكراعين ، المؤسسة الجماعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ط(01) ، لبنان ، 1993 .

❖ رامان سلدن ، " النظرية الأدبية المعاصرة " ، تر: جابر عصفور ، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع . ط (01) القاهرة – مصر ،1998 .

❖ روجيه غارودي ،" وعود الإسلام" ،تر: مهدي زغيب ،الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ط (01) بيروت – لبنان ، 1984 .

❖ فرانسوا غريغوار ، " المشكلات الميتافيزيقية الكبرى " ، تر : نهاد رضا ، منشورات دار مكتبة الحياة (د-ط) بيروت – لبنان ، (د-ت-ن) .

❖ فردينان دي سوسير ،" دروس في الألسنية العامة " ، تعر : صالح القرمادي – محمد الشاوش – محمد عجينة الدار العربية للكتاب ،(د-ط) ،طرابلس – ليبيا ،1985 .

❖ ول ديورانت ،" قصة الفلسفة –من أفلاطون إلى جون ديوي –"، تر : فتح الله محمد المشعشع منشورات مكتبة المعارف ،ط (04) ،بيروت – لبنان ،1979 .

الدوريـــــــــــات :

❖ جون ستروك ،" البنيوية وما بعدها –من ليفي شتراوس إلى دريدا –" ، تر :محمد عصفور ،" عالم المعرفة " العدد :206 ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، فبراير ،1996.

❖ عبد الرحمن الحاج صالح ،" مقال : مدخل إلى علم اللسان ،" اللسانيات " ، معهد العلوم اللسانية والصوتية المجلد الثاني ، العدد الأول ، الجزائر ، 1972.

❖ عبد العزيز حمودة ، " المرايا المحدبة – من البنيوية إلى التفكيك –" ، " عالم المعرفة" ، العدد :232 المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب ، الكويت ، أفريل / نيسان ، 1998 .

❖ عبد الغني بارة ، مقال : " البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي " ، " المبرز" ، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية ، بوزريعة – الجزائر ، فيفري 2002.

❖ كامران قرة داغي ،مقال : " البنيوية من وجهة نظر سوفيتية "، " الأقلام" ،منشورات وزارة الثقافة والإعلام دار الجاحظ ،العدد الحادي عشر ، السنة الخامسة عشرة ، بغداد – العراق ، 1980.

❖ ميشال فوكو ، " البنيوية والتحليل الأدبي " ، تر : محمد الخماسي ، " العرب والفكر العالمي " مركز الإنماء القومي ، العدد الأول ، بيروت –باريس ، شتاء 1988.

❖ وفاء محمد كامل ،مقال : " البنيوية في اللسانيات " ، عالم الفكر ، المجلد (26) ،العدد (02) ، أكتوبر –ديسمبر. 1997

المراجع الأجنـــــــبية :

- Andrée martinet , " éléments de linguistique générale " , Armand colin , paris 1970.
- Ferdinand de Saussure , " cours de linguistique générale ", édition critique préparée par tulio de mouro , poyot , paris , 1985
- Criulio C , lepschy , " la linguistique structurale " , traduit par : louis jean calvet petite publiothéque poyot , paris , 1976.
- Oswald Ducrot , " qu'est –ce que le structuralisme ?- 1. le structuralisme en linguistique " , édition du seuil , paris , 1968 .
- Patrick Guelpa , " introduction à la l'analyse linguistique" , Armand colin /Masson Paris , 1997 .

فهـــــــرس الموضوعات

المحتوى : **الصفحة :**(من- إلى)

مـــــــــختصرات
مـــــــــــقدمة.....(أ-ح)
مدخل:البنيوية(قراءة في المفهوم) .....(02-15)
1- ما هي البنية؟ وما هي الـــــــبنيوية؟ .....(02-08)
1-1- في الأصل اللغوي. 02
1-2- في التعريف الاصطلاحي..... 03
1-3- أهم ميزات البنية (حسب جان بياجيه) ....(06-08)
1-3-1- الكليـــــــــة (Totalité)..... 06.
1-3-2- التحـــــويلات (Transformation)..... 07..
1-3-3- الضبط الذاتي (Autoréglage)..... 07

2 – مفاهيم في الـــــــــبنيوية : .....(08-13)
2-1-مفهوم النسق أو النظام (Système)..... 08
2-2- مفهوم التزامـــــــن (Synchronie) 11
2-3-مفهوم التعاقـــــــب (Diachronie) 12
3- الـــــــــبنيوية و التاريخ: ....(14-16)

الفـــــــــصل الأول: الأصول اللـــــــــــــسانية للبنيوية

المنشأ اللساني للبنيويـــــــة.....(17 -43)
1 - لمحة تاريخية عن الدراسات اللسانية في مرحلة ما قبل البنيوية..... 17
2- تعريف باللسانيات (مادتها، مهمتها، موضوعها). 24
3- خصائص اللسانيات 27

4- اللسانيات البنيوية لفردينان دي سويسر .....(29-43)
4 -1- تعريف دي سويسر.....29
4 -2- أسس الفكر الغوي عند دي سويسر. 30
4-3- اللسانيات الداخلية و اللسانيات الخارجية. 37
4-4- دي سويسر و النموذج اللساني 39
4-5- المفاهيم الثنائية لدي سويسر..... 42

الفصل الثانـــي:اللسانيات البنيوية الأوروبية و الأمريكية

(من خلال أشهر المدارس و النظريات)
I) -اللسانيات البنيوية الأوروبية.....(45 -75)
تمهيد..... .... 45.
1-مـــــــــدرسة جينيف.....45
2- مـــــــــدرسة براغ.....(48-61)
2 -1- التأسيـــــــس 48

2-2- مبادئها وأفكارها اللغوية .... (50-61)
2-2-1- التركيز على الجانب الوظيفي في اللغة ودراستها..... 50
2-2-2- التمييز بين المنهجين التزامني والتاريخي في دراسة اللغة.... 52
2-2-3- التحليل الفونولوجي ونظرية الفونام.....53
2-2-4- الدراسة التركيبية..... 59
3/2- الخلاصة 61
3 - مدرسة كوبنهاغن 62
4- المدرسة الروسية..... .... (62-75)
4-1- مدرسة قازان..... 63
4-2- مدرسة فورتوناتوف أو مدرسة موسكو 65
4-3- حركة الشكلانيين الروس (Les formalistes russes)..... (66-75)
4-3-1- نشأة المدرسة الشكلية 66
4-3-2- مبادئ واهتمامات الشكلانيين 67
4-3-3- الشكلية والفن 69
4-3-4- مدرسة باختين 71
4-3-5- البنيوية الشكلية 73
4-3-6- الخلاصة 75

الفـــــــصل الثالث : الأصول الفلسفية للبنيوية

الأصول الفلسفية للبنيوية ..... (77-100)
1- هل البنيوية منهج أم مذهب؟ 77
2- ليفي شتراوس بين العلم والفلسفة.....82
3- النزعة الكانطية عندليفي شتراوس 87
4- البنيوية من أين ؟ وإلى أين ؟ (موقف من البنيوية) 95

الفصل الرابع : الحداثة الغربية وبعض التحولات الفكرية الكبرى المصاحبة لها

الحداثة الغربية وبعض التحولات الفكرية الكبرى المصاحبة لها.....(102 -133)
1- الحداثة الغربية 102
2- الركائز الفلسفية للنزعة العلمية والعقلية عند الغرب .....(104-)
2 -1- الطابع العام للحياة الفكرية في العصور الوسطى..... 104
2-2- العلم التجريبي والتفسير الخارجي (المادي) ..... (108 -115)
2-2-1- الكشوفات الجغرافية الكبرى 110
2-2-2- الثورة الفكرية والعلمية.....111
2-3- الفلسفة العقلية (المثالية) والنسق المغلق ..... (115-125)
2-3-1- الكوجيتو الديكارتي وبذور الذاتية الغربية 118
2-3-2- كانط : مشروع التوفيق والمعرفة المتعالية 121
2-3-3- النسق الهيغلي وبناء التمركز الغربي 122
نتيجة 124
2-4- نيتشه وفلسفة موت الحقيقة / الإله / العقل..... (126-130)
3 - البنيوية و النموذج اللساني (سجن اللغة/ النسق)..... (130 - 137)
4 - البنيوية و ما بعدها .....(137 -140)

الـــــــخاتمة ..... (144-141)
فهرس المراجع ..... (148-145)
فهرس الموضوعات ..... (150-148)